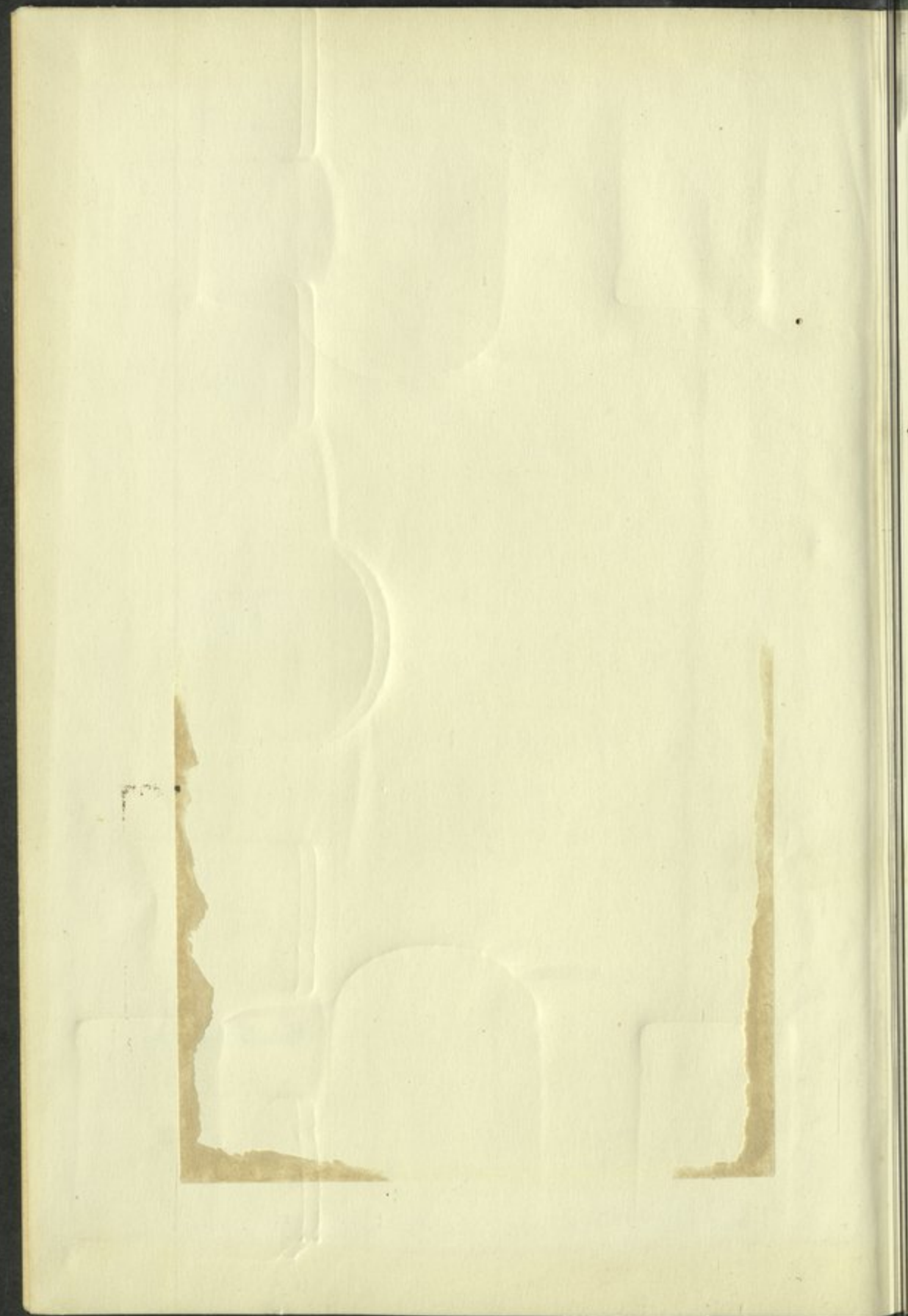
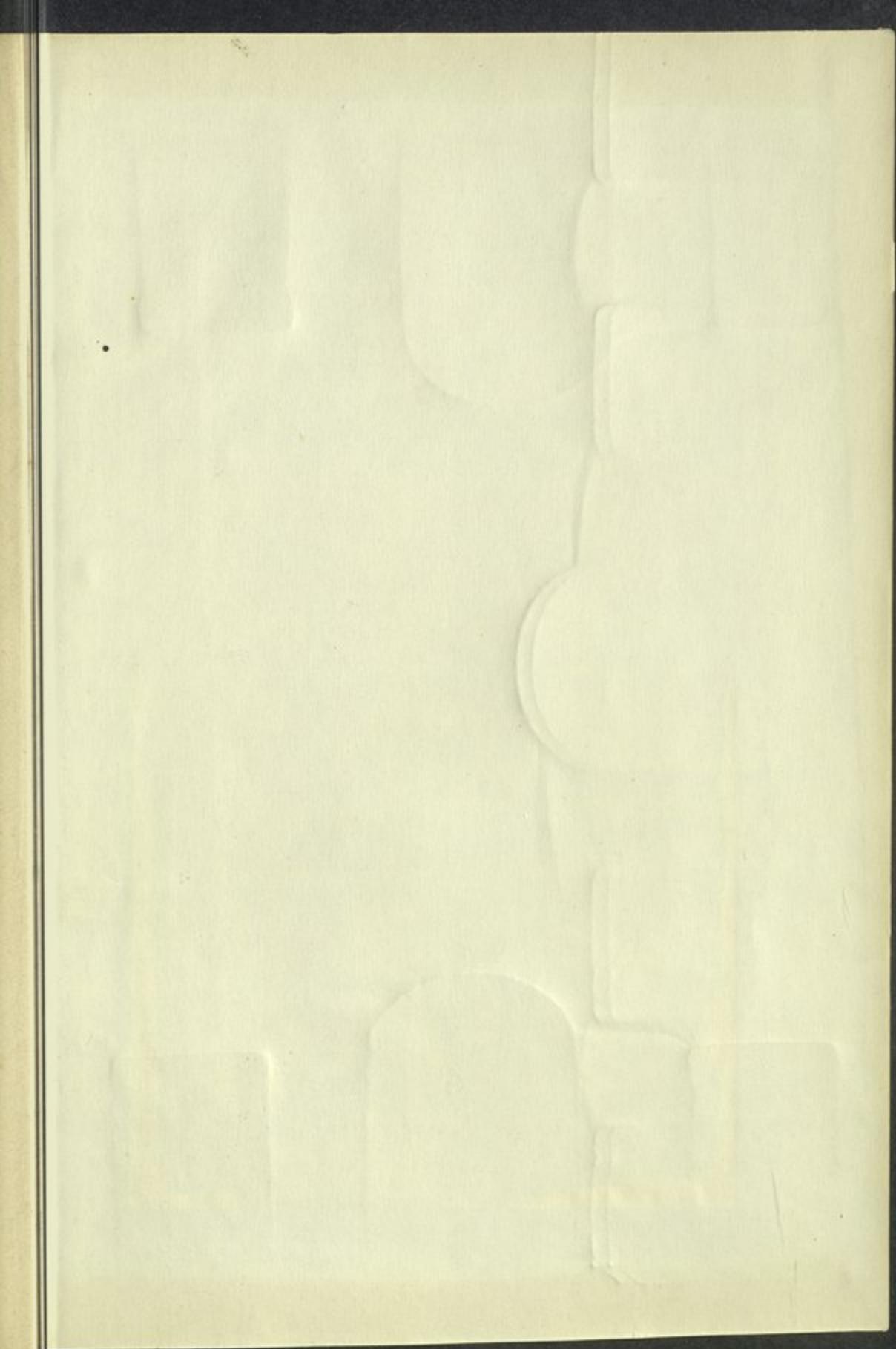
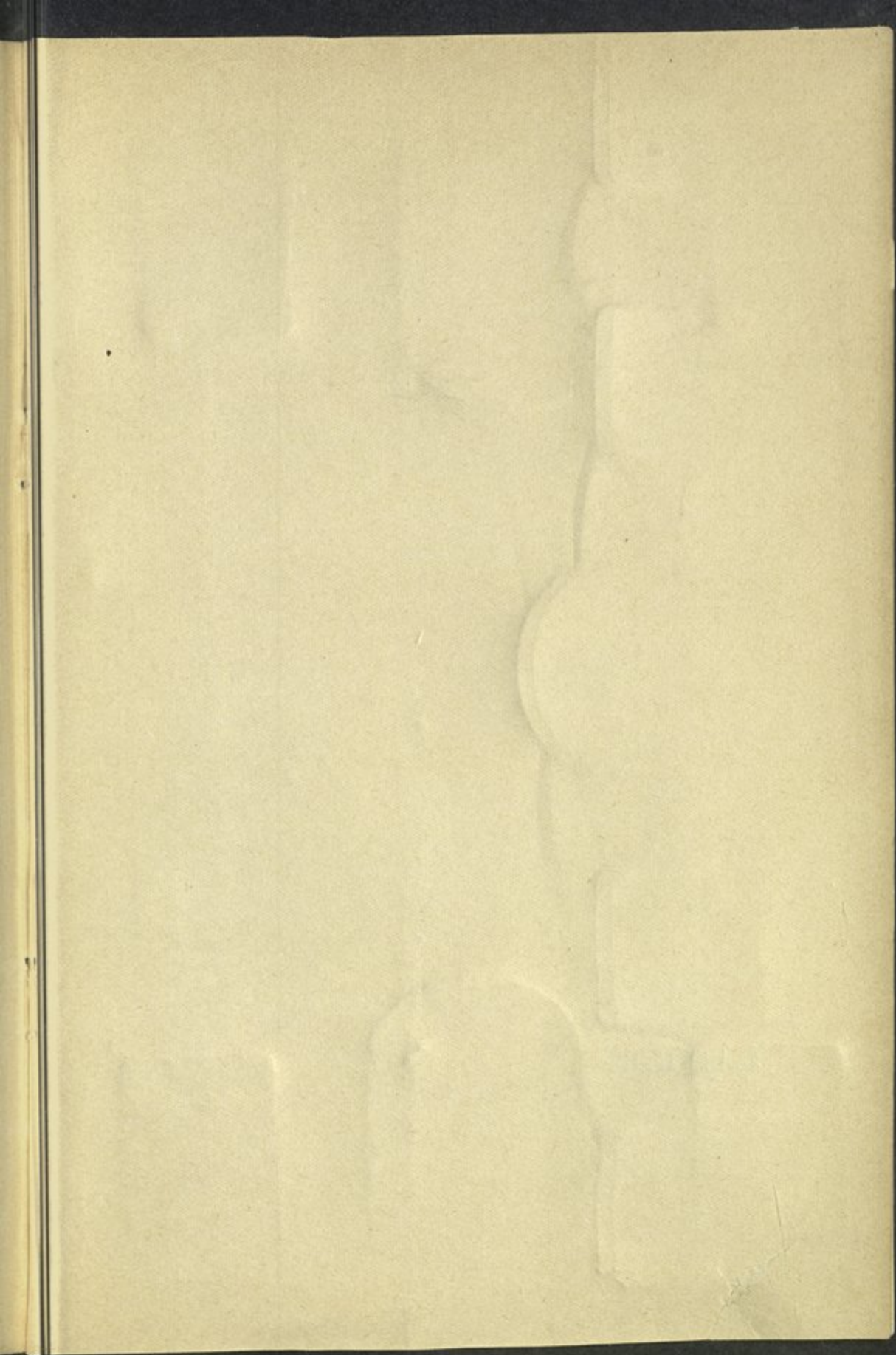






الفلسفة السياسية



320.1

Sh56fA

C.I

محمد مفيد الشوباشي



الفلسفة السياسية

دار النشر
للنشر والطباعة والنسج
بيروت - لبنان

1888
A. 100



RECEIVED

الواقعية والمثالية في الفلسفة والسياسة

الفصل الاول

المبادئ العامة للفلسفة

لنكن واقعيتين ! ..

هذه هي العبارة الرائجة بيننا في هذه الأيام ، وهي تدل على أننا أخذنا نفيق من سباتنا الطويل ، ونطرح أوهامنا المضلّة ، ندرك أهمية الواقع .
ولسكن الاهتمام بالواقع لا يفيد او يحقق الغاية منه الا اذا كان أساسه دراسة الواقع من طريق الملاحظة والمقارنة والاستنباط والتجربة في سبيل فهمه على الوجه الصحيح . فهل عني أحدنا عناية جدية بمثل هذه الدراسة ؟

عبر المذهب الواقعي الذي ظهر في اوروبا منذ قرن عن وعي الشعوب التي اخذت تدرك الغبن الذي حاق بها ، وتحاول استخلاص حقوقها من أيدي مستغليها . وقد توصل هذا المذهب الى تخليص الحقائق من شوائبها ، وإبرازها محررة من أضاليل المضللين ، وتأكيد حقوق الكادحين المغتصبين ، وهدايتهم الى سبيل إحقاقها .
وحين هبّ الشرق من غفلته منذ مستهل القرن الحاضر ، وحاول علاج مشكلاته المعقدة ، والذود عن حقوقه ، والتحرر من قيوده ، أدرك أن تحقيق ذلك لا يكون عن طريق المعرفة المستمدة من كتبه العتيقة ، ومعتقداته البالية ، أو عن طريق بناء القصور في عالم الاحلام . ولسكن عن طريق الفهم الواقعي ، والتماس الحلول من عالم الواقع ...

تزييف الاستعمار للواقعية

ولكن الفلسفة الواقعية لا تنكشف للراغب في الاحاطة بها الا بعد طول الدراسة والامعان ، ومداومة التطبيق . فهي صرح ضخم لم يقم الا بعد ان تهيأت ظروف قيامه ، و بعد ان ساهمت أجيال بعد اجيال من اهل الفكر في وضع اسسه حتى اكتمل بناؤه على الوجه السليم في منتصف القرن الماضي كما قلنا . ولذلك سهل على المستعمر أن يمويه علينا حقيقة هذه الفلسفة ، إذ نحن لا نزال نخطو خطواتنا الأولى في عالم المعرفة الحقة ، وأن يزيف علينا معانيها ومراميها . فأدخل في روعنا أن الواقعية هي « التسليم بالواقع » ؛ في حين أنها على نقيض التسليم والخنوع . فهي دعوة الى الكفاح في سبيل إزهاق الباطل ، وتحطيم الأوضاع الجائرة ، وتغيير الواقع أو العمل على سرعة تغييره ...

استطاع الاستعمار أن يخدع بعض ساستنا ، وبعض أدعياء المعرفة عندنا بأن دعاهم « العقلاء الذين يقدرّون الواقع ، ويسلمون بما لا مناص من التسليم به » ، ومنذ نجاح الاستعمار الماكر في تضليلهم انبروا يوازنون بين قوانا وقوى المستعمرين ، أو بين عجزنا وجبروتهم ، وينتهون من هذه الموازنة الى عدم جدوى التصدي لهم ، والى ضرورة مهادنتهم ... وما العجز في حقيقة الأمر إلا عجزهم . أما الشعوب فغير غافلة عن القوة الكامنة فيها ، وعلى هذا لم تخدع أكاذيب الاستعمار شعبنا السليم الوعي كما خدعت السادة العقلاء الجبناء !! فعاف الاستخذاء ، وأنف أن يلقي سلاح الكفاح ليخلع عليه السادة المستعمرون نعوت الشرف .

ولكن أين موضع المغالطة من تلك الدعوة الاستعمارية الخادعة؟؟ إنها في تمويه معنى الواقع . ولم ينزلق الخدوعون منا وراء تلك المغالطة الا لأننا لم نفهم الواقع على حقيقته .

كيف نفهم الواقع ؟

هناك شواذب ثلاث تطمس معالم الواقع، وتضلّل من ينشدونه ، فيعجزون عن التفرقة بين الظاهر الخادع وبين حقيقة الواقع . وسنقتصر على الإشارة العابرة اليها فيما يلي ، مرجئين بحثها المفصّل الى فصول الكتاب التالية :

١ - يبدو « الواقع » لأول وهلة ثابتاً على حاله لا يتغير ، في حين أنه دائم التطور والتغيير . وقد اعتاد الناس أن يحكموا عليه من ناحية شكله الظاهر لهم عند تمحيصه ، ولذلك يقع حكمهم قاصراً معيباً لأنه يتناول حالة واحدة من حالاته ، وهي الحالة المحدودة بحدود الزمن الذي وقع فيه حكمهم . ولكن الفهم الصحيح للواقع لا يكون الا عن طريق الرجوع إلى تاريخه ، وتمحيص تطوره ، وامتحان ظروفه وملابساته المتطورة بدورها . فاذا تم ذلك برى الحكم من القصور الذي أشرنا اليه . وقد يزداد قولنا هذا وضوحاً للقارىء اذا طبقناه على الاستعمار البريطاني في مصر ، فنحن اذا نظرنا الى ذلك الاستعمار اليوم دون الرجوع الى ماضيه معنا ، ودون امتحانه على ضوء تطوره وظروفه وملابساته ، انخدعنا في ظاهره البادي لنا كما انخدع أدعياء المعرفة الذين أشرنا اليهم ، وظننا كما ظنوا أنه لا قبل لنا بمقاومته ومصارعته . ولكننا اذا طبقنا المذهب الواقعي فامتحنا مراحل تطوّر الاستعمار ، وجدنا أنه يزداد ضعفاً على مر الايام بتأثير مقاومتنا له وأن هذه المقاومة تزداد صلابة على قدر ازدياد ضعفه ، فاذا عملنا على توسيع دائرة بحثنا ، وامتحنا ظروفه وملابساته ، وجدنا ان الحالة الاقتصادية في بلاده ، والحالة الاقتصادية العالمية ، والوعي الجديد الذي أخذ ينتشر بين شعوب دول الاستعمار نفسها ، وهبوب شعوب المستعمرات كافة في وجه القوى الاستعمارية ... وجدنا هذه الظروف والملابسات تفتّ في عضده بمقدار

ما تشد عضدنا .

٢ - يبدو الواقع المنظور مركباً من اشياء متعددة يختلف بعضها عن بعض .
وقد انخدع الناس في تعدد الأشياء فلم يفتنوا الى الرابطة التي تربط كل شيء بغيره ،
وشرعوا يقسمونها الى مراتب وانواع ، فمنها المتجانس ومنها المختلف . واعتادوا ان
يختبروا كلا منها ويحكموا عليه منعزلاً عن غيره . في حين ان كل شيء في الوجود
لا يمكن ان يختبر ويعرف على وجهه الصحيح الا اذا عرفت صلته بغيره ، وتأثير
كل منها في الآخر . واذا طبقنا هذا القول على نهضتنا الحاضرة نجد ان دعاة
الاصلاح عندنا يختلفون في الرأي على اختيار وسائل دعمها . فمنهم من يرى تركيز
الاهتمام في النهوض بالصناعة . ومنهم من يرى تحويل الاهتمام الى ميدان الزراعة .
ويرى غيرهم ان اساس النهضة تعميم التعليم ونشر الثقافة العامة ، او تهذيب
الاخلاق ، او الاهتمام بالصحة العامة ... الى آخر تلك الدعوات الاصلاحية . ولو
فطن هؤلاء الى ارتباط كل ناحية من هذه النواحي الاصلاحية بالآخرى ، ومبلغ
تأثيرها بها وتأثيرها فيها لكونوا رأياً جديداً عنها ، ولتمكنوا من اتباع التكتيك
العملي المناسب في كل حالة ، والقمين بتحقيق الغاية المرجوة .

٣ - اعتاد الناس ان يحكموا على الاشياء حكماً ذاتياً لا موضوعياً ، اي انهم
يتأثرون في حكمهم عليها بذواتهم ، وميولهم المغرضة ، وأهوائهم المنحرفة ، ومصالحهم
الخاصة ، لا بحواسهم وعقولهم وتجاربهم . وبما لا شك فيه ان مثل هذه الاحكام
تنحرف عن جادة الصواب ، وتطلق الاوهام والخرافات من عقولها . ولا شيء يضل
الانسان في حكمه على الاشياء مثل استغراقه في فريته وحسبانه أنه منعزل عن
الاشياء والأحداث التي يصدر فيها حكمه . ولو انه لاحظ تلك الحقيقة الكبرى ،

وهي ارتباطه بما حوله كارتباط كل شيء بغيره ، واعتاد الانتباه اليها عند حكمه على الاشياء ، لفظن الى الحقائق التي كانت غائبة عنه ، ونجا من الأخطاء التي توقعه فيها فرديته . فمن آثار هذا الحكم الفردي نسبة وقوع حوادث التاريخ الى القادة او « الأبطال » الذين يحسب الواهمون أنهم يتصرفون وفق أهوائهم ، ويبتدون بهدي عبقرياتهم . فلو فطن الواهمون الى أن اولئك الزعماء او الأبطال هم من طليعة مجتمعاتهم ، وجزء لا يتجزأ منها ، وأنهم يتأثرون بها على قدر تأثيرهم فيها ، ويعبرون عن اتجاه مجتمعاتهم الرجعي أو التقدمي لأدركوا مبلغ الخطأ الذي يعتبر الحكم الفردي .

من هو المثالي ؟

من الواضح أننا لا نقصد ونحن نبحث في مذاهب الفلسفة ، المعنى الاصطلاحي لكلمة « المثالي » ، فاذا كانت هذه الكلمة تدل خارج نطاق الفلسفة على الرجل المترفع عن المثالب ، المتطلع الى المثل العليا مشغولا بها عن التكالب على ماديات الحياة ، فان معناها الفلسفي ينصرف الى الرجل الذي يعيش في دنيا أوهامه دون الدنيا الواقعية المحيطة به ، الرجل الذي يؤمن بأن الدنيا قائمة داخل ذهنه لا خارجه ، أي أن حقيقتها تنحصر فيما يدور في ذهنه دون أن يكون لها وجود مادي واقعي خارجه .

ان المثالي خيالي يهرب من الواقع (ولو ادعى في بعض الأحيان أنه ليس كذلك) فلا يجابه أية مشكلة تعرض له ، ولسكنه اذا حاول حلها بنفسه يبحث عن ذلك الحل فيما وعاه من نظريات ، وما رسخ في ذهنه من معتقدات . وقد يخال تلك المشكلة وليدة حظه السيئ ، أو معاكسة الاقدار له ، أو لامتحان قدرته على الصبر

والاحتمال . ولا يرى صلتها بظروفها وملابساتها أو ارتباطها بغيرها من المشكلات الخاصة والعامة ، بل يفصلها عن غيرها ، فيشكل عليه أمرها ، ويستعصي عليه فهم غوامضها على الوجه الصحيح ... والواقعي في عرف الناس هو الذي لا يهتم إلا بالمادة ، ولا تشغل باله إلا المنفعة المادية ، أما من الناحية الفلسفية فهو الذي لا يسبح في عالم الوهم ، ولا تصرفه الأهواء المغرضة عن الحقيقة ، ولكنه يؤمن بقيام العالم المادي خارج عقله ، ومستقلا عنه ، ويمتحنه بربط الأشياء كما قلنا بعضها ببعض ، فلا يعزلها عن ملابسها ، ولا يغفل عن تاريخها ، أي عن تطورها وتغيرها ، ويستخلص الحقيقة من وراء اختبار الواقع وتفسيره تفسيراً علمياً على النحو الذي سنشرحه مستقبلاً ... ان الأول يعد ما اختزنه عقله من عقائد وآراء حقائق سابقة على الواقع . اما الثاني فهو الذي يرى ان افكاره متولدة من العالم المادي ، ويتخذ من الواقع محكاً يختبر به آراءه ومعتقداته ليفرق بين صحيحها وزائفها .

ومن ثم نرى ألا علاقة بين الرجل المثالي والمثل الأخلاقية . فقد يكون هذا المثالي عاطلاً منها رغم مثاليته . وقد يعتنقها الرجل المغرق في واقعيته .

وقد اعترض بعض الكتاب على هذه التسمية نظراً لما تحدثه من لبس . واقترح على الباحثين في الفلسفة أن يختاروا كلمة غير المثالية للتعبير عما يقصدونه منها . ولكن مثل هذا الاقتراح متعذر التنفيذ نظراً لان الفلاسفة درجوا في الشرق والغرب منذ زمن على استعمال تلك الكلمة لتدل على المعاني التي شرحناها . فتبوءت بذلك مكانتها ، واستقرت معانيها في أذهان المشتغلين بالفلسفة . والعبرة بذلك في كل بحث ، بمدلول الكلمة المقصود المتعارف عليه في البحوث العلمية ، لا بمدلول الاصطلاح العام .

الفلسفة المثالية

لسنا نعني بقولنا المتقدم ان فلاسفة المثالية يؤمنون اليوم كالعامة بالخرافات ويتيمهون في وادي الاوهام، ولكن الذي نعنيه أن اولئك الفلاسفة يؤيدون من حيث يدرون او لا يدرون الاتجاه الخرافي والخيالي بما يحاولون إثباته من أن العالم المنظور موجود في فكر الانسان بصنع حواسه وتهدج أحاسيسه ، وليس له وجود خارج عن عقل الانسان على النحو الذي نعرفه عنه ... ومن أن كثيراً من خواطرنا مغلوبة معنا . وكذلك غرائزنا التي لا تقبل التغير والتطور . ولسنا نعني كذلك انهم على اختلاف مذاهبهم لا يحفلون الا بالنظريات المجردة ، فكم من فيلسوف مثالي اهتم بدراسة الوجود المادي ، وحاول الوصول الى الحقائق الواقعية . ولكن نزعتهم الفردية، وغفلته عن ربط الاشياء بعضها ببعض ، ثم دراستها على ضوء تطورها وتطور ظروفها وملابساتها ، أضله في تيه مظاهر الوجود المتباينة التي لا تستقر في لحظة من اللحظات على حال ... ان كل توفيق في فهم الواقع على حقيقته ينال من صرح المثالية ، وكل إخفاق يدعم ذلك الصرح القائم على الأوهام .

نشأة المثالية

كان الانسان في فجر التاريخ مغرقاً في مثاليته وهو محوط بغيابة كشيعة من ظلام الجهل . كان يرى البرق ، ويسمع الرعد إبان همجيته الاولى ، فترتجف فرائضه رعباً من تلك الظواهر الطبيعية التي حسب انها من فعل قوى روحية لا قبل له بها . ومن ثم ظهر السكينة الذين استهدفوا السكسب او النفوذ والسلطان عن طريق إيهام الجموع الخائفة الحائرة بأنهم قادرون على استرضاء تلك الارواح الخفية المتحكمة في مصائر الناس ، بما يقيمونه من طقوس ساذجة ، وحفلات رقص همجية ، وتقديم

القربان لمردة العالم الخفي استجلاباً لعطفهم ورقفهم ، ودفعاً لشهرهم . ولم يعرفوا من وسيلة غير هذه للنجاة مما يهددهم في رزقهم وفي حياتهم وحياة ذويهم من جفاف وقحط وزوابع وأعاصير وأمراض وموت وغير ذلك مما تعرضوا له من مكاره في ظروفهم الصعبة الاولى . وعذر هؤلاء الجذود الأولين واضح في التجائهم الى تلك المثالية الاولى الساذجة ، فقد كانت تنقصهم الخبرة والمعرفة الحققة لفهم الواقع على حقيقته .

وقد أخذت دياجير تلك المثالية تتبدد شيئاً فشيئاً على مر الدهور ، وازدهار العلوم وتقدم المعرفة . فكلما كشف العلم عن سر من اسرار الطبيعة ، ووقف على مصدره وألم بقانونه تبدد الوهم الذي كان يكتنف ذلك السر ، وانكشفت الاسطورة التي حاكها جهل الأقدمين حوله . وهكذا أخذت الواقعية تغزو المثالية على قدر تقدم العلوم ووضوح الحقائق ، حتى تهيأت الظروف لاشراق النهضة العلمية الكبرى منذ مستهل القرن الماضي ، فخطت الواقعية خطوات واسعة الى الامام ، واخذ مدلولها يتطور حتى فطن أصحاب الفهم الصحيح والوعي السليم الى سر تطور الاشياء والجماعات ، فاهتدوا الى طريقة فهم الواقع على حقيقته .

واذا كانت المثالية لا تزال تحتفظ بجانب من سلطانها ، وتسيطر حتى على عقول بعض من اهل المعرفة ، فيرجع ذلك الى عجز العلم حتى اليوم عن كشف سر كثير من الظواهر الطبيعية . ويوم يدرك الناس ان العلم يسير قدماً على الدوام ، وأنه في سبيله الى النصر الحاسم ، تنهار المثالية من أساسها .

ونستطيع ان نجمل ما تقدم فنقول ان المثالية تقوم على الشطحات الفكرية ، وعلى المعرفة الناقصة . أما الواقعية فتقوم على العلم ، وتتطور معه ، ولا تسلم الا بما يمكن إثباته علمياً .

مبادئ الواقعية

منذ انقسم الناس في اوربا الى واقعيين يعنون بالواقع ، ويلتمسون تحسينه كما قلنا من وجهة دراسته على اساس علمي منظم ، وتكوين رأي فيه ، والعمل على تطبيق ذلك الرأي ... وبين مثاليين يهربون من العالم المحسوس الى عالم الخيال ، ويفصلون بين ماديات الحياة ومعنوياتها ، فيترفعون عن الأولى احتقاراً لثانيها ، ولا يرون قيمة للحياة الا في سبحات الثانية ، أخذ هذا الانقسام يتعدى نطاق الاتجاه الفكري العام ويؤثر في الفلسفة، ثم تجاوزها الى ميادين الآداب والفنون . وسيرسم القارئ في ثنايا هذا الكتاب خطوات الفلسفة في تحولها الى الواقعية العلمية ، ولذا نكتفي هنا على سبيل الاستطراد بالإشارة العابرة الى تأثر الأدب والفن منذ فجر القرن الماضي بالاتجاه الواقعي .

نزل الأدب بعد الفلسفة الى عالم الواقع ، فرأينا الى جانب الشعراء والكتاب الرجعيين الذين ما زالوا يسبحون وراء النجوم ، ادباء آخريين لم يغمضوا اعينهم عما حولهم ليهيئوا في تيه العالم المجهول... ادباء ينقبون عن الحقائق الواقعية، ويتهدجون لما يقع حولهم من أحداث جسام ، ويستثيرهم توثب الشعوب المنهكة المغبونة الى احقاق حقها والفوز بالحياة الكريمة ... ادباء لم تستأثر الأنانية بمشاعرهم فتصرفهم عن خوض معركة الانسانية الكبرى في سبيل اقرار العدالة على أسلم اساس . اولئك الكتاب والشعراء لم يخذعوا في خرافة البطولة الفردية الخارقة ، فكفوا عن تمجيد الأفراد الذين ينسب المثاليون اليهم تغيير مجرى التاريخ، وتحقيق المعجزات، وطفقوا يظهرن للشعوب ان هؤلاء الأفراد لم يحققوا الخوارق الا بتسخير الجموع الحاشدة . أولئك الكتاب والشعراء آلوا على انفسهم ان يمزقوا قناع الفردية الخزنية ويفضحوها ،

وان يبصروا الشعوب بقوة جموعها حتى تدرك انها مصدر السلطات فعلا ، وانها
اجدر بأن تملك زمامها، فلا تسمح للأفراد المغامرين من ذوي المال والنفوذ بتسخيرها
لتحقيق أطماعهم الفردية . اولئك الكتّاب والشعراء آلوا على أنفسهم
أن يعيشوا لجوع الناس ، ولا يتوخوا التنفيس عنها باستثارة السخط تارة ، أو التسليّة
والتهدئة بصوغ القصائد والقصص العاطفية الساذجة تارة أخرى . ولكنهم توخوا
نشر الوعي السليم القمين بتحقيق غايات الشعوب .

وغزت الواقعية ميدان الفن كذلك ، فرأينا بعض لوحات الفن تنصرف في
اوروبا منذ مستهل العصر الحديث عن المواضيع الدينية ، وعن رسم القديسين
والقديسات الى ميدان الحياة ، ثم تنصرف مرة أخرى عن رسم الامراء والأميرات ،
والشرفاء والشرىفات والمواقع الحربية ، وأبطال الحروب والمناظر الطبيعية الجامدة ،
الى تصوير الجموع العانية المجاهدة في سبيل دفع الحيف عنها ، المتوثبة الى رفع
مستوى معيشتها .

وحذت بعض الروائع الموسيقية والغنائية هذا الخذو ، فأدارت ظهرها لمذهب
الفن للفن ، وأخذت تعبر عن خوالج الشعوب المفيقة من غفلتها ، وتصور كفاحها
وهي تحاول زحزحة عبء الفن الجاثم على صدرها ، وتحدوها الى الغايات التي
تشرئب اليها . وقد تجرد فن المعمار كذلك من التهاويل والتزاويق الجوفاء ، وعني
بتحقيق أغراض الحياة ...

هذا هو الفيصل على وجه الاجمال بين الاتجاهين الواقعي والمثالي .

الواقعية مصدر المثل المعنوية

يؤمن المثاليون كما قلنا بالوحي والالهام ، وبالوعي الباطن الذي يخزن كما يقولون

المعتقدات والآراء الموهوبة المغروسة فيه ، المفطورة معه ، ولكن الواقعيين يرون الآراء والمعتقدات كافة مستمدة من عالم الواقع ، فليس في باطن الانسان نبع تنفجر منه الخطوط والمثل المعنوية من تلقائها ... يؤمن الأولون بأن الفكر الانساني الملهم هو الذي يعمل بقوة الالهام على تحسين الواقع المادي وتطويره ، أما الواقعيون فيرون ان الانسان يكتسب معارفه وآراءه من الواقع المادي المحيط به ، وانه يعمل على تحسين ذلك الواقع بسد حاجاته المتزايدة ، فيزيده العمل المنتج خبرة ومعرفة ويصبح أقدر على رفع مستوى الواقع ، فيتم التقدم بالتفاعل بين تحسين الواقع ، وازدياد خبرة الناس ، وتعدد معارفهم وارتفاع مستواها .

واذا عملنا الفكر فيما تقدم ، ونظرنا الى تطور المجتمعات على ضوئه ، وجدنا لأول وهلة ان التقدم المادي والتقدم المعنوي يسيران على الدوام جنباً الى جنب . فحينما تنهيا الظروف لسرعة تطور الاول ، يلحق به الثاني على الأثر ، متأثراً به ، ومؤثراً فيه ...

تظل طبقة التجار والصناع تنمو في ظل الاقطاع ، ويظل مستوى معيشتها يرتفع . وتنمو معارفها ، وتسمو معنوياتها حتى تحس ان وجود ذلك النظام يحول دون استمرار تقدمها ، فتعمل على الخلاص منه . ويهب كتابها من حكماء وشعراء يؤيدونها ، ويؤلبون الجماهير على حكامهم حتى تتم لها الغلبة ، فتجلى الأمراء والأشراف عن دست الحكم وتحل محلهم فيه . ثم يأخذ التقدم المادي والفكري في غزو الشعوب التي تدرك أنها مصدر السلطات ، فتجاهد في سبيل احقاق حقها بدورها ، وتغليب سلطانها . ونحن نستطيع ان نلمح العلاقة بين تطور المثل والمعتقدات ، وبين التطور الطبقي ، فان اسكل من طبقة الاشراف وطبقة رجال المال والأعمال ، وطبقة

الأغلبية الشعبية معتقداتٍ وقيماً خاصة بها، وحين تكون صاحبة السلطان تحاول ان توطد قيمها ومعتقداتها، فتستنهض أهل الادب والفن الذين يساعد انتاجهم على تثبيت تلك المعنويات ودعمها. وتستعين كذلك برجال الدين، ورجال التعليم، ومختلف المؤسسات الثقافية للوصول الى تلك الغاية... ولما كان تطور المجتمعات، وتعاقب الطبقات يقوم على أساس التطور الاقتصادي، كان هذا الأخير كما قلنا مصدر نجدد المثل الانسانية المتعاقبة.

على اننا اذا نظرنا الى القيم والمثل الأخلاقية من الناحية العامة وجدنا انها مادية الاهداف... فالأمانة والاستقامة والعفة والصدق والقناعة وغيرها من الشرائع تستهدف صيانة أموال الناس وأشخاصهم من عبث العابثين. فلا معنى للأمانة إلا ان يترفع الانسان عن اغتيال حقوق الناس، ولا معنى للاستقامة الا الكف عن الاضرار بهم، وللعفة إلا صيانة الاعراض، كذلك الصدق والقناعة والدمائة وغيرها من القيم السامية، فهي لم تكتسب قيمتها الا ليستتب النظام الذي لا تصان مصالح الناس، ويتوفر أمنهم، وتزدهر حالتهم الاقتصادية الا في ظله. هكذا يجب ان تفهم معنويات الحياة، والا صارت لغواً لا معنى له. فالناس لا يتمسكون بها، ويكبرون شأنها، ويحترمون المتحليين بها، ويحتقرون العاطلين منها الا لأنها تصون مصالحهم، وتحقق منافعهم، وتعينهم على تحسين حالهم. وبذلك اكتسبت أهميتها وقديسيتها. ومن ثم كان الماديون احرص عليها، لأنهم يقدرونها التقدير الصحيح. في حين انها تفقد كل قيمة حقيقية على يد المثاليين الذين يعزلونها عن الواقع ازدراء له، ويحاولون ان يسبعوا غايتها قيمة وهمية قائمة بذاتها.

الضد يظهر الضد

من المعروف ان الضد لا يفهم إلا بضده ، او لا يدرك إلا بضده . فالنعيم يدرك بالشقاء ، والراحة بالتعب ، والنهار بالليل وهكذا ... وعلى اساس هذه البديهية نستطيع ان نفهم الحياة التي لا تقوم الا على النقائص المتضاربة .

وعلى هذا نجد ان القبائل البدائية لا تدرك صفات الصدق والصراحة والايثار والنجدة وسائر الشائيل لأنها لا تعرف أضدادها من الرذائل كالكذب والرياء والأنانية والخذلان . فشائيل اولئك البدائيين اصيلة لا يشعر أصحابها بوجودها لأنهم كما قلنا لا يعرفون أضدادها .

وقد لاحظ كثيرون من مؤرخي حضارة العالم ان مختلف القبائل التي تعيش على القطرة تتصف بصفات متجانسة ، على تباعد أصقاعها ، وانقطاع الصلة بينها . فمن يقطن أمريكا منها ، او من يقطن إفريقيا أو آسيا سواسية في التحلي بالشائيل التي تحدثنا عنها وهم يجهلون تحليلهم بها . وأنا لا اعرف مؤرخاً من اولئك المؤرخين لم تستلفت نظره تلك الظاهرة ، ولم يعلق عليها بقوله .. « ان تلك القبائل البدائية أرقى حضارة من الدول الكبرى في العصر الحديث . »

ولو أرجع اولئك المؤرخون الأمور الى اصولها لعرفوا ان تجانس الشائيل بين القبائل البدائية يرجع الى تشابه ظروفها المادية ، ونظامها الاقتصادي . فأفرادها لا يتنازعون على البقاء فيما بينهم ، اي فيما بين افراد القبيلة الواحدة ، ولا يتسكالبون على التملك والسيطرة . ولكنهم يلجأون الى التعاون والتآزر لضمان الرزق ودفع الارزاء والأخطار . ومن ثم ينتج النظام التعاوني أثره . ويوم يرتفع مستوى القبيلة الاقتصادي ، ويتنافس أفرادها على التملك والغنى والجاه يختل ميزان العدالة

الاجتماعية ، وتتطور ميزاتهم الخلقية ومثلهم الفكرية ، فيتقلص ما استمسكوا به منها في ظروفهم الصعبة السابقة ليفسح في مجال الظهور لغيره من الصفات المتولدة من الظروف الجديدة . وفي هذا تأييد لما سبق ان ذكرناه من ان تغير المعنويات يتبع تغير الواقع المادي متأثراً به ومؤثراً فيه... وليس معنى هذا اننا ندعو الى الرجوع القهقري للنظام القبلي ، فالواقعية تستهدف التقدم وتنير طريقه ، وتناسب الرجعية العدا . ونحن لم نقصد مما ذكرناه الا إبراز التناجس المعنوية المتولدة من حسن توزيع العدالة الاجتماعية .

عناصر الحضارة

لم يصل الى علمنا تعريف للحضارة يختلف اختلافاً جوهرياً عن التعريف التالي : « الحضارة تقدم اقتصادي وثقافي يقع في ظل نظام اجتماعي مستتب » . ومعنى هذا ان الحضارة تتمثل في التقدمين الاقتصادي والثقافي ، ويحتاج ازدهارها الى نظام اجتماعي مستتب .

وقد عمد المثاليون كمعادتهم الى فصل هذه العناصر الثلاثة التي تقوم عليها الحضارة بعضها عن بعض ، غافلين عن الصلة الوثيقة بين كل منها . وراح بعضهم يدعي ان استتباب النظام السياسي للمجتمع هو قوام الازدهار المادي والمعنوي . وعارضه آخرون فزعموا ان التقدم الثقافي هو وحده اساس الحضارة . وقام فريق ثالث بتسفيه هذين الرأيين ناسباً التقدم الحضاري الى مبلغ ما يصادفه جهابذة الاقتصاد من توفيق في وضع نظام اقتصادي محبوبك الاطراف .

ولو دقق الاولون في استعراض التاريخ لفطنوا الى ان النظام السياسي في أي مجتمع وليد تطوره الاقتصادي . فالدول الاوربية المتحضرة مثلاً لم تنتقل على مر الزمن

من النظام القبلي الى نظام الرق ثم الى نظام الاقطاع ثم الى النظام الرأسمالي الاليلائم نظامها السياسي المستجد في كل مرحلة من هذه المراحل اوضاعها الاقتصادية الجديدة. فالوقوف على سر الزراعة اسفر عن انقسام افراد القبائل الى سادة يملكون الارض، وعبيد يزرعونها... ولكن ملاك الأراضي تسببوا في القضاء على نظام الرق هذا حين توسعوا في تملك الارض، وقوي نفوذهم حتى استقلوا بضياعهم، ونصبوا انفسهم امراء عليها، وخلعوا على اقاربهم وانصارهم من الفرسان نعوت الشرف، وهيمنوا على الطبقة العاملة بأجمعها وسخروها لخدمتهم، وهكذا انتهى عهد الرق الى عهد السخرة الاقطاعية... ثم احتاج اولئك الأمراء والأشراف الى احاطة انفسهم بمظاهر الأبهة التي تلائم ألقابهم الجديدة، فازدهرت الصناعة، ونشطت التجارة لسد مطالبهم المتجددة. فأدى ذلك الى ظهور طبقة جديدة وسطى من أغنياء التجار ومحتكري الصناعات واهل الفكر. ثم اخذت شكيمة هذه الطبقة تقوى، ونفوذها يعظم بازدياد غناها حتى استطاعت ان تجلي سادتها عن كراسي الحكم وتحل محلهم... وتؤسس النظام الرأسمالي.

العنصر الثقافي

اما الذين يرون الثقافة عماد الحضارات، ويضيقون ذرعا بالتقدم المادي الحديث، ويحملونه ظلماً جريرة هذا التقاتل الدائر بين الدول الرأسمالية في سبيل الكسب المادي، وما انتهى اليه هذا التقاتل من تقويض للقيم الأخلاقية العالية، والصفات الانسانية السامية، فهم لا يزالون يتلفتون الى الوراء، ويحنون الى القديم وينكرون كل حديث، حتى لكأن الثقافة لا تزدهر في نظرهم الا بين ربوع فقر الشعوب وعوزها، أو بين الأدغال في عصور الهمجية.

يرى هؤلاء أن مختلف ألوان الثقافة ، لاسيما الآداب والفنون الجميلة ، هي التي جمّلت طباع الناس ، وهذبت أذواقهم ، وغرست في النفوس حب الحرية والخير والعطف وغير ذلك من السمائل الكريمة ، وحملتهم على تقديس الجمال في مختلف صوره ... ولم تتقدم الانسانية خطوة الى الأمام ، في نظر أولئك المثاليين ، الا بحافز الآيات الأدبية والفنية التي غرست وحدها هذه الصفات والقيم المثلى .

ولكننا أوضحنا فيما سبق أن القيم المعنوية وثيقة الصلة بالأوضاع الاقتصادية ، فاذا كانت السرقة وخيانة الأمانة والنصب والاعتداء جرائم تقع على الاموال والأجسام ، أي على ماديّات الحياة ، فإن الصدق والأمانة والنزاهة والمحبة وغيرها من الصفات الكريمة تستهدف كما قلنا منع وقوع تلك الجرائم ، أي تستهدف حماية الحقوق المادية من عبث العابثين . ولا يمكن أن يكون لمثل هذه الصفات معنى اذا عزلناها كما قلنا أيضا عن اغراضها ، وجردناها من نفعها واذا كانت الآداب والفنون تعبر عن الخوارج الانسانية ، وتصور تلك الصفات والسمائل واضدادها تصويراً فنياً ، فلا بد أن نسلم أنها تنبت بذورها من تربة الماديّات ، وأن بعضها يحاول تثبيت الأوضاع المادية القائمة ، وبعضها الآخر يحاول تقويض اركانها .

العنصر الماديّ البحث

اما الذين لا يؤمنون الا بالتقدم الاقتصادي فيزعمون أن الآداب والفنون والفلسفات وليدة الأساطير والخرافات القديمة ، وأنها لا تزال تستوحي الخيال المريض الشاطح وتجري وراء الأوهام .. وأن المشتغلين بها قوم اخفقوا في ميدان العمل فلفظتهم الحياة ، وظلوا يفتقدون صفاتهم الحضارية شيئاً فشيئاً حتى حلت أعراض الحمجية الأولى محلها . فهم بقايا العصر القديم يعيشون اليوم بين ظهرانينا ،

ويشون بيننا العقائد القديمة فيعوقون التقدم ...

واننا لعلى يقين من ان القارىء يستطيع الآن أن يتبين مبلغ خطأ أولئك القوم الذين ينظرون الى كل ناحية في الحياة من زاوية واحدة ، فتبدو لهم معزولة عن النواحي الأخرى ، منقطعة الصلة بمصدرها ومراحل تطورها ، وظروفها وملابساتها . فاذا كانت الفلسفة تشرح الوجود على وجه أعم من العلم ، فان الآداب والفنون تشرح الحياة على نحو أعم من الفلسفة ، وبأسلوب أفطن من أسلوبها . واذا كانت الفلسفة والآداب والفنون قد استفادت من الازدهار الاقتصادي وتقدم العلم ، وارتفع مستوى المعيشة ، فانها عادت فأفادت كما استفادت ، وحفرت النهضات الاقتصادية الى الامام . واذا كانت الثقافة المثالية لا تزال تحتفظ بقدر من سلطانتها ، فان تقدم العلوم كفيل بتصحيح الاوضاع ، وتمكين الثقافة الواقعية من بسط سيادتها آخر الأمر .

الطبيعة مدرستنا الأولى

اذا تتبعنا على عجل سير الانسانية عبر التاريخ ، وجدنا انها لم تنتقل من مرحلة حضارية الى مرحلة ارقى منها حضارة الا بقدر افادتها من خيرات الطبيعة . . . ان الانسان مدين بمعارفه منذ نشأته الاولى للطبيعة المحيطة به ، فقد تعلم العدد من تعدد مظاهرها ، وتعلم المقارنة والقياس والاستنباط من تنوعها ، وتعلم علومه من قوانينها . وفتقت حاجاته الماسة ذهنه ، وهدته الى صنع ادوات تسهل له تحقيق ما يحتاج اليه . وكان يتأثر بما يصنع ، ويكتسب من ذلك الخبرة والمهارة والفطنة كما اسلفنا . وهكذا اطرده نمو فهمه وعقله وذوقه بنمو انتاجه ، واحتاج هذا الاطراد الى العلم الذي اخذ يزدهر ليعين الانتاج على سرعة النمو . وسارت الآداب والفنون والفلسفة في ركاب

الحضارة تزدهر بازدهارها ثم تعينها على سرعة التقدم .

ويستطيع متتبع اطوار التاريخ المختلفة ان يرى العلاقة الوثيقة بين درجة الرقي المادي لأي شعب من الشعوب ، ودرجة رقي أدبه وفلسفته وفنه . بل يستطيع ان يفرق بين لون ثقافة الشعوب التي لم تتجاوز الطور الزراعي ، مثل شعبنا ، وبين ثقافة الشعوب التي ازدهر انتاجها طفرة واحدة بمساعدة الخبراء الاجانب دون ان تفيد هي التجربة العلمية الكاملة عن طريق التطور الطبيعي ، مثل اليابان والولايات المتحدة ، ثم بين ثقافة الشعوب التي حققت الازدهار الصناعي عن طريق التطور الطبيعي التدريجي مثل كثير من دول اوروبا ... وهكذا ارتبط الفكر بالانتاج ، وارتبطت المعنويات بالماديات منذ نشأة الانسان الاولى .

بيئة الثقافة

لا ينشأ شيء في الوجود من العدم ، بل يتولد كل شيء من غيره ، وينمو ويشد على حساب غيره ، ثم يضعف وينهار مفسحاً في مجال النمو لغيره ، ثم يصبح غذاء لغيره فيعينه على النمو والاشتداد بدوره . ولا يسري هذا الحكم على الماديات وحدها ، ولكنه يتجاوزها الى المعنويات .

واذا طبقنا هذا الحكم على النهضة الادبية والفنية نجد انها لا تظهر في الوجود قائمة بذاتها ، معتمدة على نفسها ، ولكن لا بد لها من غذاء لتعيش . اي لا بد لانتاجها من مشترين ومعجبين ، او لا بد لها ، بعبارة اوضح ، من مستهلكين . وطبقة المستهلكين التي يلجأ اليها اهل الفن والأدب ، ويكتبون لها هي التي تميزهم أكثر من غيرها . ولذلك لجأوا في عهد الاقطاع الى الامراء والأشراف ينتجون لهم ادب الزخرف والبهرج الذي يلائم ذوق أولئك السادة . فلما زال عهد الاقطاع ، توجه اهل الفكر

والفن الى الطبقة الجديدة ذات السلطان والمال . واخذوا يعبرون ، وجلهم خرجوا من صلبها ، عن ميولها وهواياتها وقيمتها الجديدة المؤسسة على العصامية ، او تنازع البقاء لافناء الأضعف وابقاء الاقوى . ولكن ما كاد التعليم ينتشر بين الطبقة الدنيا في بعض شعوب اوروبا ، ويرتفع مستوى معيشتها ، ويسمو ذوقها حتى اخذ الانسانيون من الادباء والفنانين يحولون دفعة انتاجهم اليها بعد ان شعروا بمتاعبها وتشوقها الى تحسين حالها . وكما ازداد عدد المستهلكين من هذه الطبقة ، ازداد الانتاج الفني تحولا اليها ، فازداد صدقاً وقوة وأصاله .

واذا عدنا الى نهضتنا الحديثة وجدنا ظواهرها لا تختلف عما قدمنا . فقد كان الانتاج والاستهلاك الادبي محصوراً بين طبقة السادة ابان النهضة . فلما ازدادت ثروتنا الاهلية على أثر تحقيق المشروعات الاقتصادية المختلفة ، ثم بسبب نشوب الحروب الاستعمارية ، تكونت طبقة الموظفين والمحامين والاطباء والمهندسين والتجار والمعلمين وغيرهم من ذوي اليسر والثقافة ، ومن صاب هذه الطبقة ظهر أعلام النهضة الادبية والفنية الحديثة ، هذه النهضة التي لم يكن يقدر لها وجود قط لولا الطبقة التي تكفل الرواج لانتاجها .

ويتضح مما تقدم ان اسمى الوان المعنويات ، وهي الآداب والفنون لا تؤدي رسالتها إلا على قوام مادي ، وإن كانت تعود بدورها فتؤثر في العالم المادي وترفع مستواه .

الفصل الثاني

النظرية والتطبيق

الفكرة والعمل

يعمل الناس ليحققوا حاجاتهم ورغباتهم ، وليدروا المخاطر والمكاره عن انفسهم . وكل عمل انشائي تسبقه الفكرة وتصميم الخطة لتنفيذه . وما الفكرة وخطة تنفيذها الا النظرية ، وما العمل على تنفيذها الا التطبيق . والفكرة هي العنصر المعنوي من المسمى ، والعمل هو عنصره المادي .

واذا طبقنا القاعدة الاساسية للمذهب الواقعي ، وهي ان المعنويات تتولد من الماديات ... اذا طبقنا هذه القاعدة على « الفكرة والعمل » ، قلنا بأن الفكرة تتولد من العمل ، اي أن العمل يسبق الفكرة . فهل هذا القول صحيح ؟

من الواضح أنه غير صحيح ، ولا يقول به الا الذي يحاول ان يطبق النظريات على الواقع تطبيقاً آلياً لا يستند الى فهم وتمحيص . والصحيح اننا لا نعرف على وجه التحديد كيف نبتت الفكرة الاولى في الوجود ، وكيف كان كنهها . ولكن الواضح ان كل فكرة تنبت جذورها الاولى من الواقع المادي المحيط بالانسان . فاذا سعى الى تحقيقها ، تحولت الفكرة اثناء التطبيق متأثرة بالخبرة العملية ، وتولدت افكار جديدة نابعة من العمل . وحين تتصل الفكرة بالعمل يتكون منهما كلٌّ لا ينفصم ؛ وليست علوم الانسان ومعارفه وأفكاره الا ثمار تجاربه

العملية المتزايدة على مر الدهور .

ولهذا البحث اهمية كبرى في الحياة العملية . فكم من اناس يضيقون بالتفكير والتدبير ، ويكفرون بالنظريات العلمية ، ويزعمون انهم اهل اعمال لا اقوال . فالافكار والاقوال عندهم مضيعة للوقت . والأعمال هي وحدها الكفيلة بتفتيق الذهن ، وتبصير الناس بالحقائق ، وتسديد الخطأ وسد النقص .

ومن الواضح خطأ هذا الرأي . فهو ينكر الافادة من الافكار المكتسبة من التجارب السابقة . . . ان لكل مسعى طرقاً متعددة ، ومما لا شك فيه ان اختلاف هذه الطرق يضل الساعي ولا ينتهي به الى هدف . ولا شك كذلك ان هناك طريقاً من اقصر الطرق الى الغاية وأيسرها . والانسان يستطيع بالاختبار والمقارنة والاستنتاج ، مستعيناً بتجارب غيره العملية ، ان يهتدي الى الطرق السوية . فاذا بلغ علمه بالواقع اتجه ، اهتدى الى الطريق التي هي اقصر الطرق كما قلنا وايسرها . اما اذا اطرح هذا ، وقنع بالعلم والخبرة المستمدين من عمله ، اداه كما يؤديه الهمجي الاول المحروم من تجارب اجيال واجيال من الانسانية العاملة . واما اذا اكتفى من العلم بقدر يسير ، تخبط في عمله ، واضاع فيه من الوقت والمال ما كان يستطيع توفيرهما لو عني قبل الاقدام على العمل باستكمال دراسته النظرية ، مدركاً ان كلا منهما يكمل الآخر ويطوره .

على انه يجب التفرقة بين الاستعانة برأي الجربين ، والاستئناس بخبرتهم ، ودراسة نظرياتهم الواقعية للتمكن من فهم الامور على حقيقتها ، ووضع خطط العمل على هذا الاساس ، وبين الاستعانة بالمعارف القديمة التي نسخها الحاضر ، والنظريات الفكرية المجردة لحل مشكلات الواقع دون ما اهتمام . كما قلنا بتمحيص تلك المشكلات ، وفهمها على وجهها الواقعي الصحيح .

إن لكل انسان وجهة نظر في الحياة ، أو له نظرية يحاول ان يفهم مشكلات حياته على ضوءها . والأفكار التي يطبقها في حياته اليومية يستمدّها على الأغلب من تلك النظريات . وعلى قدر سلامة نظريته وسلامة تطبيقها يكون توفيقه في عمله . وإذا كان الخطأ يسكاد يعتور فلسفات الجماهير من كل جانب لسطحية نظرتهن الى الحياة ، فإن خبرة الانسانية ومعرفتها الصحيحة كادت تتركز اليوم ، بعد خبرة دهور ودهور ، في المذهب الواقعي الذي وفق كما قلنا الى إتاحة منهج لفهم حقائق الوجود المتطورة ... وكل من يهمل دراسة هذا المذهب في عصرنا الحاضر ، ولا يستعين به على فهم الحياة ، مسترشداً بمنهجه العلمي السديد ، يقع دون مرء في شباك اخطاء تنحرف به عن جادة الصواب .

النظريات المجردة

على ان النظرية لم تتصل دائماً بالتطبيق ، ولم يتصل الفكر دائماً بالواقع . فقد كان الناس يلجأون ، حسباً ذكرنا ، في تفسير الواقع الذي يحفلون بمعنياته الى ضلالات الأوهام . ولم توفق الفلسفة أبان ظهورها الى كشف تلك المعميات لأن العلوم التي استطاعت ان تكشف الستر في العصر الحديث عن كنه الكثير من ظواهر الطبيعة المتطورة والوقوف على نواحيها وتطورها ، كانت عاجزة يومذاك ، وهي في طورها البدائي ، عن أداء تلك المهمة . لذلك اضطر الفلاسفة القدماء الى تفسير أصل الوجود وظواهر الطبيعة حدساً وتخميناً ، ونسبة الاحداث التي تقع حولهم الى قوى غير منظورة ، خيرة وشريرة ، فجنى الفكر عن الحقائق المادية ، وتعددت النظريات التفسيرية المجردة التي لا تمت الى حقيقة الواقع بصلة ، وعظم الحصول الذهني الضخم القائم على الوهم حتى فتن به أصحابه وطلابه ، فأهملوا الواقع بل

ازدروه . وهكذا بدأ انعزال النظرية عن التطبيق ، و بقي ذلك الانعزال موطد الأركان في عصور الجهل حتى ظهرت الفلسفة المادية في اوروبا إبان العصر الحديث، ثم تطورت الى الفلسفة الواقعية . وما معسكر الفلسفة الميتافيزيقية ، او غير الواقعية التي لا تزال تنسب اليوم بالحياة ، وهي في نزعها الاخير ، الا امتداداً لتلك الفلسفة البدائية العتيقة .

الفكر اليوناني القديم

واذا تناولنا تاريخ الفكر بشيء من التفصيل وجدنا ان الظروف الاجتماعية والاقتصادية في اليونان القديمة، مهد الحضارة الفكرية والفنية في اوروبا ، ساعدت على التفرقة بين الفكر والواقع . فنذا انقسم الناس هناك الى فريقين ، فريق أتيحت له منادح من وقت الفراغ للتفكير ، وفريق استغرق العمل البدني طوال وقته ، ظهرت أرستقراطية الفكر الى جانب أرستقراطية المحتد، واستعلى أهل الفكر، وازدروا اهل العمل والانتاج المادي، فانسعت الفجوة بين النظرية والتطبيق، وتباعد المحصول النظري عن المحصول المادي بدلاً من ان يستعين كل منهما بالآخر في سبيل الازدهار . لم يكن هذا الانفصال بين الفكر والواقع المادي الا جهلاً بأهمية هذا الاخير من ناحية ، ورد فعل للوضع الاقتصادي والاجتماعي الذي ساد العصور الغابرة من ناحية اخرى . وفرض على السوق في اوروبا حينذاك ان يعملوا ليعملوا سادتهم الأشراف، وجعل من حق السادة الاشراف ان يظلوا عالة على سواد الناس . ولم يلبث اللهو والبطالة ان صاروا من مفاخر اللاهين العاطلين، كما صار العمل الشاق من مخازي الاشقياء الكادحين . ووقع فلاسفة اليونان تحت تأثير وضعهم الاجتماعي ، وقصر العلم عن تبصيرهم بحقائق الواقع المادي المتطور ، فأنفوا ان ينزلوا الى معترك الحياة ،

ويعالجوا مشكلات الناس، ويعملوا على تحسين ظروفهم الدنيوية. بل نادوا بأن الفلسفة وهي أسمى ما انتج العقل البشري، جديرة بأن تقتصر على تناول معضلات الوجود العليا دون مطالب الحياة التافهة، فهي اشرف من أن تسخر في سبيل تحقيق غنى، او توفير منفعة عامة. كان اولئك الفلاسفة يعتقدون مذهب العلم للعلم لا للحياة، كما كان معاصروهم من اهل الفنون الجميلة يعتقدون مذهب الفن للفن لا للانسان. اما رفع مستوى الحياة المادي، وسد مطالب الانسان الدنيوية فقد تركوها لأهل الحرف من سوقه وعبيده. وقد ظلت الفلسفة اليونانية تحتقر المنفعة الدنيوية المادية حتى صارت رياضة عقلية خالصة.

اما العلوم الطبيعية والرياضية التي كانت يومذاك فرعاً للفلسفة فلم تشذ عن تلك القاعدة، و بقيت حبيسة في نطاق البحث النظري. على اننا نستطيع ان نقرر في شيء من التجاوز ان مشيدي معابد اليونان القديمة وهما كلبها، ومبدعي تماثيلها أنزلوا علم الرياضة والهندسة الى ميدان التطبيق العملي، واخلق المادي الفني. على انهم لم يجدوا في ذلك غضاضة ما داموا لم يقصدوا من وراء ذلك تحقيق فائدة مادية. وحين نزل فن كتابة التمثيليات الى ميدان الحياة، وحاول ان يعرض مشكلاتها على المسرح، أنف ان يعنى بجهاير الناس واقتصر على تصوير مغامرات الملوك والابطال، وما وقع بينهم وبين الآلهة من احداث. وقد بلغ ازدهار مفكري اليونان لكل انتاج مادي حداً من التطرف ادخل معه افلاطون الفنون الجميلة في عداد الانتاج التافه، وقال في ذلك ما معناه «ان المثال الذي يبدع تمثالاً جميلاً يبدع حسناً معيناً، وهذا عمل تافه لأن ألوان الحسن لا تخص، فعمله قطرة من بحر. اما الفيلسوف الذي يدرك خصائص الحسن على اطلاقه، فهو الذي يدرك من حقائق الـكـون المطلقة ما يؤهله للسيادة.»

وهذه الوجهة المتطرفة من النظر لا تحتاج في هذا العصر الى فيلسوف لدحضها، فمن المعلوم اليوم انه لا يوجد حسن مطلق ، وكل فكرة نكوتها عن الحسن نستمدّها من المحاسن المشاهدة .

الفكر المصري القديم :

اما مصر القديمة فلم تنهج هذا النهج ، وليكنها تبجرت في العلم لتذال به مصاعب الحياة ، وتوفر أسباب الراحة للانسان . ولعل نهر النيل كان السبب في توجيه مصر الى ذلك الاتجاه ، فلم تزدهر حينذاك علوم الرياضة والهندسة والفلك الا بقصد الوقوف على المواعيد المناسبة للزراعة ، والهيمنة على فيضان النيل ، والافادة منه على خير وجه . وترتب على ارتباط العلم بالتطبيق العملي ان اندمجت النظرية والتطبيق ، فلم يتعال الفكر ، ولم يزد الحياة . واذا كان قدماء المصريين لم يخفوا بنظرية العلم المجرد ، او العلم للعلم ، فانهم لم يتجهوا كذلك في فنونهم الى نظرية الفن للفن . فلم تنعت تماثيلهم الا لغرض انساني ، اذ كانوا يؤمنون بخلود الروح ، وليكنهم كانوا مع ذلك يدركون ان الروح لا يعيش الا متصلاً بجسم مادي ، فلا روح خارج المادة ، ولذلك نحسوا التماثيل لأمواتهم حتى تنقسمها ارواحهم فتتعم بالحياة الخالدة . وما قيل عن تماثيلهم يقال كذلك عن نقوشهم وزخارفهم وتخطيطهم الجثث والمأكولات وغير ذلك من مختلف علومهم وفنونهم ، فقد كانت كلها تعنى بتصوير مظاهر حياة الناس ، والتعبير عن أغراضهم ، والرغبة في توفير السعادة لهم . ولو اتجهت فلسفة مصر القديمة اتجاه علومها وفنونها بدل انزالها في صومعات المعابد على أيدي كهنتها ، فاتصلت بالحياة بدل اقتصارها على البحث فيما وراء الطبيعة ، وتأثرت بالواقع وأثرت فيه ، لأفادت العلم واستفادت منه ، وساعد ذلك على رفع

مستواهما الى المرتبة التي كانت جديرة بأن تصل اليها تلك العقلية العملية . ولكن
الوضع الاقتصادي الزراعي حينذاك هو الذي مد الكهنة بذلك السلطان .

الفكر الاوربي في العصر الوسيط

وحين دالت الحضارة المصرية القديمة تفلست فكرة ربط النظرية بالتطبيق ،
وظلت اوربا خاضعة للفلسفة العتيقة المتعالية في سبحاتها على حياة الناس حتى اوائل
العصر الحديث ... ظلت متخبطة في ظلام الجهل وما يسوده من فقر ومرض وعجز
وخوف وعبودية ... كان حكامها من امراء الاقطاع يستمدون سلطانهم من تعاليم
الكنيسة الكاثوليكية ، فالمعتقدات التي اضطلع رجال الكنيسة بترويجها وافقت
النظام السياسي القائم حينذاك ووطدت اركانه ، فأمن الناس بأن ولاية الحكم
حق الهي ، وبأن الرزق مكتوب ، والرضى بالواقع فرض ، والعمل على تغييره كفر .
وظلوا ارقاء لتلك المعتقدات ، يخشون غضب سادتهم ، واذى الأرواح الشريرة ،
والحرمان من بركة الكنيسة . وبرّح بهم الخوف حتى تردوا الى هوة العجز والهوان .
وكان اخوف ما يخافه رجال الكنيسة انتشار العلم السكفيل بتبديل تلك الحال ،
فحرّموا على الناس الاجتهاد في البحث ، وجعلوا من انفسهم المرجع الأول والأخير
في تفسير امور الدين والدنيا . وراحوا يبحثون عن حقائق الحيماسة في بطون
كتبهم الدينية بدلا من استخلاصها من ثنايا الواقع . فالحقيقة لا تدرك عندهم
عن طريق دراسة الواقع ، ولكن عن طريق دراسة النص . وظلوا يسمّون عقول
الناس بأراجيفهم وخرافاتهم ، ويرمون بالزندقة كل من ينشد الحقيقة عن طريق
دراسة الواقع ، فاشتد ذبول الفلسفة والرياضة والكيمياء والفلك وغيرها من فروع
المعرفة الباهتة الموروثة عن الاقدمين . وجنّح الأفاكون الى تسخير ما ألتوا

به من قشورها في ممارسة السحر والتنجيم وغير ذلك من ضروب الشعوذة .
فانحرف العلم بذلك عن طريقه بعد أن مسخه الماسخون ، وساعد على نشر الأضاليل
والتمكين لها بدل مناهضتها والقضاء عليها .

ظل الجهل يغذي الخرافات والأباطيل ويمد في اجلها ، وظلت الاباطيل
والخرافات تصون الجهل وتمحيه ، وترعرع كل منها الى جانب الآخر في ظل رجال
الكنيسة الذين نصبوا انفسهم للشعوب هداة ومرشدين ، في حين أنهم لم يكونوا
غير انتهازيين نفعيين لا يبشرون الا بالضلال ، ولا يستهدفون الا خدمة انفسهم
من وراء خدمة سادتهم الأشراف .

لم يحرؤ فرد من الافراد على التصرف حتى في شئونه الخاصة دون الرجوع الى
رجل الدين ليستفتيه فيما يصنع . ولم يكن هذا يفتيه على اساس دراسة المشكلة
المعروضة عليه وتقليبها على مختلف وجوهها ولكنه كان ياجأ ، كما ذكرنا ، الى
الكتب الدينية يبحث في بطونها عن النص الذي يرشده الى ما يجب عمله . وساهم
السحر والتنجيم بمقدار في دفع الناس الى طريق الضلال ، فاسلمت الشعوب قيادها
الى السحرة والمنجمين والعرافين ورجال الكنيسة ، وسارت وراء هؤلاء سير الأنعام
حتى طمست العقول وتعطلت ملكات التفكير .

هكذا عاشت اوربا في العصر الوسيط ، ولم ينقذها من الوهدة التي تردت
اليها غير ذلك التطور الذي طرأ على عقلية شعوبها فأخذ يحولها بالتدرج من
المثالية الى طريق الواقعية .

كيف حدث التطور

يزعم بعض المؤرخين أن النهضة الاوربية التي خرجت بالعالم المحضرم من

ظلمات القرون الوسطى الى فجر العصر الحديث ، ترجع اول ما ترجع الى نزوح
علماء القسطنطينية بمد سقوطها في ايدي العثمانيين الى غرب اوروبا . ولكن المتأمل
يستطيع ان يدرك في غير جهد أن نزول بعض العلماء في بلد من البلاد لا يستتبع
انتشار العلم بين روعه ، إلا اذا كان البلد مهياً لقبول الرسالة الجديدة . وقد كانت
أوربا في اواخر العصر الوسيط توشك أن تأخذ بأسباب نهضة اقتصادية فكرية
مدفوعة بدوافع لم يكن لعلماء القسطنطينية من يد عليها ، غير أننا لا ننكر أن
هؤلاء عاونوا بمقدار على تنوير الازهان المشرقة الى المعرفة .

ازدهرت الصناعة هناك حينذاك ، ونشطت الرحلات البحرية ، والاستكشافات
الجغرافية ، وراجت التجارة . وترجع اسباب ذلك الى تضخم ملكيات الأمراء
والأشراف الاقطاعيين ، وتكدس أموالهم ، وجنوحهم الى احاطة أنفسهم بمظاهر
الأنفة والجاه حتى يشبعوا زهوهم من ناحية ، ويعلو قدرهم في أعين الناس وبعضهم
نفوذهم من ناحية اخرى . فقد توسعوا في بقاء القصور والكنائس ، واستعانوا باهل
الفن على تنسيقها وتجميلها بالتصاوير والتهاويل وشمسين الرياش ، وارتدوا الدمقس
والحرير والقصب ، وتحلوا بكل ما عرفه عصرهم من ألوان الزينة ، وحشدوا حشود
الخدم والأنباع ، وشيدوا القلاع والحصون ، وجيشوا فرق الحرس ، وأمدوها بما تحتاج
اليه من عتاد ولباس ، وجاراهم الكبراء والوزراء في تلك السبيل ، كل على قدر طاقته .
وقد ترتبت على ما تقدم تتيجه المحتومة ، فذب النشاط كما قلنا في الفنون
وصناعات النسيج والتجارة والسبك والتعدين والدغ وغيرها . وازداد عدد الصناعات
ازدياداً كبيراً ليسد انتاجهم المطالب المتزايدة . وأسفر ذلك عن نشوء المدن
الصناعية الصغيرة التي جمعت المنتجين وطبعتهم بطابع فكري خاص . وقد
أخذت خبرة هؤلاء الفنية تزداد على مر الزمن ، والصناعات تتعدد وتنقسم بالاتقان

حتى مما مستوى الفكر والذوق العام ، وانتشرت بين الناس آراء ومعتقدات جديدة متأثرة بالنهضة الناشئة وملأمة لها . ثم لم يلبث سمو الذوق والفكر ان عاد فأثر في الانتاج وزاده ازدهاراً . وظل ذلك التأثير ورد فعله يصعدان بالنهضة مرحلة بعد مرحلة حتى بلغت المستوى الذي وصلت اليه في العصر الحاضر .

تهيأت العقول يومذاك لفهم حقائق الوجود ، وأخذ ظلام الجهل ينقشع عن أوربارويداً رويداً ، وعرفت طليعة المستنيرين للعلم قدره ، فجاهدت في سبيل اعانته على تحطيم اغلاله ، وظلت تواصل جهادها حتى حررت من أسر المشعوذين والعرافين ورجال الكنيسة . ووفدت على الدنيا طلائع اولئك الفلاسفة الافذاذ الذين عرفهم الناس فيما بعد باسم « فلاسفة الاستنارة » .

وكانت انكلترة مابقة في ميدان التقدم الصناعي والتجاري نظراً لوضعها الجغرافي الذي ادى الى تقوية اسطولها ، ومابقة غيرها في ارتياد المحيطات بحثاً عن اسواق تجارية جديدة .

أخذ ذلك الأسطول يبحر البحار ، ويصل انجلترا بالبلاد النائية ، والاصقاع المجهولة ، ويعمل على توطيد العلاقات التجارية بينها . ولم يلبث هذا التوسع التجاري أن احتساج الى توسع صناعي يشد ازره ، ويعينه على النماء . وفتقت هذه الحاجة اذهان الممكرين من الانجليز ، ففطنوا الى اهمية المعونة التي يستطيع العلم ان يسديها للصناعة ، فجهدوا في سبيل تخليصه من شوائبه ، وتمكينه من تأدية رسالته .

ظهور بيكون :

ما كاد الوعي الانجليزي يدرك اهمية العلم وفائدته حتى ظهر الفيلسوف « بيكون » الذي اخذ يبرز هذا الوعي وفلسفه . وقد نادى أول ما نادى بوجود سيطرة العقل

على العاطفة في سبيل فهم الظواهر الطبيعية واحداث الوجود على حقيقتها . فما من ظاهرة او حادثة تعرض للانسان الا ويستطيع العقل الباحث المنقب تفسيرها أو تحليلها مهما طال بيحثة او تنقيبه الزمن . أما الجري وراء شطحات الأوهام المنبعثة من العاطفة ، فيطمس البصيرة ، ويضرب بين الانسان وحقائق الوجود استاراً كثيفة تضلل خطاه ؛ وتحول بينه وبين امكان التغلب على مشاكله ، وتمهيد السبيل الى الحياة السامية المبتغاة . وقد أشار احد الفلاسفة الانجليز المعاصرين الى ما نحن بصده فقال : « ما كاد العلم الطبيعي ينهض نهضته حتى قابله نهوض الفلسفة الواقعية التي ظهرت بشائرها على يد بيبكون . وكان هدف هذه الفلسفة ان يقوم صرح المعرفة الانسانية على اساس الواقع حتى يؤيد العلم ، ويعين على فهم الأساليب العلمية » .

كان بيبكون اول فيلسوف ندد في العصر الحديث بالنظريات الفلسفية العتيقة الموغلة في سراديب الاوهام ، ونادى بأن الفلسفة الطبيعية الواقعية التي تعتمد على التجارب الحسية المادية للوصول الى حقائق الوجود هي وحدها الجديرة بالاحتفال . فالحواس عنده هي وسائل المعرفة التي لا تخدع صاحبها ، وهي التي تعينه على الاختبار والمقارنة والتحليل والقياس وغير ذلك من الوسائل العلمية التي تمكنه في النهاية من استخلاص الحقائق الموضوعية التي لا يتطرق اليها الشك . اما الافكار المثالية التي يزعمون انهم توصلوا اليها بالغوص في اغوار نفوسهم ، والانصات الى الهتافات الخفية الصادرة من الباطن . . . هذه الخيالات المثالية الخادعة التي يزعم اصحابها انها سر الوجود ولب الباب ليست سوى سراب لا اصل له .

رأى ذلك الفيلسوف ان المثالية غير المتصلة بالواقع تعوق تقدم العلم ، بل تكتم أنفاسه وتقضي عليه - فحاول ان يسبق الى كتم انفاسها والقضاء عليها ، وجهر بأن

الدراسة الصحيحة للعلوم لا تكون الا عن طريق الرجوع الى كتاب الطبيعة الاكبر، وبأن « الحركة من لوازم المادة ، ومن اهم صفاتها » . وقد وضع بهذا الرأي الاخير اساس اخطر نظرية في عالم الفكر ، وهي نظرية التطور .

وعلى الرغم من أنه لم يشيد نظرية فلسفية واقعية كاملة البناء ، واضحة المعالم ، ورغم ان التقدم العلمي كان الكفيل على توالي الأيام بسد نقص فلسفته واتمام بنائها، فانه هو الذي أنزل الفلسفة من برجها العاجي الى الواقع ، وسخر العلم في سبيل خدمة الحياة ، فوصل بين الفكر وبين الوجود المادي ، أي ربط بين النظرية والتطبيق (١) . ومن الواضح ان الحضارة الاوربية لم تزدهر ازدهارها الحاضر الا على اساس تلك الدعوة المدوية التي اطلقها ليكون فهزت كيان انجلترا ، ثم عبرت المانش الى سائر دول اوربا المستنيرة ، فأفاد الفكر من الحياة ، وافادت الحياة من الفكر . وارتبطت النظرية كما قلنا بالتطبيق ، فكانت نقطة التحول في تاريخ الانسانية .

الفيلسوف هوبز

لم تستغ الجبهة الرجعية من أهل الفكر الانجليزي واقعية ويكون التي حاولت أن تنقل الفلسفة دفعة واحدة من عزلتها الى واقع الحياة، فخيّل الى الفيلسوف هوبز، وهو من تلاميذ بيكون، أنه يستطيع الدفاع عن مذهب أستاذه بمحاولة التوفيق بينه وبين المذهب المثالي . وبداله كذلك أن الجمع بين المذهبين يتيح له بناء نظرية فلسفية (متكاملة) على أساس الواقعية الجديدة ، ولكن محاولته لم تسفر الا عن

(١) لا يفوتنا ان نذكر ان العرب حاولوا الافادة من العلم والاستمانة به على الحياة فطبقوه تطبيقاً عملياً ، وكانوا الرواد الاول في ذلك الميدان أنشاء العصر الوسيط . ولكن ذلك لم يجر على نطاق عام، ونطاق واسع بل جرى في حالات متفرقة ، وعلى قدر ما سمحت به الظروف الاجتماعية والاقتصادية والمستوى العلمي حينذاك . غير ان جهودهم في تلك السبيل يستحق رغم ذلك التنويه .

تشويه نظرية استاذة ، فقد اعتمد في الوصول الى الحقائق التي نادى بها على العقل
المخلوق فأنحرف عن سواء السبيل . ولم تلبث واقعية ليكون ان انقلبت على يديه الى
تصورات عقلية ، أو الى معادلات رياضية ، فافتقرت به الطرق عن استاذة ، وانتهى
به جهده الى بناء نظرية فلسفية مثالية على أساس جديد .

سلم هوبز في بادىء الامر بأن افكار الانسان كافة تنبت في الاصل من تجاربه
الحسية او من تأثير حواسه ، فكل فكرة قائمة بذهنه خلقتها الحواس في الاصل ،
أو خلقت على الاقل جانبها الاساسي . وسلم ذلك الفيلسوف كذلك بأنه ليس لشيء
في هذا الكون وجود حقيقي الا المادة أو الاجسام المادية ، فأيد بهذا التسليم نظرية
يكون ، ولكنه اخذ ينحرف عنها ، ويناقض ما سلم به حين قال إن الانسان لا
يدرك ماديات الكون على حقيقتها ، بل يدرك منها مجرد ظواهر أو رؤى تصورها له
حواسه ، وتطبعها في ذهنه . واذا كان الكون المادي عبارة عن أجسام تتحرك
وتتفاعل فانه يتمثل في ذهن الانسان بما تحدثه تلك الاجسام من تأثير في حواسه .
وإذا محصنا هذه النتيجة التي وصل اليها هوبز ، بصرف النظر عن الاساس
المادي الذي انبنت عليه نجد أنها لا تختلف في الجوهر عن الفلسفة المثالية التي تؤكد
أن الكون البادي للانسان غير قائم الا في ذهنه ، ولا وجود له خارجه .

الفيلسوف لوك

حاول لوك ان يتم بحث سلفه هوبز ، ويكمل بناء مذهبه ، ويدلّل على صحته .
جهده فانتهى به الى زيادة الفجوة بين الفكر والمادة أو بين ذلك المذهب وواقعية
يكون اتساعاً .

سلك لوك في بداية بحثه مسلك سلفيه ، فندد بما يسمى الالهام والهواتف الغيبية ،

وأكد أن معارف الانسان كافة مستمدة من العالم المادي المنظور الملموس، ولكنه جارى هو بز في قوله ان ظواهر الكون الماثلة في أذهاننا ليست سوى مجرد صور ورؤى غير أمينة للأجسام المادية الحقيقية، لان حواسنا قاصرة عن ادراك الواقع على طبيعته الأصلية. على أن الجديد الذي أتى به لوك هو تقسيم الافكار التي يكونها الانسان عن الواقع الى نوعين، نوع وثيق الشبه بالواقع، ونوع يختلف عنه.

فأما النوع الاول فهو الخاص بصلابة الاجسام وحجمها ووزنها وسرعة حركتها، الى غير ذلك من صفات الاجسام التي يمكن التثبت من صحتها. وأما النوع الثاني فخاص باللون والرائحة والصوت والطعم وما شا كل ذلك من الصفات الخاضعة للتقدير الشخصي. وأطلق على الصفات التي تنبت أفكار النوع الاول اسم «الصفات الاولية» وعلى الثانية اسم «الصفات الثانوية». (١)

اهتدى ذلك الفيلسوف في معرض التدليل على صحة الفلسفة الواقعية التي تقرر نشوء الافكار من الكائنات المحيطة بالانسان الى فرض يقرب وجهة نظره الى الذهن. فقد أهاب بقرائه ان يتصور وجود انسان هو طليعة من ظهر في الوجود من البشر، وأن هذا الانسان أخذ لأول مرة يحيل نظره مشدوهاً فيما حوله من موجودات... قال لوك: «فاننا اذا تصوّرنا وجود مثل هذا الانسان الاول، فان ذهنه يكون ولا شك كالطرس الابيض الخالي من كل أثر فاذا وقعت عينه على مشاهد الكون انطبعت صور تلك المشاهد على ذهنه، وأخذ يكون أفكاراً أولية عنها. ثم لا تلبث تلك الأفكار ان تكثر وتنوع، ثم لا يلبث هو أن يرتبها، ويقارن بعضها ببعض ويستنبط من وراء ذلك الترتيب والمقارنة أفكاراً مركبة هي كذلك في أصلها وليدة الواقع...»

(١) لهذا التقسيم اساس في الفلسفة اليونانية القديمة.

وينتهي لوك من نظريته الفلسفية الى أن المعرفة الانسانية تقوم على الافكار المستنبطة من المقارنة والقياس . فالانسان مشغول بفكاره البشرية التي لا تتصل بالواقع الا من ناحية المشابهة أو من ناحية كونها رؤى وصوراً مستخلصة في الأصل من الواقع .

نتبين مما تقدم أن لوك بدأ كهوبز بربط الفكر بالواقع ، أي ربط النظرية بالتطبيق . ولكنه عاد فباعد بين الاثنين ، ووقع بذلك في تناقض واضح الخطل . والذي ضلل لوك وأوقعه في الخطأ أنه جنح أولاً الى التمييز بين حقيقة المادة وبين صفاتها . فهو يسلّم بأن الانسان يستطيع معرفة الصفات الأولية للمادة على حقيقتها ، ولكنه ينكر قدرته على معرفة كنهها . في حين أننا لا نحتاج الى التعمق في الفكر لندرك أن المادة ليست إلاّ جماع صفاتها من حجم ووزن وشكل ولون وكثافة واشعاع وما الى ذلك .

ثم انه يفرق كذلك بين الفكر والواقع . فبينما يقول ان الأفكار مستمدة في الاصل من الماديات ، يعود فيزعم أن الناس يعيشون في عالم من أفكارهم نسجه ذهنهم الدائب على تخريج الأفكار الجديدة عن طريق القياس والمقارنة . وهذه التفرقة بين عالم الفكر وعالم الواقع تناقض أساس نظريته ، وتودي بها . وأحسب أن بعدها عن الحقيقة واضح جلي .

فالأتجاه الواقعي الحديث أخذ في مبادئ الفلسفة والادب والفن يتجه كما قلنا الى الاتصال بالواقع مباشرة ، ومحاولة ادراكه على حقيقته ، طارحاً وراء ظهره رؤى الخيال المريض الذي لا يخرج عن كونه تصوراً ناقصاً مشوهاً للواقع . ثم ان جموع الناس تتصل طوال يومها بماديات الحياة في ممارستها لأعمالها اليومية ، وتستمد آراءها

وخواطرها منها مباشرة ، ثم تعود فتطبق تلك الآراء والخواطر عليها . أما الذين انعزلوا في عالم الفكر فهم المتعشرون في حبات المنطق المجرد ، والخيال الجامح من أمثال لوك نفسه .

المذهب المادي خارج إنجلترا

أول من حاول تحرير الفكر في فرنسا من أسر الفلسفة العتيقة ومعتقدات العصر الوسيط هو الفيلسوف ديكارت . وعلى الرغم من أن فلسفته لم تخل من جانب مثالي يشرئب إلى ما وراء الطبيعة ، ويتشكك في وجود المادة ، ويصفي إلى الاهتافات الغيبية ... إلا أن جانبها الآخر حاول أن يفسر الوجود على أساس علمي .

وقد انتشر على أثر ذلك الاتجاه العلمي للمادي في أوروبا، وتأسست مدرسة فلسفية اتخذت من علم الميكانيكا الذي تفرد بالازدهار حينذاك نبراساً تهتدي به إلى تفسير ظواهر الوجود. وقد بدا لها أن الكائنات تنمو وتشتد ثم تضمحل وتموت . فالناس في نظرهم يولدون ويكبرون ثم يضعفون ويتوارون ، وكذلك الحيوان والنبات وسائر ظواهر الطبيعة التي تظهر وتختفي ، أو تدور في فلكها دوران الآلة . فحسبوا أن الكون يدور على نظام آلي بحت .

ولكن دارون العالم الإنجليزي استطاع أن يثبت انتقال الحيوانات على مرّ الاحقاب من طور إلى طور ، وتغير صفاته الجسدية والعقلية تغيراً كيفياً متوالياً ، فزعزع بذلك أركان تلك الفلسفة المادية الآلية ، ومهد السبيل لظهور نظرية التطور التي هدت الفلاسفة إلى الطريق التي يسلكها الوجود في سيره إلى الأمام .

عصر الآلة

ظلت التجارة والصناعة في أوروبا إبان العصر الحديث يحفز بعضها بعضاً ، فأخذ

النشاط التجاري يشتد تحت ضغط الصناعة المطردة السَّماء والنشاط ، واحتاج نموه واشتداده المتزايد الى نشاط جديد في الميدان الصناعي لسد حاجاته . وتطورت طبيعة العلاقات التجارية بين الدول الأوروبية الناهضة من ناحية ، وبين البلاد الضعيفة من ناحية أخرى بتأثير ذلك السَّماء الصناعي التجاري المطرد ، فان جشع أصحاب الاموال الأوروبية لم يعرف الشبع ، فلم يزل بهم حتى دفعهم الى التدخل شيئاً فشيئاً في الشؤون الداخلية للبلاد الداخلة في نطاق ميدانهم التجاري . وما زالت حكوماتهم تؤيدهم في سبيل الفنى والسلطان حتى تمكنوا من تحويل تلك العلاقات التجارية الى هيمنة اقتصادية فاحتلال عسكري . ثم بدأ عصر الاستثمار الذي وفر للصناعة الأوروبية موارد للمواد الخام لا تنضب ، واسواقاً لامتناهات لإنتاجها لا تشبع ، وازدادت حاجة الصناعة الى المعرفة العلمية ، فذب في مجال العلم روح وثاب انتهى حينذاك الى اختراع الآلة البخارية التي قلبت الأوضاع الاقتصادية العالمية رأساً على عقب .

استطاعت تلك الآلة ان تحقق حينذاك أطماع أوروبا الاقتصادية ، فقد غمر الانتاج بالجملة أسواق العالم ، وعاد على اصحاب المال والأعمال بثروة تفوق ما كان يتراءى لهم في احلامهم . وتوفرت فرص النجاح الذهبية لكل من دفعه طموحه الى ميدان العمل في سبيل الكسب . وتقاطرت جموع حاشدة من اغنياء الريف على المدن بعد ان خسرت موقعتها مع الرأسمالية ، مؤثرة الاشتغال بالصناعة والتجارة على البقاء في ضياعها . وجاءت افواج الفلاحين وراءها مؤثرة كذلك العمل في المصانع على العمل في الحقول . واكتظت المدن بالوافدين عليها ، وأخذت تتسع شيئاً فشيئاً حتى صارت مدناً كبرى ، يهز أركانها دوي الآلات في المصانع الضخمة وتصطرع في أرجائها قوى أصحاب المصالح المختلفة . وظهر اهل الأدب والفن

يعبرون عن خوالج طبقة العصاميين الذين أصابوا حفظاً من الثراء . ثم انتشرت الهيئات الثقافية والنوادي والحوافل والمسارح وغيرها من المؤسسات التي اتاحت لطلاب الأعمال فرصاً جديدة للعمل . وجرف هذا التيار المرأة التي كانت تعيش قبل ذلك عالة على غيرها ، فنزلت تحت الضغط الاقتصادي المتزايد الى ميدان الانتاج ، فسار دولا به بكامل قوته . ولم يلبث العمال والصناع الذين زحرت بهم المصانع ووحدت مصالحهم وأهدافهم ، ان شعروا بالحاجة الى رفع مستوى معيشتهم ، وتوزيع الغنى الطارىء الذي يرجع الفضل في توفيره الى جهودهم توزيعاً عادلاً . وهكذا انقسم سكان المدن الصناعية الى طبقة العمال ، والطبقة التي تستمتع بالنفوذ ، أو تعيش في يسر دون الحصول على المال عن طريق العمل الانتاجي ... تلك الطبقة التي نسميها « العصامية » .

عود الى النظرية والتطبيق

اسفرت نهضة أوربا الصناعية الكبرى عن يقظة سواد الشعب الأوربي ، وإقباله على مناهل العلم والمعرفة يغترف منها . واخذ العمال والصناع الذين نما وعيهم ، وازداد فهمهم بازدياد خبرتهم الفنية يشعرون بأهمية طبقتهم ، ويدركون خطر شأن العمل الذي يضطلعون به . وما اشتدت ثقتهم بأنفسهم وبأهمية انتاجهم حتى طفقوا يستخفون بالنظريات ، ويستهمنون بأصحابها ، ولا يرون شيئاً في الوجود ذا بال غير عملهم . وقد فاتهم أهمية الدراسة النظرية التي تستهدف تمكين المنتجين من احقاق حقهم . - واذا كانت النظرية لا تصبح ذات قيمة الا حين ترتبط بالتطبيق ، فان العمل يخضع للروتين ويفقد ميزاته الانشائية اذا لم يستعن بالتصميم النظري السليم .

ولا شك ان استخفاف الطبقات المنتجة وأصحاب المعتقدات التقدمية بالنظريات الفكرية له ما يبرره فيما يتعلق بالمذاهب المثالية المنعزلة عن الواقع . الا ان الفلسفة الواقعية الجديدة التي لاحت بشأرها منذ منتصف القرن الماضي أضحت كفلق الصباح ، تضيء السبيل وترشد الضالين الى غايتهم . وقد استطاعت بتطبيقاتها الموقفة ان تكشف عن التناقض الذي يعوق التقدم الحضاري ، وان تتيح لدارسيها فهمها وقدرة على المناهضة النقيض الرجعي وقهره ، وإفساح مجال التقدم والازدهار للنقيض التقدمي فتحقق بذلك اهداف الرقي على وجه اسرع وأوثق .

واذا كان كشف الآلة البخارية قلب الأوضاع الاقتصادية في اوربا وامريكا ، ورفع مستوى المعيشة بين شعوب تلك البلاد كما رفع مستواها الثقافي وذوقها العام ، ومهد بذلك لظهور المذاهب الواقعية في ميادين الفلسفة والادب والفن ، فان الطبقة العصامية التي فازت بالمال والسلطان بذلت وما تزال تبذل كل ما تملك من سطوة يمدّها بها مالها ونفوذا لتذود عن المذاهب المثالية ، وتثبت دعائمها ، وتزيدها قوة وانتشاراً .

ويسهل علينا بعد الشرح السابق ان نزيد سبب اهتمام الطبقة العصامية بالمذاهب المثالية شرحاً ... فهذه الطبقة التي نعمت دور سواد الناس بالنصيب الأوفر من مكاسب الآلة البخارية وخيراتها ، حرصت على تبرير تميزها هذا ، فوجدت في المذاهب المثالية ما يعينها على بلوغ هذه الغاية . فالمذاهب المذكورة على اختلاف الوانها تنسب الى الفكر الموهوب الممتاز فضل تشييد هذا الصرح الشامخ من المعارف الانسانية التي اسفرت عن التقدم الحضاري الحالي .

وعلى هذا الاساس يستطيع الزاعمون ان يزعموا أن تميز الموهوبين الذين برّزوا

في ميدان العلم والاقتصاد حق وعدل ، فهم لم يرغبوا غيرهم من سواد الناس ولكنهم فازوا بنتاج جهودهم ، وثمار عقولهم !!.

• هكذا تبرر المذاهب المثالية النظام الرأسمالي الاستعماري القائم على الصراع بين الافراد والدول بعضهم وبعض ، والتهام قويهم الضعيف . فهي تقوي النزعة الفردية كما قلنا، فتصرف صراع الجموع في سبيل تحسين حالهم الى صراع الأفراد والحكومات في سبيل التفرد بالمال والنفوذ . وهي تمكن الدول القوية والافراد الاقوياء بمالهم ونفوذهم من الاحتفاظ بما لديهم ، لعدم تكافؤ فرص الصراع بينهم وبين الضعفاء .. ثم ان هذه الطبقة العاصمية ودولها الاستعمارية لم تسكف عن التطلع الى جاء سادة الاشراف بعد حلولها محلهم . فهي تحاول ان تستمسك بنعرتهم فتحترق الواقع المادي ، أو تبدي ذلك من طرف اللسان على الرغم من تكالبها في حياتها اليومية على الماديات التي كانت سبب نعمتها ، ووسيلة فوزها بمكائنها المرموقة . هذا الى انها تحاول بتشجيعها المثالية ، وتظاهرها باعتناقها، مدارة خسة مساعيها في سبيل الحصول على عرض الدنيا والاستئثار به .

على ان هذه الطبقة لم تفقد من شيء افادتها من نزول العلم الى ميدان الواقع ، واتصال نظرياتة بالتطبيق . فاضطرت الى تشجيع هذا الاتجاه . واقتصر تمويهها على انكار افادة العلم من الواقع ، واصرارها على ان الكشوف العلمية وليدة عبقرية العباقرة والهام الملهمين ... في حين أن تلك الكشوف لم تظهر الى عالم الوجود الا تحت ضغط الحاجات والرغبات والتوجيهات العامة ، وكل كشف منها متولد عن سوابقه من الكشوف ، ومعتمد على غيره منها ، ومتأثر به ومؤثر فيه . بل ان جماع المعارف الانسانية ليس الا وليد الخبرة العملية المكتسبة

على مرّ الدهور .

ومهما يكن من امر الجهود التي تبذل للابقاء على الفرقة بين الفكر والواقع
المادي ، فانها موشكة على الاخفاق والتبدد ، والعالم سائر في طريق الفهم الصحيح ،
• ولن تلبث الواقعية التي تستهدف الجمع بين النظرية والتطبيق ان تسود العقليات
جميعاً .

الفصل الثالث

مبادئ الفلسفة المثالية

نظرة المثاليين الى المادة

يزعم المثاليون ان الروح هو الذي يخلق المادة ، أو ان ماديات الكون التي نراها حولنا هي في ذهننا ، ومن نسج روحنا وخلقها ، وان أفكارنا تنبع من معين روحنا ، فنفهم الوجود ونكيّفه ونطوّره على ضوء تلك الأفكار ... وهذه المبادئ المثالية تناقض المبادئ المادية التي تقرّر أن الروح أو الفكر ينبعث من المادة ، وأنّ معارفنا وليدة الواقع المادي والعمل ، وان المعنويات كافة تنبعث من الماديّات .

وحين دعا « بيكون » دعوته الواقعية التي تحدّثنا عنها في الفصل السابق ، والتي قلنا إنّ توسع إنجلترا التجاري وحاجته الى نهوض الصناعة مهّد السبيل لها ، هبّ الرأي العام الذي كان لا يزال متأثراً بمعتقداته العتيقة في وجه تلك الفلسفة المادية ، فسارع « هوبز » و « لوك » الى نصرّة استاذهما ، وراحا يوقفان بين فلسفته المادية وبين المثالية البالية . وعلى الرغم من انها مسخا فلسفة استاذهما ، وقوّضا أركانها ، ورجعا بها الى حظيرة الأوهام ، فانهما لم يوقفا الى ارضاء الرجعية الانجليزية وتهدئة بالها وتسكين نأثرتها . ولم يتمكنّا كذلك من بثّ العراقيل في الاتجاه الواقعي الجديد الذي لقي آذانا مرهفة واعية بين طليعة أحرار الفكر الذين ضاقوا بأغلال

المعتقدات القديمة .

بلغ الصراع بين هذين المذهبين المتناقضين أشده ، فجذحت الفلسفة المثالية وهي في مجال الدفاع عن مصيرها إلى أقصى حدود التطرف أو الى نقطة التحول ، فقام أحد اساطينها ينكر وجود المادة اصلاً ، ويحاول بالبرهان العقلي ان يدلل على صحة مذهبه العجيب ! ظناً منه أنه يستطيع بذلك أن يحسم النزاع المستعر بين الفلسفتين .

فلسفة بركلي المثالية

لما رأى الفيلسوف بركلي ، وكان من رجال الدين ، ان الفلسفة المادية تقرّر ان المادة أساس كل ما حوى الوجود من معنويات أراد ان يقوّض تلك الفلسفة من اساسها بتقديم الأدلة كما قلنا على ان الماديات موجودة في اذهان الناس ، ولكنها غير موجودة أصلاً خارج اذهانهم .

ومما لا يخفى ان بركلي استمدّ فلسفته من مذهب لوك المشار اليه في الفصل السابق ، أو أنه ، بعبارة أدق ، استوحاها من ذلك المذهب فلم بصحة شطر منه ، وحل على الشطر الآخر حملة شعواء ؛ سلم بأن الوجود الذي نراه ليس الا صوراً وروى تتمثل في أذهاننا ، ولكنه انكر وجود أصل مادي لهذه الصور والروى قائم خارج عقولنا وأن هذا الأصل المادي المجهول هو الذي يحثك بحواسنا ، وينطبع عليها فيخلق أفكارنا ...

يرى بركلي « أن المعرفة الانسانية هي جماع الافكار التي تنطبع على الحواس أو التي نفطن اليها بتأثير المشاعر والأحاسيس وعملية التفكير ، ، أو التي يعيننا على تكوينها الخيال وذكريات الأحاسيس ... » ويمضي ذلك الفيلسوف المثالي في

شرح نظريته فيقول : « ومن الواضح المسلم به أن الأفكار والخوارج والخواطر لا يمكن أن يكون لها وجود إلا إذا كان هناك عقل يعيها .. » ثم ينتهي بعد هذه المقدمة الى قوله : « ومما لا يقل عن ذلك وضوحاً أن الخوارج والخواطر على تشعبها لا يمكن أن يكون لها وجود إلا داخل نطاق العقل ما دام أنها لا تتمتع بالوجود الا اذا كان هناك عقل يعيها !! »

ويقول في معرض تفنيده لنظرية لوك : « ان الفكرة لا يمكن ان تكون الا مجرد فكرة. وأي لون أو شكل لا يمكن ان يماثل أو يشابه إلا نظيره من الاشكال والالوان ... اما القول بأن لونا ما ، او شكلا ما يرسم في اذهاننا لأنه يماثل جسماً مادياً غير معلوم ، ولكنه موجود خارج نطاق العقل ، فقول مبهم غير مفهوم ، واني أتحدى أي مخلوق ان يثبتته . »

وعلى الرغم من مهاجمته للفيلسوف « لوك » فانه لا يدين له باتجاهه الفكري فحسب ، ولكنه مدين له كذلك بكثير من الأدلة التي ساقها لتأييد نظريته . فقد حاول « لوك » ، كما ذكرنا في الفصل السابق ، ان يقسم صفات الأجسام الى أولية وثانوية ، وقال عن الصفات الاولى وهي موضوعية حسبما زعم ، كاللحم والوزن والصلابة ، انها مشابهة للأفكار أو الصور التي يكونها ذهننا عنها .. اما الصفات الثانوية أو الذاتية كالرائحة والطعم والصوت فقد قال عنها انها خاضعة للتقدير الذاتي ، وصورها في الذهن لا تشبه حقيقتها في الواقع ... »

من هذه الثغرة أخذ « بركلي » بهاجم « لوك » ... ومنها ايضاً وجد مفتاح فلسفته . فقد انكر التفرقة بين صفات الاشياء ، وقال بحق انها تفرقة خيالية غير علمية ، فصفات الاشياء جميعها تتولد في زعمه من اختلاج الحواس ، وتشكل وفق التقدير الذاتي البحت ، لا فرق في ذلك بين ما يسميه لوك الصفات الأولية وبين ما

يسميه الصفات الثانوية . وهكذا استعان بما قرره لوك من عدم وجود أصل واقعي مشابه للصفات الثانوية التي تخلقها حواس الانسان ، فطبقه على الصفات الأولية كذلك ، وانتهى الى انكار وجود المادة أصلاً خارج العقل .

على أن بركلي لم ينكر ما تشتمل عليه فلسفته من غرابة ، فقد اسرع الى القول : « وقد يبدو لك غريباً أن يقال انك تعيش في عالم من الخواطر ، وانك تأكل افكاراً وتشرب افكاراً وترتدي افكاراً . . ولكن هذا يبدو أقل غرابة من القول بأن الاشياء المادية يمكن ان توجد دون أن يكون هناك عقل يعيها .. »

وحين سئل عن القطبين وعن الأجرام السماوية المستكشفة حديثاً ، والاجسام المستخرجة من باطن الارض واعماق المحيطات .. حين سئل عن وجود تلك الاجسام قبل أن تقع عليها عين ، ويعيها عقل ، اجاب : « انها قائمة كسائر الموجودات في وعي بارئها . »

نظرية « أنا وحدي »

أتخذ ذلك الفيلسوف المثالي من قصور حواسنا عن الوقوف في بعض الاحيان على الصفات الحقيقية للأجسام المادية دليلاً جديداً على مذهبه الذي ينكر المادة . فهو يقول لك : « افترض ان احدى يديك ساخنة والأخرى باردة ، وانك غمستهما معاً في ماء دافئ فكيف تجد ذلك الماء ؟ انك ولا شك تجده باحدي يديك بارداً وبالأخرى ساخناً !! فما هي حقيقته ؟ أيمن ان يكون بارداً وساخنأ في وقت واحد ؟ اليس هذا التناقض دليلاً على ان ما تدركه بحواسك ينبعث في وعيك فحسب دون ان يكون له اصل في الواقع ؟ .. »

و يعود فيقول « إن الحمل الذي يجده القوي خفيفاً يجده الضعيف ثقيلاً واللون الذي تراه احمر او ابيض يراه المريض بداء « الصفرة » اصفر والماء الذي تستعذبه يصبح مرّاً في فم الحموم او المعود ... فما هي حقيقة هذه الظواهر؟ ... أليست الاشياء جماع صفاتها؟ اما هي عبارة عن شكل وحجم ووزن ولون وطعم وغير ذلك من الصفات؟ فاذا كانت هذه الصفات غير محددة بل تتغير في وعينا وفق ظروف حواسنا ومشاعرنا، فكيف نقول ان لها حقيقة مادية ثابتة؟! .. » .

بهذه السفسطة حاول بركلي ان يثبت عدم وجود المادة . والذي يتتبع منطقته السفسطائي لا بد ان ينتهي الى تساؤله : « ما دام كل ما في الوجود افكاراً فلا بد ان يكون الناس الذين اعرفهم واراهم افكاراً ايضاً، وعلى هذا اكون « انا وحدي » الموجود في هذا الكون !! » . هذه النتيجة المنطقية تعرف بمذهب « سوليسزم Solipsism » او مذهب « انا وحدي » . ولكن بركلي يحتاج على هذا التخريج، وينكر مذهب « انا وحدي » كل الانكار وينفي عن نفسه شبهة اعتناقه بقوله انه لم ينف وجود هذا الكون قط، كما يزعم الذين اخطأوا فهم فلسفته فالكون موجود ما في ذلك شك، ولكن وجوده محصور في اذهاننا جميعاً، ولا يتعدى نطاقها . فقد خلقه الله افكاراً يثبتها فينا ولم يخلقه عالماً مادياً كما يتصور الجاهلاء !! .

على ان دفاع بركلي غير الموفق عن فلسفته لا ينفي الصلة بينها وبين نظرية التفرد او نظرية « انا وحدي » . وان الذي يعتنق الاولى لا بد ان ينتهي الى اعتناق الثانية ... او الى التسليم بالنتيجة التي وصل اليها ديكارت حين شك في وجود جسمه المادي، وافترض انه هو نفسه مجرد فكرة .

لقد ظهر قبل بركلي فلاسفة نشككوا في وجود المادة مثل الغزالي وديكارت

ومن نحا نحوها . واذا كانت بركلي قد نسج على غرار من سبقوه من الفلاسفة المثاليين فانه خالفهم في امر واحد اذ قطع شكهم باليقين ، فجزم بعدم وجود المادة ، بدل الاقتصار على مجرد الشك في وجودها .

نخلص مما تقدم الى ان بركلي حاول ان يهدم المادية ليؤيد الكاثوليكية التجريدية ، فانتهى الى مسخ هذا الكون او نسخه من اساسه بتلك الفلسفة الخرافية التي تجزم بأن الكون ليس الا مجرد صور يبتشها خالقها في الازهار . وهكذا وقع في الكفران من حيث اراد دعم الايمان .

فلسفة بركلي والعلم

قلنا في الفصل السابق إن ازدهار العلم في اوربا خلال العصر الحديث لم يقض دفعة واحدة على نزعتها المثالية الرجعية ، ولو انه ظل ينال منها على مرّ الزمن شيئاً فشيئاً . وقد وجد معسكر تلك الرجعية سنداً من الحكومات الرأسمالية الاستعمارية ومن يسيطرون عليها او يؤيدونها ويدعمونها من رجال المال والاعمال .

لقد عرف اولئك الرجال الذين ورثوا السيادة والسلطان عن طبقة الاشراف الدائمة قيعة الخدمة التي كانت الكنيسة تؤديها للسادة السابقين بواسطة بثّ تعاليمها ومعتقداتها المثالية في اذهان الجماهير ، فحاولوا ان يفيدوا هم كذلك من هذه الاداة الطيبة التي تخدم رجال الحكم ايّاً كانوا ؛ وسلّكوا كل سبيل ليقبوا على تلك المعتقدات والتعاليم الكاثوليكية التي تدعو الى التسليم بالامر الواقع وقناعة الانسان بما قسم له ، والزهد في عرض الدنيا وغير ذلك من النفثات التي تمكن المحظوظ القوي بماله وجاهه من استبقاء ما اصاب من غنى وجاه ومال دون معارضة من المحرومين المغبونين .

ولما كان اولئك السادة الجدد يعتمدون فيما يبذلون من كد وجهد لمضاعفة مكاسبهم المادية على التقدم العلمي فقد ارادوا التوفيق بين العلم والعقيدة الكاثوليكية ووجدوا بين الفلاسفة من تطوع للتعبير عن وجهة نظرهم هذه فحبوهم كل عطف وتأيد ، واحتفوا بمصنفاتهم وكفلوا لها الرواج بشتى وسائل الدعاية حتى راجت اي رواج بين الجموع الحاشدة من السذج والجهلة وذوي العقليات الرجعية .

وكان الفيلسوف لوك اول من حاول التوفيق بين المثالية المجردة وبين العلم الذي هو واقعي بطبيعته فقال في هذا الصدد : « ان العلم هو خلاصة تجارب حواسنا ! وان مجاله هو عالم افكارنا ذاتها ! ولا يستطيع العلم ان يتناول ما وراء هذا المجال ، لان كنه الكائنات المادية ، وهي اصل افكارنا ، فوق متناول إدراكنا !! » . وعلى هذا الاساس حاول لوك ان يتفادى الصدام بين العلم وتعاليم الكنيسة بانكار قدرة العلم على التغلغل الى حقائق الوجود المادي .

ولكن بركلي الذي ينكر وجود المادة ، او ينكر وجودها ، على حد تعبيره ، خارج اذهاننا ، يرى ان تسليم لوك بوجود كائنات مادية خارج اذهاننا هي اصل افكارنا ، يؤدي دون مرأى الى ربط العلم حين يتناول تلك الافكار ، بذلك الاصل المادي ولو بطريقة غير مباشرة . وفي هذا تناقض ظاهر في نظر بركلي بين النتيجة التي وصل اليها لوك وبين النتيجة التي ارادها .

وقد توهم بركلي انه قدم الادلة الدامغة على عدم وجود المادة اصلاً ، فتوصل الى تخليص رأي لوك في الصلة بين العلم والدين من تناقضه وهو يقول في ذلك : « ان من الخطأ ان نظن العلم يتناول ماديات الوجود بالدرس والتمحيص والتحليل ، فليست تلك الماديات كما قلنا الا انفعالات وافكاراً . ومهمة العلم ان يدرس تلك

الافكار المزدحمة في رؤوسنا ، والانفعالات المنطبعة على حواسنا ، وأن يرتبها ويؤوبها ويحلمها ، ويستخلص منها النتائج المفيدة للانسانية ، ولهذا أؤيد العلم وأدعو غيري الى تأييده ... » فالعلم في نظر ذلك الفيلسوف لا يعنى إلا بتكهناتنا عن نظام انفعالاتنا وترتيبها ، وباستكشاف القواعد الخاصة بصلة تلك الانفعالات بعضها ببعض ، وما تسفر عنه تلك الصلة من نتائج .

فلسفة اللاأدريين

يعرف بيكون ومن تلاه من الفلاسفة الأنجليز الذين تحدثنا عنهم باسم الفلاسفة التجريبيين ؛ لأنهم يرون كما قلنا أن تحصيل المعارف الانسانية جميعها لا يكون إلا عن طريق التجارب الحسية ، أي تجارب الحواس . فهم من هذه الناحية يتجهون اتجاهاً واقعياً . وإذا استثنينا بركلي فاننا نرى الباقيين يؤكدون وجود الماديات في عالم الواقع ، أي وجودها خارج أذهاننا ويعدون لها المنبع الوحيد للمعارف والأفكار . وقد شرحنا في الفصل السابق منهجهم المادي وما شابهه من انحرافات خرجت به من ميدان المادية الى المثالية . أما بركلي فقد شذ عنهم حسباً ذكرنا بانكاره وجود الماديات خارج أذهاننا فأحال المذهب التجريبي المادي بانحرافه هذا الى مذهب تجريدي صوفي .

ولكن الفلسفة التجريبية التي اختلف أنصارها على وجود المادة ثبوتاً ونفيّاً لم تلبث أن ازدادت تجرداً على يد الفلاسفة اللاأدريين الذين أرادوا ان يقوموا بمحاولة جديدة بعد ان لمسوا عجز فلسفة بركلي عن تحقيق غايتها لحسم النزاع القائم حول الماديات والمعنويات ، وايجاد باب الجدل الدائر حولها نهائياً فزعموا ان محاولة الوقوف على طبيعة الوجود الاصلية عبث لا طائل تحته ، لأن هذه الطبيعة فوق متناول مداركنا

القاصرة ... قالوا ان المتشككين والماديين ومنكري المادة كانوا يخوضون في بحوث معقدة متضاربة بأمل الوصول الى حقيقة الكون الموضوعية ، اما هم فيرون الخلاف الدائر حول تلك المذاهب غير مجدٍ ، لان العقول لا تعرف عن الوجود الا ظواهره ولا تستطيع ان تخترق نطاق هذه الظواهر . والحقائق التي ندركها ذاتية لا موضوعية فكل فرد يدركها حسبما تبدوله ، ولكنه لا يستطيع ان يدركها على حقيقتها .

يتساءل اللاأدريون عن كيفية ادراكنا للوجود ؟ أنحن ندركه بنشاطنا الذهني وحده ؟ ... أم بمعونة قوى خفية ؟ ... أم بمعونة ما هو أمعن من هذا وذلك في الغموض والابهام ؟ ... أليس من الاصول ان نسلم بأن تلك المعميات غارقة في حجب كثيفة يستحيل كشفها ؟

اما العلوم فيرى اللاأدريون انها تتناول الحقائق الذاتية ... الحقائق كما تبدو لكل منا ، ولكن الحقائق الموضوعية بعيدة حتى عن متناول العلوم ... ثم يسترسل هؤلاء الفلاسفة في تأييد مذهبهم فيقولون ان العلم استطاع ان يبديد الخرافات والمعتقدات الخاطئة التي هيمنت على العقول في عصور الجهل ، ولكن الحقائق العلمية التي فاخر العلم بكشفها لم تلبث ان توارت ، أو توارى بعضها بعد ان ظهر خطؤه فكيف نستوثق من صحة الحقائق التي لم يظهر خطؤها بعد ؟ .. ألا يدل هذا على اننا لا ندري شيئاً مما يقع وراء اذهاننا ؟ الا يجب ان نعترف بعجزنا ؟؟

هذا هو مجمل مذهب اللاأدريين الذين ارادوا كما قلنا ان يحسموا الخلاف القائم بين الواقعية المادية وبين المثالية ، فانحازوا الى المثالية من حيث لا يشعرون . لان الانسان لا يكون الا احداً اثنين ، فاما واقعياً ، واما مثالياً . فالذي لا يعترف بقيام الموجودات فعلاً خارج اذهاننا ، وبأن المعنويات كافة متولدة من الماديات ،

فهو مثالي دون شك ولو ادعى لنفسه غير هذه الصفة .

« هيوم » إمام اللاأدريين

يرى هذا الفيلسوف الانجليزي « ان مدارك الانسان تنحصر في سلسلة من التأثيرات والافكار . اما ما عدا ذلك فجهول لديه تماماً !! ... » كان « هوبز » « ولوك » يزعمان وفق ما ذكرنا آنفاً ان خواطر الانسان وأفكاره صور ورؤى لأصل مادي موجود فعلاً خارج ذهنه . وكان « بركلي » ينكر وجود العالم المادي الخارجي ، وينسب الى الخالق بثّ الخواطر والافكار في ذهن الانسان دون ان يكون لها اصل مادي خارج ذهنه . اما هيوم فلا يسلم بهذا الرأي او ذاك ، وقد عرف باسم الملحد لهذا السبب ... كان يرى ان هناك انفعالات لحواس الانسان تبتعث سلسلة من التأثيرات كاللذة والألم والالوان والاصوات والروائح وغيرها ، وتتولد الافكار البسيطة والمركبة من هذه التأثيرات التي تنقسم بدورها الى بسيطة ومركبة . ولا يستطيع الانسان كما قلنا ان يدرك بحال من الاحوال شيئاً او يستوثق من شيء عدا ذلك .

ولم يقف هيوم في تفكيره عند هذا الحد ، بل تجاوزه الى انكار السببية . وقد حاول ان يوضح رأيه في صلة الاحداث بعضها ببعض في قوله : « ان الاحداث وهي متولدة من تأثيراتنا الحسية تتوالى دون ان تبدو لنا رابطة تربط احداها بالآخرى ، فكل منها يبدو موصولاً بالآخر دون ان يكون متصلاً به فعلاً ... فمن الوهم ان نرى ضرورة وجود سبب لكل من تلك الاحداث . ان السبب ليس الا موضوعاً سابقاً على موضوع مستجد وثيق الصلة به الى درجة ان الفكرة المتولدة عن الاول تحدد في الذهن الفكرة المتولدة عن الثاني ، والتأثير الذي يحدثه الاول

يبحث في الذهن فكرة اوضح من الاولى فيبدو للذهن ان ظهور الاولى سبب ظهور الثانية !! .

وقد أخذ هيوم يتدرج في هذه الشطحات الذهنية حتى انتهى الى الرأي الآتي :
- ان ما يعرفه اي انسان في اية لحظة من اللحظات مقصور على ما يعتمل به من تأثيرات وافكار في تلك اللحظة بالذات . والعادة والتجربة الحاسية هما اللتان تحملاننا على تصور وجود الأشياء المادية المحيطة بنا والناس الذين نراهم . في حين انه لا يوجد دليل عقلي أو دليل تجريبي على وجود الكائنات المادية خارج الذهن ...

يبدو من هذا ان اوهام هيوم لم تحمله على التسليم بنظرية « انا وحدي » السابقة الذكر فحسب ، ولكنها حملته ايضاً على الذهاب الى ما هو ابعد من ذلك ، اي الى التسليم بوحداية الفرد منحصراً في اللحظة القائمة . ونحن لن نهتدي الى تعليق على فلسفته هذه اوفق من تعليقه هو نفسه عليها اذ قال : « كثيراً ما اشعر بالخوف والارتباك من هذه الوحدة الموحشة التي عانيت وطأتها في غيابات عالم فلسفتي . ولكن الطبيعة لا تلبث ان تتكفل بي ، وتعيني على وحشتي حين يعجز العقل عن اختراق الضباب المتكاثف حوله ، فتبدّد ما ينتابني من كآبة ومن هذيان فلسفيّ ، وتشفييني اما بتخفيف حدّة ذلك الاتجاه العقليّ واما بابداع انفعالات حسية لذينة تنسيني تلك الرؤى الوهمية . فقد اتناول الطعام ، واشغل نفسي بالرياضة ، واتحدث الى اصدقائي ، وأسّر بمعاشرتهم . فاذا عدت الى مكتبي وكتبي بعد الاستمتاع ساعاتٍ بمثل هذه المتع ، واسترسلت ثانية في مغامراتي الفلسفية وجدها تصل الى حدّ من الجمود والبرودة والسخافة يحول بيني وبين القدرة على المضيّ فيها !! ... » .

الفيلسوف الالماني « كانت »

رأى ذلك الفيلسوف جمهرة زملائه التجريبيين يجمعون على ان حواسنا هي الوسائل الوحيدة للمعرفة . فراح يسائل نفسه عما اذا كانت هذا القول صحيحاً . وراح ذهنه ينقّب هنا وهناك عن وسائل اخرى لها ، حتى اهتدى - اي ذهنه - الى نفسه . فقرر ان الذهن او العقل هو كذلك وسيلة للمعرفة . بل مصدر خلاق لها . فهو معمل مؤسس على نواميس خاصة تمكنه من تكييف الحقائق على النحو الذي نراه .

اهتدى « كانت » الى هذا الاتجاه الفكري على ضوء فلسفة « هيوم » فقد اخذ من إنكار ذلك الفيلسوف للسببية ، ولأية علاقة تربط الاحداث التي تقع لنا بعضها ببعض ، مفتاحاً لمذهبه الذي وضعه على اساس المعادلة الآتية : « اذا كنا لا نجد دليلاً تجريبياً على وجود مثل تلك السببية او الرابطة بين الاحداث التي تقع كل منها منفردة قائمة بذاتها ، ونعلم مع ذلك علم اليقين بوجود سبب لكل حادث فمن اين جاءنا هذا العلم ؟ ! ... ألا يدل ذلك على وجود مصدر آخر لعلمنا ومعرفتنا غير التجريب الحاسي ؟ ! ... » وهكذا وصل « كانت » الى محور فلسفته وهو ان العقل البشري مصدر لمعارفنا كالتجربة الحاسية سواء بسواء ... يرى هذا الفيلسوف ان عقلنا لا بد مشتمل في الاصل على قواعد واصول يبدو تسلسل الاحداث منظماً وفق مقتضاها ... اي ان عقلنا يدخل الدنيا العامة في دنياه ، وينسقها وفق النواميس المفروسة فيه اصلاً ، ومن بين هذه النواميس « ان لكل حادث سبباً » ، فيبدو واقع الامر هكذا دون ان يكون كذلك فعلاً .

وقد عرفنا مما سبق ذكره ان « هيوم » لا يرى العقل البشري الا عاكساً

لمجموعة من التأثيرات والافكار التي تمدّه بها الانفعالات الحاسية . اما « كانت » فيخالفه في ذلك كما رأينا ، ويزعم ان العقل لا يدرك الاحداث وفق انفعال الحواس فقط ، ولكنه يدركها كذلك وفق تكوينه وما اشتمل عليه من وجهات نظر مفطورة معه . وعلى ذلك نجد انه خرج على من ذكرناهم من الفلاسفة التجريبيين الذين يصرون على ان التجريب الحاسي مصدر المعرفة الوحيد ، فنسب الى العقل قدرة مبدعة تخلق شيئاً من لا شيء وتغير الواقع وفق تكوينها ... ان دنيا الناس في نظر ذلك الفيلسوف تختلف عن دنيا الواقع التي لا يستطيع احد ان يعرف عنها شيئاً . بل اننا لا نستطيع ان نعرف شيئاً حتى عن انفعالاتنا الحاسية واسبابها وعن القوانين العقلية ونشأتها وعن حرية الارادة والقدر وما وراء الطبيعة ... كل هذه المجاهل ستظل ابداً في عالم الغيبيات ، وسيظل العلم عاجزاً عن غزو ميدانها وكشف معمياتها لأنها خارجة عن نطاق سلطانه . ان العلم في رأي « كانت » لا يستطيع ان يتناول الا الدنيا المصورة في العقول البشرية وفق قواميس تلك العقول ... اما ما عدا ذلك فيدخل في نطاق العقائد . هذا الرأي أشبه بما قاله كل من بركلي وهيوم عن مهمة العلم: فهما يريان كذلك ان المعلم لا يتناول الا المعارف الموجودة في اذهانتنا اما ما عدا ذلك فلا يستطيع العلم ان يصل الى كنهه .

واذا كانت فلسفة كل من بركلي وهيوم تنسم بالصراحة والبرء من التناقض على ضلالها فان فلسفة « كانت » معقدة متناقضة، فهي تحاول ان تجمع بين المذهب التجريبي والمذهب العقلي المنطقي ، كما تحاول ان تجمع ما بين الواقعية والمثالية .. انها تعترف بوجود العلم المادي الخارجي ، فهي على هذا الاساس مادية ، ولكنها تؤكد جهمنا التام بكنهه فتجنح بذلك الى المثالية. وهي تنسب المعرفة الى التجريب الحاسي

وفق ما يقرره التجريبيون ولكنها تعود فتنسب الى العقل البشري القدرة الخالقة ،
وتقول ان دنياه مجرد ظواهر مجهولة الأصل فترتد بذلك الى المثالية !... وهذا
التذبذب والتلون جعلها عرضة لحملات النقد المسددة اليها من جانب كل من المثاليين
والواقعيين على السواء .

خطط المثالية ومراميها

ظل الفلاسفة المثاليون متأثرين حتى اليوم بمذهب بركلي العتيق . فهم لا
يؤمنون بوجود هذا العالم المادي المحيط بنا او يشكون في وجوده . وهم يختلفون على
التفاصيل رغم اتفاقهم على الجوهر ، ويتكرر كل منهم اسماء جديدة طريفة يتوهم الناس
انها تدل على حقائق مبتكرة ، في حين ان اختلاف مذاهبهم انما يتناول الاسماء دون
المسميات . انهم يجمعون على انكار تلك الحقيقة الطبيعية التي تقول ان المعنويات
كافة مستمدة من الماديات . فالنفس البشرية عندهم وكذلك العقل البشري يشتملان
على خواطر وافكار وغرائز وصفات . وملكات غير مستمدة من علم الواقع ، ولكنها
وليدة انفعالات او هي مغروسة في النفس والعقل اصلاً ، وناشئة معهما منذ نشأ وهذه
المعنويات هي التي تقود الانسان وتحدد اتجاهاته وتصرفاته وتخلق له عالمه وتكيف
حكمه عليه ...

ولا يزال الفلاسفة المثاليون ينكرون الحقائق المادية الواقعية رغم ظهورها وثبوتها ،
ويلجأون الى افتراض الفروض الغيبية ثم يحاولون التدليل على صحتها ، وهي اولى
من الماديات بالانكار ، لانها لا تقوم الا على أضاليل الاوهام .

قلنا فيما سبق ان العلم في تقدمه المستمر يقوض اركان المثالية شيئاً فشيئاً ، وهو في
طريق القضاء عليها قضاء مبرماً بكشف غوامض الكون وتفسير ظواهره تفسيراً

صحيحاً مؤيداً بالأدلة العلمية التي لا تنقض . ولذلك هبّ فلاسفة المثالية يدرأون عنها خطر العلم بزعمهم انه لا يتناول الا افكار الانسان وتجارب حواسه . فكشوف العلم لا تتعدى في نظرهم هذا النطاق . اما الاسرار والمعميات والغيبيات فستظل لا تئذ بالعالم المجهول ، مستعصية على كل من يحاول التغلغل الى كنهها ... ومن الواضح ان المثالية تحاول بهذا الزعم البادي السخف ان تجرد العلم من قدرته على تبديد عالم الوهم الذي لا تعيش المثالية الا تحت استار دياجيرها ، وان تعوقه عن اداء رسالته . فهي على تقيض الواقعية التي تؤمن بالعلم وتبني فلسفتها على أسسه ، وتساعده على النماء واستكمال قوته حتى يدكّ عمد المثالية بدكّ سلطان الجهل وثلّ عرشه ... ان المثالية تؤدي نفس المهمة التي اضطلعت بها الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى ...

تقدّم لك الفلسفة المثالية فروضاً تزعم انها حقائق مفروغ من صحتها وتحاول ان تفرضها عليك ، ولكن الواقعية تقرر دوام تطوّر كل ما في الوجود من ماديّات ومعنويّات . وما دام كل ما في الوجود لا يثبت على حال ، فيستحيل ان تكون هناك حقيقة بالمعنى المثالي . فالذي يبدو لك اليوم حقيقة واقعة يتطور ويتغيّر ويبدو لك غداً حقيقة اخرى . ونحن نستطيع ان نستخلص مما تقدم نتيجة بالغة الاهمية ، هي ان الفلسفة الواقعية لا تقدم لك حقائق تطالبك باعتناقها ، ولكنها تطلعك على نوااميس التطور والمنهج الذي تستطيع ان تلاحق به الحقائق المتطورة ، وتدرّكها في مراحلها المختلفة ... ان الفلسفة الواقعية منهج عملي فلسفي يعينك على فهم تطوّر الوجود المادي والمعنوي ، ولكنه لا يقدم حقائق يعدها لك ويحاول كما قلنا ان يفرضها عليك فرضاً . فالواقعية مذهب ثوري يحلّو لك الحقائق المتطورة مبرأة من

شواذب الابطال ، فيستثير الناس بهديه ، ويفطنون الى ما ضاع عليهم من حق ، وما حاق بهم من غبن ، وعندئذ يهب المغبونون مطالبين بحقوقهم كاملة ... اما المثالية فتدأب على التفريق بين الفكر والواقع المادي ، اي بين النظرية والتطبيق حتى يظل الفكر حبيساً في ابراج الوهم ، مجرداً من كل حول فعّال ، فيفتوّض بذلك اهم اساس من اساس التقدم الحضاري الشعبي السليم الذي يتهدد النظام الاستغلالي الاستعماري بالزوال .

وكثيراً ما يحاول بعض فلاسفة المثالية ان يظهروا بمظهر المهتم بالواقع المادي غير الغافل عن اهميته . ولكنهم ينزعون في ذلك نزعة ميتافيزيقية سيتناولها شرحنا في الفصل التالي .

شطط الفلسفة التجريبية

رأينا مما سبق ان الفلاسفة التجريبيين الذين تتبعنا اتجاهاتهم الفلسفية يجمعون على اننا لا ندرك الكون المحيط بنا الا بانفعال حواسنا ، وان الصور الماثلة في اذهاننا عنه وليدة ذلك الانفعال . واذا استثنينا لوك وهوبز الذين لم ينكروا وجود عالم مادي خارج اذهاننا ينعكس عليها بواسطة حواسنا وفقاً للتفصيل الذي ذكرناه في حينه ، فان باقي هؤلاء الفلاسفة التجريبيين ينكرون كما قلنا قيام صلة بين الكون القائم في ذهن كل منا ، وبين العالم المادي الذي ينكر بعضهم وجوده ؛ وينفض بعضهم الآخر يده من هذا المشكل معتصماً بالمذهب القائل : « من قال لا ادري فقد أفتى » .

ولعلنا نزيد فلسفتهم هذه ايضاحاً اذا قلنا انهم يحاولون ادراك عالم الواقع على اساس انه نظير عالم الاحلام . فالحالم يدرك في حلمه عالماً زائفاً بالاحداث دون ان

يكون لهذا العالم وجود مادي . فإذا كان انفعال حواس الحالم اثناء نومه هو الذي يخلق له هذه الوقائع الوهمية فلا بد كذلك ان يخلق له انفعال حواسه وهو يقظان عالم اليقظة ... هذا هو منطقهم ولو انهم لم يصارحونا به كل الصراحة . وهو اشبه بأن يتوهم واهم ان جسم الانسان غير مادي لان ظله كذلك ...

انما لم نذكر ما تقدم الا لنزيد فلسفة التجريبيين تقريباً الى الازهان ، فهي وليدة احلام اليقظة ولذلك اختلط على اصحابها عالم الواقع بعالم الاحلام . ويكفيها تبريراً لما ذهبنا اليه ان نطلب من القارئ رجوعه الى ما كتبناه عن « هيوم » وما ذكره هو نفسه عن مغامراته الفاسفية .

ان كل فيلسوف من هؤلاء يخلو الى نفسه ويرفع رأسه الى أعلى ويشخص ببصره ويطلق العنان لأوهامه ، فيحسب أنه يتغلغل الى كنه الوجود بفكره المجرد ، في حين أن كنه الوجود لا يتكشف كما قلنا الا باختبار موجوداته ووقائعه اختباراً علمياً ، والاستعانة بما عرف من كشوف مختلف العلوم من طبيعية وكيمائية ورياضية وتاريخية واجتماعية وعضوية وغيرها ولذلك قلنا في اول هذا الكتاب إن كل علم يحاول كشف الحقائق في ميدان اختصاصه . والفلسفة تحاول تفسير امور السكون والناس من الناحية العامة مستعينة بهذه العلوم كافة . ولما كانت المثالية تقوم على التفكير المجرد ، فلا عجب في مناهضة المثاليين لاتجاه الفلسفة وجهة علمية واقعية .

ومما يستند اليه الفلاسفة التجريبيون لتبرير دعاواهم قولهم ان كل إنسان يرى العالم المادي على نحو مغاير لما يراه غيره ، فلو كان لهذا العالم المادي وجود موضوعي خارج ذهن الناس لرآه جميعهم على نحو واحد . . . ولا تأويل لهذا الاختلاف في زعم اولئك الفلاسفة إلا أن إدراك العالم المادي الخارجي ذاتي لا موضوعي . أي

أن ذهننا هو الذي يبتدعه بواسطة انفعال حواسنا . ويحضرنى الآن بيت من الشعر
عبّر ناظمه عن مقصود المثاليين تعبيراً يقرب الى الاذهان وجهة نظرهم .. قال :
وما كنت فتاناً ولكن فتنني بما صنعت عيني من الحسن أعجب .

ان فردية أولئك الفلاسفة هي التي صرفتهم عن الواقع الظاهر الى الانحراف
والتخبط في حبائل هذه الأوهام . فلو أداروا أعينهم فيما حولهم ، واختبروا الافكار
العامة والخاصة اختباراً واقعياً لما صعب عليهم ان يدركوا أن علم الانسان بالكون
ومعارفه عنه ليست خاصة به وحده ، ولكنها مشتركة بينه وبين سائر الناس . فهو
لم يبتدعها بفكره ، ولم تخلقها له حواسه ، بل هي صرح شيدته الانسانية المتعاقبة
المتعاونة في تحريرها عن الحقائق إن الناس جميعاً ما عدا أولئك الفلاسفة
التجريبيين يدركون السكون المادي إدراكاً مشتركاً غير متباين . فالموجودات المادية
تبدو لكل فرد في الوجود كما تبدو لغيره . واذا اختلفت الأذواق او اختلف تقدير
الأفراد للأشياء وحكمهم عليها نظراً لاختلاف ثقافتهم وتفاوت درجاتها ، فهذا لا
يعني اختلافهم على إدراكها وفهم كنهها وطبيعتها الظاهرة . وهذا دليل على موضوعيتها
لا يحدده الا أولئك المغرضون .

ومن الادلة المفحمة كذلك على صحة ما نقول به ان المقدمات المعروفة تؤدي دائماً
الى النتائج المتوقعة ، وأن الاستنباط المبني على التجربة ومقارنة الشيء بأكثر عدد
مستطاع من نظائره تصيب ولا تخيب ، وأن النواميس الطبيعية تسير على وتيرة واحدة
وعلى نظام لا يمتثل . فلو كان انفعال حواسنا هو الذي يبتعث في أذهاننا كل هذه
الوقائع والنتائج دون ان يكون لها وجود خارج الاذهان لاختلطت الأمور ،
وتضاربت الأحداث ، واختل نظامها واطرادها كما يحدث في عالم الاحلام .

ومن اخطاء الفلاسفة التجريبيين التي زادتهم إمعاناً في الضلال اصرارهم على ان الحواس والفكر هما مصدر المعرفة الوحيدان في حين أن العمل والانتاج هما أخصب مصادر المعرفة . فنحن نعمل فيزيدنا عملنا خبرة ، وننتج فيمدنا إنتاجنا بالأفكار والمعارف ، ثم يعيننا ازدياد خبرتنا ومعرفتنا على توسيع دائرة عملنا وتنويع إنتاجنا واكثاره ، وهذا يوسع بدوره دائرة خبرتنا ومعرفتنا . وهكذا ينمو عملنا ، ويكثر نتاجنا ، ويتحسن نوعه ، وتنمو مداركنا ومعارفنا على التوالي متسعة على شكل حلزوني . ومما يزيدنا وثوقاً من موضوعية العالم المادي الخارجي نجاح عمليات إنتاجنا من ناحية ، واستعمال منتجاتنا واستهلاكها من ناحية أخرى . فالنجاح في الانتاج دليل ملموس على موضوعية معارفنا التي تسفر عن النتائج المتوقعة . واستعمال المنتجات واستهلاكها دليل طبيعي صارخ على وجودها المادي .

وإذا اضعنا الى ما تقدم ان التجارب العلمية المستعينة بأدوات الاختبار المادية تزيدنا على الدوام تثبتاً من صحة معرفتنا بالكون ، واستيثاقاً من صدق إدراكنا له ، الا اذا استثنينا اخطاء قليلة ترتكبها حواسنا في ظروف استثنائية فيسارع العلم الى تصحيح تلك الأخطاء ، اذا اضعنا هذا التأييد العلمي لما ذكرناه آنفاً ، نجد ان الفلسفة المثالية لم تعد مدينة ببقائها الالاعقلية الرجعية التي لم ينجح العلم في تحويلها الى اليوم .

ولقد اثبت علم التاريخ الطبيعي ان حواس الكائنات الحية ومن بينها الانسان انبثقت فيها ، وتفتحت ونمت على مرور الزمان لتعينها على ادراك العالم المادي المحيط بها والاتصال به ، والافادة منه ، ولكن الفلسفة التجريبية المثالية تقلب هذه الواقعة الثابتة علمياً فتزعم ان تجارب حواسنا هي وحدها حقائق الحياة ،

وان هذه الحواس هي التي تخلق لنا عالمنا القائم في اذهاننا دون ان يكون له وجود خارجها .

ولعلنا اثرنا دهشة بعض القراء بهذا العناء الذي نتجشمه في سبيل دحض الفلسفة المثالية التجريبية التي تبدو له خرافة متداعية من تلقاء نفسها وفي غير حاجة لدحضها . ولكن النجاح الذي تصادفه بين قراء العالم الرجعي المحتفي بها ، والاضاليل الخادعة التي تولدت عنها ، وسيطرت على عقول السذج من أذعياء المعرفة ، لما يبرر العناء الذي نتجشمه في سبيل تنوير الخدوعين الذين يحاولون الخلاص من غيابة الجهل المضروبة حولهم ، والتمكن من التفريق بين الضلالة والهدى .

فلسفة (برتراند راسل)

ظلت الفلسفة في انجلترا تتذبذب بين مذاهب المثالية المختلفة التي تنحدر جميعها الى غاية واحدة . ثم هبَّت عليها روائع المثالية الالمانية التي حمل كل من (كانت) و (ماخ) لواءها ، فزادتها هذه النفحات الجديدة قدرة على الاحتفاظ بمكانتها بين ظهري الفكر الانجليزي الرجعي . ولم يطرأ عليها تغيير كبير حتى ظهر (برتراند راسل) في اوائل هذا القرن مندداً بضلال تلك الفلسفة ، مفاخراً بأنه الفيصل بين عهد الظلام وعهد النور ... فهو يزعم انه اهتدى الى نهج للفلسفة كفيل بوضع الامور في نصابها ، والقضاء على الخلاف العتيق بين المذاهب الفلسفية ، وقطع السبيل على كل مجادل مكابر !! . في حين انه لم يأت في الواقع بمجديد ، بل جاء بثبت من الافكار المتضاربة المستقاة من المذاهب الفلسفية الغابرة .

استطاع هذا الفيلسوف ان يكون مدرسة ازدهرت وهي في عنفوانها ، ولكنها اليوم آخذة في الانحلال والتقلص ، شأنها في ذلك شأن كل مدرسة تناهض الواقعية .

حاول برتراند راسل ان يحسم النزاع المستحكم بين المذاهب الفلسفية بتحويل الفلسفة عن مجراها ، وتبديل طبيعة مهمتها ، فهو يزعم ان الفلسفة كانت تسير قبل بزوغ نجمه في طريق خاطئة ، وتكافح في ميدان غير ميدانها ، وتحاول حل معضلات لا تدخل في دائرة اختصاصها !!...

كانت الفلسفة التقليدية في نظره تفترض وجود موهبة جدلية مفكرة مغروسة بالقطرة في ذهن الانسان ، تنقّب عما لا يزال خافياً من حقائق الوجود والكائنات وتحاول كشف النقاب عن كنهه ، فتتجاوز الظواهر الخادعة متغلغلة الى الاغوار ، مدّلة على ان الحقائق المتخفية وراء الظواهر مختلفة عما يبدو للناس ، او عما يدركونه ... ولكن هذه المهمة التي اضطلع بها الفلاسفة منذ وجد التفكير الفلسفي ليست مهمة الفلسفة بحال من الاحوال !!...

ينعى برتراند راسل على الفلسفة ذلك الاتجاه الخاطئ في زعمه ، ويقول إنه ، اي ذلك الاتجاه ، هو الذي اضلها عن الاتجاه العلمي الصحيح ، او اعجزها عن اتخاذ وضع علمي سليم .

فهي لا تستطيع ، حسب رأيه ، ان تكشف عن الواقع: سواء أ كان كشفها عن عنكليات من قضايا الكون او عن اجزاء منها ، ولكن العلم هو الذي يتكفل بذلك . ان العلم هو الذي يستطيع ، بالتحقيق العلمي ، والتحليل المحلي ، والتجربة العملية ان يتوصل الى معرفة حقيقية الاشياء . اما الموهبة الفكرية الجدلية فعاجزة عن تحقيق هذه الغاية ... وما دام ذلك العجز يعوق الفلسفة عن الوصول الى كنهه الاشياء ، واستنباط الحقائق العامة ، فما هي مهمة الفلسفة في نظر برتراند راسل ؟؟ يقول ذلك الفيلسوف ان مهمة الفلسفة تنحصر في وضع المسائل والقضايا التي

ندرس بفهمنا او بوسائلنا العلمية في ميزان التحليل المنطقي. اي ان الفلسفة ليست الا تحليلاً منطقياً يزن النتائج التي نتوصل اليها بادراكنا او بحواسنا او بوسائلنا العلمية ، ويظهر لنا صحتها من زيفها، فينقذنا من اخطاء العلم، ومن ضلالات التفكير الشاطح.. وقد يبدو لنا من اول وهلة ان فلسفة برتراند راسل هذه تتجه اتجاهاً واقعياً سليماً. اذ اخذت عن الفلسفة الواقعية تقديرها للعلم ، واعتمادها عليه في البحث عن كنه الوقائع والحقائق . الا أنها ، اي فلسفة راسل ، لا تثبت للتمحيص الذي لا يلبث ان يحملنا على تغيير رأينا فيها . إنها تختلف عن المثالية في الشكل دون الجوهر ، فهي اذ تمنح العلم تقديرها مجارية في ذلك الفلسفة الواقعية ، تعود فتسلبه ذلك التقدير من ناحية اخرى ، لانها تخضعه لسيطرة المنطق الفلسفي ، وتضع نتائجه تحت رحمة ذلك المنطق ...

يصم المثاليون العلم بالعجز عن استكناه حقيقة الوجود ، اما برتراند راسل فيعترف للعلم بالقدره على السعي في تلك السبيل ، ولكنه يشك في صحة النتائج التي يصل اليها ، ويجعل من المنطق حكماً يقضي للعلم او عليه ... اما الواقعية فتري في التعاون الوثيق بين الفلسفة ومختلف العلوم ما يكفل كشف الحقائق الواقعية ، وتخليصها مما يكتنفها من باطل .

وتظهر مثالية برتراند راسل في وضوح حين تقيس فلسفته بالقاعدة التي ذكرناها في مستهل هذا الكتاب ، فقد قلنا هناك اننا لا نستطيع ان نجعل من فكرنا ميزاناً نزن به الواقع ، وتبين نصيبه من الصواب ، ولكن الواقع هو الميزان الذي نزن به أفكارنا ، وتبين مقدار قربها او بعدها عن الصواب . ان الواقع متى اتضح بالتجربة العلمية ، هو الحكم الذي تثبتت على ضوءه من صحة فكرنا ومنطقنا .

اما برتراند راسل فيعكس الآية كما هو واضح ، فهو لا يعترف بصحة الواقع الا اذا اقرها التفكير المنطقي . ان الواقعية تحاول الوصول الى الحقائق عن طريق التطبيق الواقعي ، اما راسل فلا يؤمن بها الا اذا اقرها المنطق المجرد ، ونهجه هذا هو المثالية بعينها ، على الرغم من انه يدعي مناصرة الواقعية .

ومن المفيد ان ننقل هنا لذلك الفيلسوف بعض فقرات من اقواله التي تقطع بانحرافه عن الواقعية التي يتظاهر باعتناقها . فهو يسلم بادىء ذي بدء « بأن العلم هو الوسيلة المثلى لكشف حقيقة الموجودات والاحداث ، وهو الذي يستنبط بعض القوانين الطبيعية التي تربط ما بين مختلف الاحداث ، فيستطيع ان يتنبأ في حالات توفيقه بما سيقع مستقبلاً ، ويستطيع بالخبرة العلمية ان ينتج وسائل للراحة والرفاهية والنعيم » ... هكذا يحاول راسل ان يجرّد العلم من قيمته الكبرى ، وينكر عليه اثره في تطوير المعارف الانسانية ، وتطوير المعنويات ، وتبديد الاوهام والانحرافات . وانحرافه يزداد وضوحاً اذ يقول ان الانتساج الصناعي الحديث هو الذي يضيف على العلم تلك الاهمية الكبرى التي يوليه الناس اياها .

يحاول ذلك الفيلسوف ان يقصر فضل العلم على انتاج السلع ، وعلى الكشف عن المادية ، فيقول في غير موارد « ان العلم قاصر ، فالفنون ومشاعر الحب والصدقة وما شاكلها من عناصر الحياة الثمينة فوق متناوله . » بل يذهب الى ابعد من ذلك فيقول « ان العلاقة مبتوتة بين العلم والقيم الانسانية . فالعلم لا يستطيع ان يدل على صحة قولك مثلاً « لأن تحب خير من ان تكره » . او قولك « الرحمة خير من القسوة » .. قد يرشدنا العلم الى وسائل تحقيق رغباتنا ، ولكنه يعجز عن اظهار افضلية رغبة من رغباتنا على الاخرى ... ولا يكتفي راسل بهذا الانحراف المثالي

ولكنه يتبادى فيه فيحدثنا عن سباحات الفكر في مجاهل الغيب ، يحدثنا عن تلك الشطحات الصوفية فيقول : « علينا ان نفرق بين المشاعر الغيبية الخفية ، وبين المعتقدات الخرافية المتعلقة بعالم الغيب ، فاذا استطعنا تحليل الأولى من شوائب الثانية ، فزنا من وراء المشاعر المبهمة بمتعة اسمى من متع التأمل في امور العالم المنظور !!... »

يبدو مما تقدم ان راسل يحاول كغيره من فلاسفة المثالية ان يقص اجنحة العلم ، ويضيّق الخناق عليه ، ويحصره في ميدان منعزل ليحول بينه وبين تقويض الفلسفة المثالية . فهو يرى كما قلنا إخضاعه لمعادلات المنطق الوضعي ، ورفض نتائجه العلمية التي يرفضها العقل المجرد ، وابعاده عن نطاق المعنويات ... وهو كذلك يحبذ ارتياد عوالم الغيب على جناح الخيال ، والاستسلام للمشاعر الخفية المبهمة . ان الفلسفة الواقعية تقوم على العلم ، وراسل يناصبها العدا ، ولذلك يضطر الى تجرييد العلم من اهم ميزاته ، رغم تظاهره بتقديره ، واعترافه بقدرته على كشف الحقائق ، وهكذا يوقعه تحييزه في تناقض لا معدى له عنه .

من الأمور التي يؤمن بها الواقعيون ، ويشاركونهم في الايمان بها كل بريء من الهوى ، ان معارف الانسان تقدمت بتقدم العلم ، وان معتقداته الوهمية والخرافية تبددت بازدهار العلم ، وان فكره اخذ ينمو ويتجه في الحكم على الاشياء والمعتقدات اتجاهاً علمياً ، وان الفلسفة تأثرت بتقدم العلم فاتجهت الى الواقعية ، وان تقدم العلم ادى الى الازدهار المادي ، وهذا اسفر بدوره عن تطور المعنويات ... فن ذا الذي ينكر ان معنويات العصر الحديث تختلف عن معنويات العصر الوسيط او القديم ؟؟ ان معنويات الأمم المتقدمة علمياً ومادياً تختلف عن معنويات الأمم المتخلفة في مضمار التقدم .

يقول راسل ان العلم لا يستطيع ان يثبت لك مثلاً ان الرحمة افضل من القسوة، فهل هذا صحيح؟ ألم نقل إن التفكير العلمي ارشدنا الى قاعدة ربط الأشياء بأصولها، وان تطبيق هذه القاعدة على المعنويات يدلنا على انها مرتبطة بأصول مادية، اي انها شرعت في الاصل لتحقيق مصالح الناس المادية؟ وعلى هذا الاساس نستطيع ان نزن كل اتجاه معنوي ونقدره تبعاً لأصله المادي ولظروفه وملابساته، ثم نحكم له او عليه ... هذا الى ان سؤال راسل ميتافيزيقي، او غير علمي، لانه سؤال مطلق (١). فليست هناك رحمة عامة او قسوة عامة، ولكن هناك وقائع معينة اولى ان تعالج بالرحمة او القسوة. وكل من كان قادر على إدراك تلك الوقائع بتحليلها تحليلاً اقرب الى الدقة العلمية، كان اختياره اصح، ومسلكه اصب ...

وقبل ان نختم هذا الفصل نذكر ان المثاليين يحملون في العصر الحاضر على العلم حملات من نوع جديد، فهم يصمونهم بمناهضة المثل الاخلاقية، فاختراع الآلة البخارية وما تلاه من اختراعات صناعية نشر في نظرهم المادية، وقضى على اسمى المثل الانسانية والقيم الاخلاقية. ثم إنه جهز الدول بأدوات الفتك الجبارة فشجعها على العدوان، فنضبت العواطف الانسانية، وتحول الميل من الرحمة والخير والسلم الى رغبة ملحة في الاعتداء والتخريب ... فكيف يستقيم هذا مع قول راسل إن العلم لا يؤثر بحال في عالم المعنويات ... اليس هذا التناقض في اقوالهم مستوقفاً للنظر؟! لا يدل على ان المثالية تحاول تحقير العلم بمختلف الوسائل حتى حين يوقعها تحتها في تناقض مكشوف؟؟ ان تطور العلم وما يسفر عنه من توفير

(١) يلاحظ ان راسل يهاجم الميتافيزيقية، والاحكام المطلقة، وقد افرد لذلك كتاباً خاصاً، وهو مع ذلك يتزلق مع التيار الميتافيزيقي غفلة منه او عمداً.

الانتاج ، ونشر العمران ينمي ولا شك الفكر ، ويرفع مستوى الذوق ، ويمد الناس بذخر من المعارف التي تولد فيهم رغبات جديدة يندفع العلم من جديد الى تحقيقها ، فيتطور ويتقدم وتتسع آفاقه ، ويعين على زيادة الانتاج وتحسنه ، وهكذا يفيد الانسان الخبرة والعلم من انتاجه . وكلما حسنه وهذا به تحسن معه وتهذب .
وفي غمار هذا التطور والتقدم يتطور مضمون المعنويات ، اذ تتبدل نظرة الناس اليها ، ويزدادون ايماناً بالمثل السامية ، لانهم يقفون على فوائدها العامة ، وقدرتها على تحقيق مصالحهم في حالة تطبيقها تطبيقاً صحيحاً عادلاً . . فهل يقال بعد ذلك إن العلم لا يؤثر في المعنويات ؟؟؟...

واذا كانت الكشوف العلمية أدت في بعض البلاد الى تكالب الناس على الاستئثار بتسخيرها واستثمارها طمعاً في جني الارباح الطائلة ، وفي تضخم اولئك الافراد على حساب سواد الناس ، واذا اضل هوس تكديس المال صواب اولئك المستغلين ، وانحرف بهم عن طريق المبادئ القويمة ، والمثل الشريفة ، ودفعهم ذلك الى استعمال المخترعات العلمية في حروبهم العدوانية ، فلا يجوز تحميل العلم مسؤولية هذه الانحرافات .

ونختتم هذا البحث بكلمة (لأبير باييه) نقلها الاستاذ عثمان امين الى العربية كما يلي « ولست ارى في هذه المعارضة التي يحاول بعض الناس توجيهها الى العلم الا آخر جهد تبذله القوى الرجعية لمكافحة قوى الحاضر . لقد نظرت السلطات الى فتوحات العلم التي لم تكن لتخطر من قبل على قلب بشر ، فأخذها الفزع . ولما رأت السهول وقد غزاها العلم ارادت على الاقل ان تحافظ على المرتفعات . وهذا شبيه بما تحدثنا عنه اغانينا في القرون الوسطى . - ما يكاد البارون يحس هجومنا حتى يتخلى عن المدينة ، ويعتصم بالقلعة . »

الفصل الرابع

منهج الفلسفة المثالية

خطوط عامة

لا شك أن النزعة المثالية الميتافيزيقية لا تزال متمكنة من عقول أساطين الفلسفة الغربية ، ومتمكنة بالتالي من عقول المفكرين وسواد الناس على الرغم من ازدهار العلم في تلك البلاد ، ومن النشاط المتزايد في ميادين العمل والانتاج . وقد يبدو هذا القول متناقضاً ، لا سيما واننا ذكرنا في أكثر من موضع من هذا الكتاب أن تقدم العلوم كقيل بتبديد الاتجاه الفكري المثالي ؛ وأن العالم أخذ يسير في طريق الواقعية منذ نادى بيسكون بضرورة إنزال الفلسفة والعلم من سبحات التأمل المجرد الى عالم الواقع ، ومنذ أخذ العلم والانتاج يتعاونان على التقدم حتى بلغا الشأو الذي بلغاه في العالم الغربي ... فكيف يقال بعد ذلك إن المذهب الواقعي هناك لم تتوطد أركانه؟؟..

الفكرة السائدة هي أن العالم الغربي أصبح واقعيّ النزعة . ولكن الحقيقة هي أن المثالية ما زالت تغلب على اتجاهه الفكريّ لأسباب يستطيع القارئ أن يقف عليها في فصول أخرى ، ويغنيننا عن التكرار . فالفلسفة الغربية الحديثة ، وعلى رأسها برجسون وراسل اضطرت تحت ضغط الأوضاع المادية الراهنة ، الى النظر للواقع الماديّ بعين الاعتبار ، والى محاولة التوفيق بين هذا النظر الجديد ، وبين

المثالية العتيقة، ولكن مثل هذه المحاولة عديمة الجدوى لأن أقل شائبة مثالية تشوب الواقعية تدخلها في نطاق الاتجاه المثالي، وتفسد مضمونها كل الافساد، فإدام هذان الفيلسوفان ومن ينهج نهجها لا يعترفون بالوجود الموضوعي كائناً خارج أذهانهم، ومصدراً أوحد لمعارفهم، فكل محاولة منهم للتوفيق بين الفلسفتين لا بد أن تبوء بالفشل.

أما الوعي العام الغربي فقد أخذ يدرك بعض جوانب الواقعية. فالرجل المثقف هناك لم يعد يسترشد برجال الكنيسة، أو بالمعتقدات القديمة البالية في تفسيره للواقع على غرار ما كان متبعاً في عصور الجهل المطبق، إذ أرغمه الاتجاه العملي والضرورات الاقتصادية على محاولة فهم الواقع حتى يضمن النجاح في معمة الصراع المستمر في سبيل الكسب. ولكنك ترى العقول مع ذلك لا تزال معرضة للضلال في مهب الالهواء المتضاربة. ولا يزال التفاؤل والتشاؤم يلعبان في كثير من الأحيان دورهما. وكثيراً ما يتحمس الناس لرأي شائع دون تمحيصه بتطبيقه على الواقع، بل كثيراً ما يتمجلون في إصدار أحكام ارتجالية يتشبثون بها متأثرين بفكرة سمعوها، أو بخبر اطلعوا عليه دون ان يتحرروا صدقه. وترى الخفق غالباً ما ينسب إخفاقه لسوء حظه ومعاكسة الاقدار له، بدل التنقيب عن الاخطاء التي أدت الى إخفاقه. وقد يحاول معالجة اخفاقه بطرق غير عملية، فتقلب واقعيته الناقصة الى مثالية خالصة.

لقد أصبح الأوروبي المثقف يدرك شيئاً من الصلة بين الأشياء بعضها وبعض، ويدرك في بعض الاحيان شيئاً من صلتها بظروفها الخاصة والعامة. ولكنه كثيراً ما يغفل عن ذلك لدى دراسته للواقع، كما انه يعجز في أكثر الاحيان عن إدراك الصلة بين المتناقضات. وهو يتشبث غالباً بالآمال حين تتأزم حاله، ويصيبه الاخفاق،

فيؤمل في تبدل تلك الحال مستقبلاً . وهذا يدل على ادراكه للتطور . وقد يسعى الى تغيير حاله بجهود عملية ، لكنه غالباً ما يغفل عن دراسة التطور المؤثر في تلك الحال من ناحيته الخاصة والعامة . أما في حالة النجاح فهو يغفل عن التطور ، ويخذه الحاضر الباهر فيحسب أن الدنيا ستظل مقبلة عليه .

إن فهم أمور الحياة على حقيقتها يحتاج الى إلمام تام بالنظرية الواقعية ، ومراعاة طويلة على تطبيقها ، ورياضة الفكر على عدم إغفال جانب من جوانبها . فمنهجها منهج مركب يحتاج انتهاجه في بادئ الامر الى يقظة عقلية . فهو أشبه بالعمل الفني الذي يصعب على غير المتمرن القيام به . ولكن المراتبة الفكرية والتطبيقية تيسره . وكل من يغفله في محاولة فهم ما يعرض له من أمور ، يعجز كل العجز عن التحرر من مثاليته .

وسنشير فيما يلي الى المنهج المثالي الذي لم يستطع الغرب الى الآن اخلاص من ضلالتة . ولعل القارئ يجد في التطبيقات التي سترد في السياق ما يؤيد قولنا .

اهمال دراسة الواقع او تجاهله .

رغم مناداة بعض فلاسفة المثالية ، وبعض أهل الرأي بضرورة تحرير الفكر لدى الحكم على الأشياء من الآراء والمعلومات السابقة الملقنة ، أو بضرورة امتحان تلك الآراء والمعلومات امتحاناً واقعياً قبل التسليم بصحتها ، نرى الناس يعمون غالباً في ذلك الخطأ الظاهر الذي نصح اولئك الفلاسفة ، والمفكرون بالتنبيه له ، فأن الحب والنفور والاكبار والاحتقار والخوف والاطمئنان وغير ذلك من ميول الناس ومشاعرهم المتولدة عن حكمهم على الماديات والمعنويات المحيطة بهم ، مبنية غالباً على واقعة عارضة ، او ظاهر خداع ، أو عبارة مدح او قدح سمعوها او قرأوها

عرضاً ، فأضافوها دون تحقق الى معتقداتهم الراسخة ، ومعلوماتهم التي لا يقبلون فيها مناقشة .

ويحضرني مثل أسوقه للقارىء لعله يلقي بعض الضوء على الموضوع . كنت أروي بيتاً من الشعر العربي القديم لصديق أديب . فاذا به يخطئني ، ويرمي البيت الذي أنشدته بالتحريف ، ويرويه على نحو آخر يدعي أنه الصحيح . وحين سألته عن مصدر علمه بذلك البيت قال « اني حفظته هكذا ! » . واعترف بأنه لا يتذكر المصدر . وأبى مع ذلك أن نرجع معاً الى مرجع موثوق به لنتأكد من صحة البيت ، وتبين أننا على صواب وأينا على خطأ زاعماً ان ما يعرفه هو الصحيح . وكان يعجب لتشككي في صحة علمه بذلك البيت ، لأن الذي وعاه ودخل في خزانة معلوماته لا بد أن يكون هو الصواب ولا تجوز المناقشة فيه !! .

وقد يعتنق الناس رأياً او عقيدة في ظرف من الظروف ، ويظنون معتنقين لها حتى بعد ان يتغير ذلك الظرف تغيراً ينسخ ذلك الرأي او تلك العقيدة . وممن شيء مادي او معنوي يعجبون به ، ويظنون على اعجابهم به رغم ما يطرأ عليه من تغير قمين بتغيير رأيهم فيه ؛ وقد يتوجسون خيفة من شيء ويظنون على توجسهم حتى حين يصبح ذلك الشيء غير ذي خطر او ضرر . وهناك مثال لذلك يجدر تدوينه هنا . فقد احدث ضرب الاسطول البريطاني للاسكندرية واحراقها عام ١٨٨٢ اثرأ عميقاً في نفوس المصريين ، حتى اصبح كل من ذلك الاسطول وحريق الاسكندرية مقترنين معاً في خيلتهم . واستغل الانجليز ذلك فدرجوا على ارسال قطع من اسطولهم في كل ازمة سياسية بينهم وبين المصريين ، الى الاسكندرية لارهابهم ، رغم انهم يحتلون بجيوشهم تلك الميناء وسائر البلاد المصرية ، وكان

هذا التكتيك لا يخيب ابداً ، فيسلم الساسة المصريون مذعنين بمطالب المعتدين الظالمة . في حين ان الظروف التي دأبت انجلترا على ان ترسل فيها اسطولها مهددة متوعدة كان يستحيل معها ان يقدم ذلك الاسطول على معاودة إحراق الميناء المصري ، او انزال ضرر جديد به لم يكن واقعاً من قبل .

ومن يشاء التوسع في التطبيق يجد مجالاً له في كل ما يحيط به من اشياء ، وما يقع له من احداث . وفيصل الخطأ من الصواب هو ان نبحث عن مصدر احكام الناس ، ونرى أهو الواقع المختبر حسب المنهج الواقعي ، أم الآراء والمعتقدات غير المدروسة ؟

عود الى المعنويات والماديات

قلنا في الفصل الاول ان المثاليين يعزلون معنويات الحياة عن مادياتها دون أن يفتنوا الى ان الأولى لا تنبع إلا من الثانية ، وأنها مرتبطة بها أوثق ارتباط . وقد أدى بهم احتفالهم بتلك المعنويات وحسبانها ، قائمة بذاتها ، ومستمدة قيمتها من سموها ونقائنها دون ما نظر الى ما يترتب عليها من مصلحة للناس ، الى اهمال دراسة الواقع دراسة شاملة ، ذلك الواقع الذي لم تتولد المعنويات منه الا لخدمته وتطهيره وتحسينه وتجميله . وقد ذكرنا في ذلك الفصل ان التفريق بينها وبين الواقع يفضل الانسان عن أن يدركها إدراكاً موضوعياً سليماً .

ولا بد أن يعترض الرجل الشريف ، المثالي التفكير على ما ذكرنا فيقول مثلاً « أنت تحقر الصدق حين تربطه بالمنفعة ، فأنا أتمسك به لذاته سواء أكان تمسكي به ضاراً او نافعاً » . ونحن نقره على هذا القول الذي لا يناقض وجهة نظرنا . ولكننا نقول له انه ينظر الى الامر ، كغيره من المثاليين ، نظرة ناقصة ، فهو يتدبره

من الناحية الفردية البحتة ، فالصدق لم يتبوا المرتبة المشرفة التي سما اليها لانه
يثبت مصلحة الفرد المتعارضة مع مصلحة المجموع ، ولكن لانه يفيد الفرد بحسبانه
واحداً من مجموع الناس ، اي انه يفيد المجموع حين يصبح عقيدة اجتماعية يتمسك
بها كل فرد ولو اضررت بمصلحته الشخصية في حالة من الحالات ، فاذا شذ اي فرد ،
وعبت بتلك العقيدة ، مؤثراً مصلحته على مصلحة المجموع ، فهو جدير ولا شك
بالازدراء .

وقد عرف عن الانجليز شدة حرصهم على الصدق والامانة في معاملاتهم رغم
انانيتهم وجشعهم المادي ، ذلك لانهم فطنوا ، بعد طول خبرتهم التجارية ، الى
الرابطه بين الامانة في الانتاج الصناعي والتجارة ، وبين توفير القسط الاكبر من
الربح . ولكن بعض هؤلاء الانجليز الذين عرفوا بالامانة في معاملاتهم التجارية ،
اداروا ظهورهم لها عندما انتظموا في سلك الجندي خلال الحربين الماضيتين ، وحين
تدفقت من بين اصابعهم ملايين الجنيهات لسد نفقات المعارك الدائرة . لقد عجزت
الرقابة عن صيانة ذلك المال المتدفق حينذاك من العبث ، فتيقظت انانية الذين
حافظوا على الامانة يوم كانت تضاعف ارباحهم ، واضلتهم تلك الانانية عن
ادراك الرابطه بين المعنويات والماديات . لم يفطنوا الى ان خيانتهم قد تؤدي الى
القضاء على مواطنيهم وعليهم انفسهم ، وامتدت ايديهم الى المال المنساب في خفية
عن الرقباء !... ثم ان حكومات اولئك التجار الشرفاء تنكبت هي ايضاً طريق
الاستقامة والشرف في سياستها الاستعمارية ، ولجأت مرغومة الى الكذب والخداع
والغدر وغير ذلك من الوان المثالب التي توسلت بها لتحقيق مآربها الاستعمارية
مدفوعة بعامل الطمع في تحقيق الارباح العاجلة ، متغافلة عن العواقب الوخيمة التي

ليس للاستعمار عنها محيص . على انها لم تترسم خطوات تجارها إلا لأف الاستعمار نفسه استغلال ونهب وسلب . فهو لا يستطيع ان يخفي خصائصه تحت مظاهر الصدق والامانة والعدالة ... وهكذا اوقعها التناقض الذي تنطوي عليه سياستها في الورطة المحتومة ، وعجلت مطامعها بالقذف بها سريعاً الى خاتمة نظامها الاستعماري .

واذا حولنا نظرنا الى الشرق لنقارن بين حاله وحال الغرب ، وجدنا ان ابنائه الذين هم اكثر احتفالا من الغربيين بالمثل الاخلاقية التي لم يفسدها مثل الصراع العنيف القائم حول المادة بين الامم الغربية ، يمنحون في معاملاتهم ، على عكس الآخرين ، الى الكذب والغش ، طمعاً في الربح العاجل الذي يغريهم بالتجاوز عن المثل المعنوية السامية ، تلك المثل التي عجزوا ، كما قلنا ، عن ادراك قيمتها الحقيقية حين عزلوها عن الواقع .

فصل كل شيء عن سواه

وفصل الاشياء بعضها عن بعض لا يقتصر عند المثاليين على هذه التفرقة بين المعنويات والماديات ، ولكن هؤلاء ينظرون الى كل جزئية في الوجود على ان لها كياناً مستقلاً عما حولها . وعلى انهم قد يرون بعضها يشبه بعضاً ، او يختلف عن بعض ، او يناقضه . فالقوة مثلاً صفة في نظرهم ، والشجاعة صفة اخرى منفصلة عنها رغم تشابهها ، والكرم والعفة صفتان مختلفتان ، والصحة والمرض حالتان متناقضتان .

والذي يدقق في هذه الصفات التي ذكرناها على سبيل المثال ، ويسمعي صلة كل منها بغيرها لا يغيب عنه تداخل بعضها في بعض ، وتولد بعضها من بعض ، كما لا تغيب عنه الوحدة الناتجة من هذا الترابط . والذي يسائلنا عن فائدة هذا القول نسوق له بعض الامثلة العملية ، فنشير مثلاً الى التفريق في مناهج الدراسة بين علم

التاريخ وعلم الجغرافيا ، فالتلاميذ يدرسون هذين العلمين ، كما نعرف جميعاً ، على ان لكل منهما كياناً خاصاً مستقلاً عن الآخر ، في حين اننا نستطيع ان نتبين ، بعد التمهيد ، ان العناصر الهامة في علم الجغرافيا متولدة من التطور التاريخي . فالتوسع الزراعي في بعض البلاد ، والازدهار الصناعي في بعضها الآخر ، وما يترتب عليه من قيام المدن الكبيرة ، وازدياد السكان ، وتضخم الثروات ، بل وقيام الممالك وتعدددها ، وغير ذلك من مواد الجغرافيا الحية ، هو وليد التطور التاريخي للبشرية . وكذلك الجيولوجيا الجغرافية تكتسب اهميتها بالرابطة التي تربطها بالتاريخ الطبيعي ، وتطور الاحياء ، وتقدم الصناعات البشرية . ثم اننا نجد من ناحية اخرى ان المؤثرات الجغرافية من مناخ وتربة وخيرات دفيئة في جوف الارض ، ومواقع جغرافية لبعض البلاد ، قد هيأت أسباباً ، أو أُناحت فرصاً للتاريخ في تطوره ، فأثرت في ذلك التطور سرعة أو بطئاً . فلو أننا فطننا الى تلك الصلة الوثيقة بين هذين العلمين ، ودرسناهما على أساسها ، لاستطعنا ان ندرك كلا منهما إدراكاً لا يتيح الدراسة التفصيلية الميتافيزيقية . واذا أردنا أن نوسع دائرة ما ذكرناه ، فاننا نحيل القارئ الى حديثنا السابق عن علوم قدماء المصريين وفنونهم . فقد قلنا إن نشاط قدماء المصريين الزراعي هو الذي وجههم الى دراسة الفلك لضبط مواعيد الزراعة ، والوقوف على مواسم الفيضان . ثم تفرعت عن ذلك علوم الحساب والهندسة والمقاييس وغيرها .

ولاشك أن هذه الختائق الواقعية لا تكشف لنا عن مدى ارتباط هذه العلوم بعضها ببعض فحسب ، ولكننا تكشف لنا عن مدى تولّد بعضها من بعض ، ووحدتها جميعاً ، مع ارتباطها الوثيق بالظروف والملابسات التي تهيأت لنشأتها وازدهارها .

الشوق شرق والغرب غوب

ومن العبارات التي أوحى بها المذهب المثالي ، فصادت هوى في نفوس الاستعماريين الذين وجدوها مؤيدة لسياستهم الاستغلالية ، عبارة « الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقي الاثنان أبداً » . لقد جرت هذه العبارة على ألسنة الغربيين في كل مناسبة ، وفي غير مناسبة ؛ وقد حاولوا صبّها في روع الشرقيين حتى أخذ بعض المتأثرين منهم بالغرب يردّدها ترديد المؤمن بصحتها . ولا أحسب أن مدلولها يخفى على أحد ، فهي تقرّر تميز الغرب عن الشرق فكراً وموهبة وقدرة ، وتوهم أن أهله من طينة غير طينة أهل الشرق . مغفلة بذلك الحقائق التاريخية الدالة على تنقل العلوم والمعارف بين الشرق والغرب على مرّ الدهور ، وإفادتها من جهود الشرقيين والغربيين على السواء . وإذا كان الشرق لم يلاحق الغرب في ميدان النهضة الصناعية الحديثة ، وما ترتب عليها من تطور فكري سريع نظراً للظروف التي أوقعت في برائن الاستعمار والاستغلال ، وعاقته فترة طويلة عن عبور العهد الزراعي الى العهد الصناعي ، فانه آخذ اليوم في ترميم طريق النهضة الحقة للانضمام الى ركب الحضارة العام ... ان السياسة الغربية الاستغلالية تحاول تبرير خططها وغاياتها ، وتأكيد حقّها في السيادة والسلطان ، بتلك التفرقة الميثافيزيقية بين الشرق والغرب ، متجاهلة الروابط التي تربط بين ثقافتيهما ، متعللة بالفوارق الموقوتة بظروف العصر وملابساته . لقد وجدت في النظرة الميثافيزيقية الى الأشياء مادة تغذي دعاياتها ، وتدعم نفوذها . ولكن هذه النظرة الخاطئة ذاتها هي التي ستعجل بتقويض صرحها الاستعماري .

الاخلاق والوضع الاقتصادي

يعزل المنهج المثالي الأخلاق عن الظروف الاقتصادية التي تكيّفها، ويخالها كألوف عاداته، قائمة بذاتها، أي يخالها صفات وطباعاً خاصة بالافراد يرثونها عن السلف، أو يغرسها التهذيب، أو تسدد المواعظ خطاها. وقد اوضحنا في مواضع اخرى من هذا الكتاب ارتباط المثل الاخلاقية بواقع الحياة، وكيف انها لم تقرر وتتولد الا لخدمة ذلك الواقع وتطويره وتجميله. وسنتناول هنا تأثير الواقع المادي فيها، فهي اذا كانت تستهدف إرساء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية على قواعد تهيم لها الاستقرار والازدهار، فإن تلك الأوضاع، أي وسائل الانتاج، والقوى المنتجة، وقواعد توزيع الانتاج، والعلاقة بين المنتجين وبين ملاك وسائل الانتاج، إن طبيعة تلك الأوضاع وما اشتملت عليه من متناقضات، هي العامل الاساسي في تكييف الاخلاق. ويبدو ان مدلول هذا القول لا يتضح الا بتطبيقه على الواقع. وسنختار نظام الاقطاع الزراعي ميداناً لذلك التطبيق. فوسائل الانتاج في ذلك الميدان هي الارض الزراعية وما اشتملت عليه من آلات وادوات، والقوى المنتجة هي الفلاحون، وقواعد توزيع الانتاج هي التي يحددها النظام الاقتصادي المتبع، والعلاقة بين المنتجين وملاك وسائل الانتاج واضحة الدلالة.

وتبين علاقة الاخلاق بوسائل الانتاج الزراعي، أي بالارض الزراعية، اذا حاولنا ان نتعرف على مقومات الريفيين الاخلاقية في مختلف الأوضاع الاقتصادية. فاذا كانت الارض موزعة على الفلاحين بحيث يملك كل منهم نصيبه، ويقوم بفلاحته على حسابه، ويستولي على انتاجه، نمت بينهم النزعة الفردية، وقامت العلاقة بين كل منهم وجيرانه على أساس المنافسة المتولدة من الغيرة والحسد. فنمت

فيهم طباع وصفات مستمدة من هذا الوضع . واذا تعاون أولئك الزراع ذوو الملكيات الصغيرة على فلاحه اراضيهم ، منتظمين في سلك جمعيات زراعية تعاونية ، اختلفت صفاتهم وطبائعهم وفقاً لهذا الوضع التعاوني الجديد . اما نظام الاقطاع ، او نظام الملكيات الزراعية الكبيرة غير المحدودة او المقيدة ، فهو يقسم اصحاب الاراضي وفالحيتها الى سادة وخدم . وقد وضع لنا ذلك كل الوضوح في مصر عندما تفردت قلة من كبار الملاك ، قبل صدور قانون الاصلاح الزراعي ، بملكية الجانب الاكبر من اراضي مصر الزراعية . كان هؤلاء الملاك المحظوظون ينعمون في ضياعهم بسلطان مطلق . كانوا يتصرفون في امور ضياعهم الواسعة تصرف الملوك لا تصرف الملاك . فلم تكن الاراضي الزراعية وحدها ملك ايديهم ، يتصرفون فيها كما يشاءون ، بل ومن عليها كذلك .

ولما كانت ظروف الفلاح السيئة في ظل ذلك النظام التعسفي ، تربطه بأرضه ، وتسد في وجهه سبيل الخلاص مما هو فيه ، اي تفرض عليه الالتصاق بالأرض التي يفلحها ، فقد استغل اصحاب الأراضي ضيق حيلته ، وعوزة وعجزه ، فاستعبدوه كما استعبدوا افراد أسرته ، واستغلوه اسوأ استغلال ، فسخروهم في فلاحه الارض من شروق الشمس حتى غروبها دون ان يجودوا عليهم بشيء من خيرات كدّهم وجهدهم ، اللهم الا كسرة العيش التي تكاد تقيم اودهم ، والخارقة التي تكاد تستر اجسادهم العانية الوانية ... على انه لم تسخ ايدي الملاك الكرماء بتلك الكسرة ، وتلك الخارقة ، الا للاحتفاظ برمق خدمهم حتى يواصلوا خدمة الارض ومسيدها ... وهكذا تطورت علاقة الفلاحين ، في ظل ذلك النظام ، بصاحب الارض ، من ابحار خدمة الى سخرة سافرة .

وقد ترتب على هذا الوضع ان فقد الفلاحون حريتهم وكرامتهم ، فحرموا حق التصرف ، وحق التفكير ، وحق التمتع بالعيش الكريم الذي يتيحه كدهم . وصاروا يتصرفون وفق مشيئة سيدهم صاحب الارض الذي يحملهم على ان يفكروا بعقله ، ويشعروا بشعوره ، فيعتنقوا فلسفته ، فلسفة سيادة الأقوى ، وحقه في استغلال الضعفاء . ولا يلبث رب الاسرة ان يصبح بلا رأي وتوجيه ، حتى بين افراد أسرته الذين لا يدينون هم ايضاً بالطاعة لاسيد الارض . وحين يفقد رب الاسرة كرامته بينها ، يفقد كذلك احترامها له ، وتتبدد عاطفة الابوة والبنوة ، فتفكك الاسرة ويتصدع بنيانها .

والاقطاع ، او نظام الملكيات الزراعية الكبيرة ، يطبع نفسية سادته بطابعه ، فيدخل في روعهم ان تفردهم بتملك الاراضي الواسعة يرجع الى تميزهم الطبيعي عن سائر البشر ، فهم لم يخلقوا مثل سائر الخلق ، ولكنهم خلقوا سادة لهم حق تملك الارض والرقاب ، بينما خلق الفلاحون عبيداً ، عليهم الطاعة والتفاني في الاخلاص لهم ، والقيام بواجب خدمتهم . وقد تأصلت فيهم هذه المعتقدات ، وامتدت جذورها الى اغوارهم حتى صار اقتلاعها غير ميسور الا اذا اقتلعت منهم ضياعهم التي أنبتتها . لقد غرس نظام الاقطاع في نفوس سادته الزهو والاستعلاء ، والتحكم والاستبداد والاستغلال ، وفقدت كل شعور رحيم ، اللهم الا اذا استثنينا بعض حالات فردية شاذة ، لا يلبث ان يبدها سلطان ذلك النظام الذي لا يمكن لبشر ان يتحرروا منه الا بتحطيمه .

لقد اسفر انقسام اراضي الزراعة الى ضياع شاسعة واجزاء متفتتة لا تملكها هي كذلك الا قلة من الفلاحين ، الى انقسام اهل الريف الى كبار وصغار ، الى عمالة

واقزام ، الى سادة وعبيد . ومن طبيعة العلاقة التي تربط بين هؤلاء وهؤلاء ، نشأت طبائع المجتمع الريفي الاقطاعي وصفاته . نشأ الظلم والشره والأثرة وبلادة الحس من ناحية ، ونشأ الخضوع والذل والحقود والحسد والرياء والانتهازية ، وغير ذلك من صفات الضعف والعبودية من ناحية اخرى . وعلى الرغم من ظهور ذلك فإننا لا نزال نرى المثاليين يؤمنون بأن المثل الاخلاقية صفات شخصية خاصة بأصحابها الذين يستطيعون تغييرها بارادتهم حين يستجيبون للوعظ والارشاد ..

العقل والوجود المادي

عرفنا من عرضنا السريع في الفصل السابق للفكر الميتافيزيقي ان أمته لا يحاولون دراسة حقائق الوجود على اساس تمحيص واقعه، ولكن على اساس الغوص في اغوار ذهنهم ، والبحث هناك عن تلك الحقائق . ويرجع ذلك الى خطئهم الميتافيزيقي الأصيل الذي يفرق بين الاشياء ، ويبدأ بالتفرقة بين فكر الانسان وبين الواقع المادي . وهم يرون ايضاً ان الفكر موهبة معنوية لها كيان قائم بذاته ، مستقل عن الجسم ، اي انهم يفرقون كذلك بينه وبين الجسم ، في حين انه ثبت خطأ هذه التفرقة علمياً، فالفكر لا يؤدي مهمته الا بوساطة الجسم . واداته الاساسية هي المنخ . فالحواس هي التي تصله بالوجود ، والجهاز العصبي هو الذي ينقل اليه اثر الحواس ، والمنخ هو جهازه . فان اصاب هذا الجهاز بقصور صار العقل قاصراً . وان تعطل فالعقل يتعطل كذلك . ونخلص مما تقدم الى ان العقل متولد من المادة ، ولا يمكن فصله عنها ، وان خواطره وافكاره وتصوراتهِ متولدة هي ايضاً من المادة ، فاذا بحثنا في اغواره عن حقائق الوجود ، متوسلين بالتأمل والتفكير المجرد ، مغفلين جهازه ، ووسائله التي تمكنه من تأدية وظيفته . فان ذلك لا يؤدي إلا الى زيادة

المتأمل الحالم بعداً عن كنه الوجود ، ولا يسفر الا عن اصطلياد اوهسام تزداد عجزاً وتشوهاً بمقدار ذلك البعد .

الدين والحياة والناس

يعزل المنهج المثالي الدين كذلك عن الحياة ، متجاهلاً ارتباط كل منهما بالآخر ، متغافلاً عن كنه الدين وغاياته ، فالدين عنده برج عاجي يلوذ به الانسان لدى الاخفاق والضيق ، متعالياً على الحياة ، نافضاً يديه من تكاليفها والتزاماتها ، في حين ان تعاليم الدين الصحيح تكاليف والتزامات لا تستهدف غير مصلحة الناس وخيرهم وسعادتهم .

وتعزل المثالية كذلك الدين عن الناس . فهو ليس عقيدة في نظرها متوشجة البذور في نفوس الناس . بل شيئاً منفصلاً عنهم ، يلوذون به كما قلنا وقت الاخفاق والضيق ، ويستعينون به على مكاره الحياة . انهم يلتمسون الايمان الديني حين يكفرون بالحياة ، وينتظرون معونته حين تحذلهم شجاعتهم وقدرتهم على الكفاح ، ويبحثون لدنه عن الروح حين تصبح حياتهم بلا روح . في حين ان دين الانسان هو ايمانه بالحياة ، هو كفاحه دون تواكل في سبيل الخير والحق النابعين من وضع اقتصادي سليم ، وفي سبيل خلق روح لوجوده ووجود الناس ... ان الله هو جماع صفاته الحسنى ، والمعرفة الحققة الشاملة اساس هذه الصفات ، المعرفة التي تبصر الانسان بالنظام الذي يندثر منه الاستغلال على كافة ألوانه الظاهرة والخفية ، وتنبأ فيه الظروف التي لا تثبت تلك الصفات الحسنى ، مصونة من كل عبث ، الا في ظلها . هذا هو الأصل الذي يستهدفه كل ايمان سليم .

الفن والحياة

يستطيع القارئ بعد تبين وجهة المذهب المثالي في النظر الى الاشياء ان يدرك حقيقة المعركة القائمة حول الفن الواقعي والفن المثالي . ان التفرقة بين الفن والحياة صنو التفرقة بين الفلسفة والحياة . فأهل الفن المثاليون من شعراء وادباء وموسيقيين ورسامين وغيرهم يغمضون اعينهم كالفلاسفة المثاليين عن الواقع ، ويحولونها الى باطنهم ، باحثين هناك عن المعاني المختزنة المتخلفة عن قراآتهم او تجاربهم القديمة غير المدروسة . فاذا هم يصوغون معاني ناقصة شائبة يزخرفها خيالهم الزاخر بألوان الزخارف الجوفاء . فاذا حاولوا تصوير واقعة من وقائع الحياة او حقيقة من حقائقها ، فإنهم يمنحون كعادة المثاليين الى تدبرها على اساس قيامها بذاتها ، معزولة عما حوّلها من الوقائع والظروف ، مجردة من التفاعل وحركة التطور التي هي روح الحياة وأساسها . وهم يضعون لك صورة لانفعال حواسهم بتلك الواقعة او تلك الحقيقة المصورة دون ان يضمّنوها اي محتوى فكريّ موجّه . وهكذا تتجرد الصورة من روحها ، اي من مضمونها الحيّ ، فتتجرد من كل قيمة حقيقية .

يفغل المثاليّ عن غاية الفن الأصيلة فيحسبها مقصورة على تصوير أحاسيسه وخيالاته ونزواته ، في حين أن الفن يستهدف منذ مولده في فجر التاريخ تصوير الحياة على حقيقتها ، وقد ظل كذلك حتى التوت به الطريق على أيدي المثاليين . أما الفن في نظر الواقعية الحديثة فهو يستهدف تصوير الحياة القائمة على التفاعل والتناقض والتطور الى مستويات أعلى ... الحياة الحية المناضلة ، لا الحياة الجامدة كما تبدو للعين الجامدة والذهن الجامد . وعلى قدر فهم الفنان للاتجاه المساعد في كل واقعة يحاول تصويرها ، وعلى قدر إبراز هذا الاتجاه ، وما يترتب على ذلك من

تآزر الناس المتأثرين به على دفعه الى الامام لتحقيق غاياته ، يكون نجاح الفنان في تأدية رسالته .

أما القول بأن أساس الفن هو حرية الفنان في أن يكتب ويصور ما يشاء ، هذا القول الذي يردده أهل الأدب والفن الذين يضيعون بمحاولة تبصيرهم بالحقائق ، وهدايتهم اليها ، هذا القول مغرق في الضلالة ، لأنه يتفكر للنقد او يحاول تعطيل مهمته ... فللفنان ان يحلم وأن يشطح في الضلال مستمتعاً بالحرية الضالة ، او الفوضى الفكرية التي يتمسك بها . ولكن ليس له ان يبكي ويولول حين يكشف النقد السليم ضلاله ، وحين ينصرف الناس عنه ، فترهقه الوحدة ، وتمرضه فوق مرضه ، فيتمسّس على آماله وأحلامه الضائعة .

نتائج مباشرة

أفضنا في تطبيق الاتجاه المثالي على الواقع فيما تقدّم ، وأبنا الفارق بينه وبين الاتجاه الواقعي السليم المضادّ له . وهيانا للقارى . مجالاً لأعمال الفكر ، والتوسّع في التطبيق على غرار ما ذكرنا لادراك الحقائق المتطورة التي لا يستطيع ملاحقتها غير النظر الموضوعي المسترشد بالمنهج الواقعي . واذا كانت التطبيقات التي ألعنا اليها فيما سبق ذات نتائج عامة بعيدة الاغوار ، مترامية الأنار ، فسنحاول هنا ان نسوق التطبيق الى وقائع ملموسة النتائج ، تلقي الضوء على قصدنا بطريقة مباشرة .

قام الجدل الحاد خلال ثورة ١٩١٩ بين فريقين من ساسة مصر حينذاك حول الخطة السياسية الجديدة حينذاك بالاتّباع ؛ فنادى احد الفريقين ، وكان على رأسه سعد زغلول ، بأن سياسة مصر يجب ان تنصرف بكليتها الى مناهضة الاستعمار ومغالبتها حتى تتم الغلبة عليه ، ثم تتحول بعد ذلك الى معالجة المشكلات الاقتصادية

والثقافية والاجتماعية في سبيل النهوض بالبلاد الى المستوى الحضاري الذي تتوق اليه ؛ واتهم الفريق المذكور كل مناهض لهذا الرأي بأنه يسعى الى تحويل المعركة المعلنة ضد المستعمر الى معركة داخلية لها اوان آخر ... وايد الفريق الثاني وجهة النظر المضادة ؛ زاعماً ان البلاد لا تفيد من استرداد استقلالها الا اذا اصاب من اسباب الرقي الحضاري ما يؤهلها للحرية . ثم انها لن تستطيع التغلب على الاستعمار وهي فقيرة جاهلة متفككة الأوصال .

ولا شك ان القاريء الذي اخذ يدرك الرابطة بين الاشياء يستطيع تبين الخطأ الذي وقع فيه هذان الفريقان معاً بغفلتهما عن تبين صلة الاستعمار بالتأخر الاقتصادي والثقافي . فمحاولة النهوض بالبلاد في ظل الاحتلال الاجنبي الى مستوى ثقافي واقتصادي اعلى تصطدم بنفوذ الاستعمار المناهض بكل قواه لمثل هذا السعي . ومحاولة التفرغ لمناجزته ، والبلاد متأخرة فقيرة عاجزة ، لا تحقق الغاية المنشودة على الوجه الفعال الناجز . وعلى ذلك يتضح الرأي الصحيح ، وهو ضرورة ربط الجهاد في هذين الميدانين المتشابكين ببعضهما ببعض ؛ ما دام الاستعمار وتأخر البلاد مقرونان في قرن ؛ وضرورة اتباع التكتيك المناسب لحالات الجهاد المتطورة . وما قلناه عن كل من الاستعمار والاصلاح الداخلي يقال مثله عن الاستعمار والملكية الدائلة في مصر ، وانقسام الناس ازاءها الى فريق يرى السعي للقضاء على نظام الملكية ، والخلاص من الملك اولاً ، ثم التفرغ للقضاء على الاستعمار ، وفريق آخر يمنح لعكس هذا الرأي ... وواضح ان ذينك المعقلين الرجعيين - الملكية والاستعمار - كانا يتعاونان ضد مصلحة الشعب ، ويسعيان لهضم حقوقه ، والعبث بحريته ، ويشد كل منهما ازر الآخر في طغيانه . فالرابطة بين مصلحتهما واضحة ، وتعاونهما المثمر

واضح ، وعلى ذلك كان لا بد من مناهضة الاثنين معاً لضمان النجاح السريع .
ومن المعلوم اليوم ان تقسيم الحيوانات ، او الكائنات الحية ، على اختلافها ،
الى فصائل وانواع دون ادراك الصلات التي تربط كل نوع منها بالآخر ، ابتعد
بعلماء الحيوان قبيل (داروين) عن وسيلة الوقوف على تاريخ الاحياء الطبيعي ،
وادراك اسراره . ولولا ذلك الخطأ الميتافيزيقي ، خطأ التفريق بين الاشياء دون
تبين الصلات الواصلة بينها ، لما عجز اولئك العلماء عن الفطنة الى تطور الاحياء ،
ولو اسعفهم التقدم العلمي لتثبتوا على ضوئه من صحة ما فطنوا اليه ، ولم تحف
عليهم اسرار تطور الكائنات ، وتولد انواعها بعضها من بعض قبل ان يدرك
(داروين) ومدرسته تلك الحقائق ذات الخطر المباشر في تقدم المعارف الانسانية .
وقبل ان تنتقل من هذا البحث الى غيره نعجب للتناقض الذي يقع فيه
الميتافيزيقيون . فبينما بذل جها بذتهم جهدهم ، منذ فجر فلسفتهم ، في البحث عن
اصل الوجود ، او عن عناصره الاولى !!... ورأوا انه يرجع في الاصل الى اربعة
عناصر ، او الى عنصر واحد ... نراهم لا يفطنون الى الصلة بين الاشياء رغم ما قام
في ذهنهم من انها تفرعت وتفرعت وتسكثرت من اصل واحد ، او من اصول
اربعة !!

العجز عن التمييز بين الاشياء

بينما يغفل المثاليون عن ملاحظة الرابطة بين الاشياء على نحو ما ذكرنا ، نرى
أن عدم مراعاتهم على تفهم الواقع وإدراكه على حقيقته يقودهم من ناحية أخرى الى
الخلط بين الاشياء ، والعجز عن تمييز بعضها عن بعض . فهم يزعمون مثلاً أن الفن
الكفاحي لا يمكن أن يكون موضوعياً لأنه يعبر عن اتجاه صاحبه السياسي ،

أي عن اتجاه ذاتي ، فيقومون بذلك في خلط مزدوج . فبينما يغفلون عن النزعة الذاتية التي تدمع فن البرج العاجي ، إذ هم يرون أن الفن الذي يتخلص صاحبه من أسر ذاته ، وينسى مصلحته الخاصة حين تتعارض مع مصلحة الناس وهو يتناول مشكلاتهم تناولاً موضوعياً ... فن ذاتي !! إنهم لا يميزون بين الفنان وفنه ، والعالم وعلمه ، فيقولون إن الفن والعلم يجب أن يقتزها عن المنفعة . وخططهم بين الفن والعلم من ناحية ، والفنان والعالم من ناحية أخرى ، لا يحتاج الى تعمق لادراكه . فبينما يفرض الفن الاصيل والبحث العلمي المنزه على صاحبيهما أن يرعيا الحق ، وألا يحيدا عنه لمفعة ذاتية ، فإن القضية تختلف عند الحكم على الفن والعلم نفسيهما ، فهما إذا لم يكونا مثيرين ، كانا كالخطب الذي لا يصلح إلا أكله للنار ... إنهم يتهمون الفنان بأنه نفعي حينما ينادي بأن الفن يجب أن يستهدف نفع الناس ، وإلا فقد العنصر الاساسي لقيمته ، بينما يضمنون على الفن الذاتي صفة الموضوعية حين يقول صاحبه : « إني لا أعبا بما يقع لقومي من أحداث ، وأنزهه في عن الانغماس في معمعة النضال المشتعل حولي ، لأنه لا يجوز للفن أن يتحيز لفريق دون فريق في أي صراع !! .. أنا لا أبالي إلا بنفسي ، ولا أشغل إلا بميوها وأهوانها !! .. »

إن المثالية لا تميز بين الفن والفنان ، ولا بين العلم والعالم . فهي حين تؤخذ بانتاج فني رائع ، او اختراع علمي خطير ، تضع صاحبيهما ، أي كلاً من الفنان والعالم ، في مرتبة فوق مرتبة البشر ، بحسبان إنتاجهما فوق متناول المقدرة البشرية ... مثل هذا الحكم ينضح بغفلة المثالية عن الواقع . فهي لو ميزت بين ذات الفنان والعالم ، وبين إنتاجهما ، لأدركت أن ذلك الانعاج حصيلة ما استفاد به كلاهما من تجارب البشرية وإنتاجها ، وأن فضلها يرجع الى مقدار إفادتهما من تلك التجارب . وأن

العالم يمجّ بملايين من الناس لهم مثل مواهب ذينك الفنان والعالم ، وأن هذه الملايين كانت جديرة بأن تنتج إنتاجهما لو أنيحت لها ظروفهما ، وحصلت من فنون الثقافة ما حصلنا ..

والمثالي لا يميّز بين حال وحال حين يجدهما متشابهتين . بل إنه يرى الوقائع والأحداث تتكرر عبر التاريخ على وتيرة واحدة ، ويرى الكائنات تحتفظ على مرّ الدهور بنفس صفاتها وطبائعها ؛ فأنت تسمع على الدوام تلك العبارة التي ألفتها الأذان « لا جديد تحت الشمس » . ووجهة النظر هذه تتفق والفلسفتين المثالية والمادية البحتة التي سنشرحها في الفصل التالي ، وسنبين فيه وفي الفصل الذي يليه كيف ان الطبيعة لم تخلق كائناً واحداً ، أو شيئاً واحداً على غرار غيره ، ولا تتكرر في الوجود واقعة واحدة على غرار غيرها ، بعكس ما يعتقد المثاليون .

بل إن هؤلاء لا يميزون بين حال وحال لمجرد التشابه بين نتائجها ؛ فيقولون مثلاً إنه لا فرق بين تحديد عدد الأطيان المملوكة لأصحاب الاقطاعات الكبيرة ، وبين فرض ضرائب تصاعدية تجبر ملاك تلك الاقطاعات على التخلص من الاراضي التي تستغرق ضريبتها غلتها . وواضح ان القائلين بهذا يفوتهم أن أصحاب الاقطاعات الكبيرة يجنون فوائد سياسية واقتصادية كبيرة من وراء احتفاظهم باقطاعاتهم مما يحول دون محاولة التخلص من زوائد أراضيهم حتى ولو كانت تلك الأراضي لا تغل شيئاً ...

المثالية والتناقضات

لا شيء في الوجود ، سواء أ كان ذلك الشيء مادياً او معنوياً ، وسواء أ كان كائناً حياً او نباتاً ، إلا ويشتمل على نقيضين رئيسيين يصطرعان فيه ، وقد يشتمل

على نقائض فرعية يصطرع بعضها وبعض . وإذا بدا هذا القول غامضاً فسنرجى شرحه تفصيلاً الى الفصل السادس .. ونحن لم نستبق تسلسل فصول الكتاب ولنمض هنا الى تلك النقائض الالنبئين أن المثاليين الذين يغفلون عن إدراك الصلة التي تربط ما بين الأشياء المختلفة الظواهر ، يغفلون كذلك عن تبين العوامل المتناقضة الكامنة في الشيء الواحد ، وسنضرب لذلك مثلاً واحداً من لقاء بعض الضوء على هذا القول مرجئين التفصيل الى مكانه المناسب .

يكفر كثيرون بنهضة مصر الحديثة، وينكرون إحرازها لأي تقدم في مضمار الرقي الثقافي ، بل قد يغالي بعضهم فيزعم أنها ناكسة على أعقابها في طريق التأخر. ولكنك تجد آخرين يعتنقون الرأي العكسي فيؤكدون ان النهضة الحديثة عمت الأرجاء ، وأن الشعب المصري صعد في مدارج الرقي وثبا في العشرين سنة الأخيرة.. ووجه الخطأ فيما ذهب اليه هذان الفريقان هو ذلك التعميم التجريدي الذي يجمع شعب مصر في جبهة متراسة ، تسمو جملة او تنكس جملة ، في حين ان الواقع يخالف ذلك، فان شعب مصر كسائر الشعوب يتنازعه اتجاهان فكريان رئيسيان متناقضان: اتجاه متشبث بالقديم ، لا يألو جهداً عن مناهضة كل تقدم ، واتجاه آخر مناقض له ، لا يكف عن مصارحته في سبيل تغليب الجديد على القديم . ومما لا شك فيه أن مستوى نهضات الشعوب يتوقف على مدى النجاح الذي يصيبه النقيض الأخير على النقيض الأول. ومن يدرك ذلك ويجعله أساساً لبحثه لا يخطئ حكمه الصواب، ولكن المثاليين لا يفطنون كما قلنا الى النقائض المتصارعة .

صواب المثالية ناقص

قد يعترض معترض على ما ذكرناه من قصور الاتجاه الفكري المثالي عن

الامام الشامل بالموضوع محل الاختيار ، وغفلته عن اسس المنهج السليم الذي يؤدي
 الى ذلك الامام ، فيقول « ان بعض فلاسفة ذلك الاتجاه من امثال ديكارت وكانت
 وغيرهما سبقوا الواقعية الى وضع أسس المنهج المنسوب اليها . فمن تلك الأسس التي
 قررها اولئك الفلاسفة « وجوب استقصاء صلة كل شيء بغيره ، وكل حدث بسواه ،
 ودراسة عناصر الشيء المراد ادراكه ، وامتحان كل منهما على حدة ، ثم امتحان
 الشيء بما اشتمل عليه من تلك العناصر الممتحنة جملة » ونحن نجيب على هذا الاعتراض
 اولاً بأن وضع المبادئ شيء ، والقدرة على تطبيقها شيء آخر . فالنزعة المثالية
 الطائرة على جناح الوهم لا تستطيع ان تركز انتباهها في الشيء المراد امتحانه على
 اساس المنهج الذي تضعه ، وهذا واضح من النتائج التي انتهت اليها مما بيناه سابقاً ،
 وسنزيده بياناً لاحقاً . ونجيب ثانياً بما سبق لنا ان كررناه ، وهو ان النقصان عيب
 المثالية الاساسي . فمنهج ديكارت ومن هذا حذوه من المثاليين ناقص ، وهذا النقص
 يعجزه عن فهم الصلة بين الاشياء على حقيقتها ، واذا وفق الى فهمها عجز عن
 استخلاص النتائج الصائبة المستخلصة من تلك الصلة . ذلك لان هذا المنهج عاطل
 من الأسس الرئيسية التي تزود الواقعية بالقدرة على كشف الحقائق . فمن تلك
 الأسس ان كل شيء حي او غير حي يشتمل على عاملين متناقضين كليين ، وعوامل
 متناقضة جزئية ، وان هذه العوامل الكلية والجزئية تصطرع فيسفر اضطرابها عن
 تحرك في الشيء المشتغل عليها ، وعن تطور ينتهي به الى التغير . ان المثالية تنسب
 تغير الاشياء الى العوامل الخارجية المؤثرة فيها ، وتغفل عن لب لباب كل تغير وهو
 الصراع الكامن في جوفها . وهكذا تعجز المثالية عن الافادة حتى من المنهج السليم
 من بعض النواحي فيما اذا حاولت الاخذ بأسبابه . على ان الواقعية لا تكتفي بما

تقدّم ، ولكنها تحرص على امتحان تلك العوامل المتناقضة كل على حدة ، ودراسة طبيعة الصراع القائم بينها وما يسفر عنه من تطور الشيء المشتمل على تلك العوامل المتدبرة ، ثم ملاحقة تطوره ، ومحاولة دراسة ذلك التطور على ضوء ماضيه ، ثم الاحاطة بكل ذلك جملة واحدة في محاولة فهم الحقيقة المتطورة لذلك الشيء . ولا يجوز فوق كل ما تقدم اغفال علاقة الشيء الممتحن بظروفه وملاساته المتطورة بدورها ، وصلته بغيره من الأشياء ، وما تشتمل عليه تلك الصلة بدورها من تناقض . على ان تفصيل ذلك سيرد في الفصل المخصص لمنهج الفلسفة الواقعية .

المثالية والتطور

اصبحت كلمة التطور تجري على كل لسان ، ويأنف كل انسان على قدر من العلم ان يوصم بجهلها . ولا عجب في ذلك فان احوال الناس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية اخذت في هذا القرن الاخير تتطور بسرعة تلفت النظر . وقد تمكنت المعامل والمصانع والمزارع من ان تطور بعض الاشياء تطويراً لم تكن الطبيعة تصل الى تحقيقه الا بعد دهور ودهور . ولكن العلم بالتطور شيء ، وعدم الغفلة عنه لدى البحث عن الحقائق والحكم على الاشياء شيء آخر . فنحن اذا امتحنا معتقدات الناس وآراءهم في مختلف امورهم نجد أغلبها يسقط التطور من حسابه ، في حين ان تتبع تطور الاشياء هو الأساس لكل بحث يمكن ان يؤدي الى صحة الحكم عليها... وسنضرب مثلاً عاماً يوضح ما نرمي اليه . فانك ترى الذين يجري التطور تحت ابصارهم على نحو واضح غير منكور منهم ، يقولون لك مثلاً ان الناس ما زالوا كما كانوا منذ عصور الهمجية الاولى ، لم يطرأ عليهم اي تبدل وتغيير ، فهم اليوم مثلهم بالأمس وحوش ضارية ، يفترس قواها ضعيفها . وليست حضارة اليوم الا

ستاراً خدّاعاً يخفي الصفات والفرائز الموروثة عن الجذود الأولين من قطّان الغاب .
وليس هناك قول كهذا ادلّ على غفلة قائله عن التطور . فهو انكار لكل مسأطراً
على البشرية من التحولات الكلية التي نقلتها من مرتبة شبه حيوانية الى مرتبتها
الحاضرة . ويكفي هنا ان ندحض هذا الخطأ الذي لا يحتاج الى دحض ، باحالة
القارئ الى حديثنا عن الاصلاح الزراعي الذي يدل على علاقة تطور الصفات
والطبائع بالاموضاع الاقتصادية .

واهم مثال نضربه للتطور هو تطور الانسان نفسه . فان كل واحد من البشر
يتطور في كل خفقة قلب ، وفي كل ترجيع نفّس . فكل خفقة قلب ، وكل ترجيع
نفّس يحدث تغيرات عضوية فيه . وكل نظرة ينظرها ، او كلمة يسمعه ، او عبارة
يقروها ، بل ان اية خبرة تكتسبها حواسه تحدث اثرها ، وتؤدي الى تطويره مهما
قلّ شأنها وشأن ذلك التطوير . ولكن الانسان يغفل مع ذلك عن التبدل الذي
يطرأ عليه وعلى من يحيطون به ، فيتوهم انه هو هو كعهده بنفسه ، لم يتغير ، ولم
يتبدل ، اللهم الا بعض معلومات اكتسبها ، وبعض تبدل شكلي طرأ على جسمه .
فاذا دهمه كبر السن ، واثقلت الايام كاهله ، اخذ يلمس الفرق بين شبابه ومشيبه ،
ولكنه لا يللمسه الا من زوايا جزئية .

وليست عملية تطور الفرد الاقطرة متفاعلة مع عملية تطور مجتمعه وتطور
الانسانية جمعاء . فالفرد يأخذ في الافادة مما وصل اليه تطور مجتمعه ، وتطور الانسانية
اجتماعياً وثقافياً ، منذ بدء ادراكه . ثم يؤدي التفاعل بين معارفه المكتسبة النامية
وبين نمّوعيه الى انتقاله تدريجياً من الفطرة الحيوانية الى انسان القرن العشرين ...
ومتى احس الانسان احساساً يقظاً بأنه لا يكف عن التطور اصبح اقدر على فهم

الموجودات بحسبانها متطورة متبدلة ، وصار بذلك أثقب فكراً ، وأصح حكماً .
والفرد حين يغفل عما ذكرناه ، يغفل كذلك عن تطور الاشياء المادية المحيطة به .
فهو ينظر مثلاً الى اثاث مسكنه ، والى البيت الذي يقيم فيه ، والشارع الذي يقع فيه
بيته ، والمدينة التي يقطنها ... ينظر الى كل هذه الموجودات على أنها باقية كهده
بها ، لا يطرأ عليها أي تغيير . ولسنا ننفي أنه يتنبه بين حين وحين ، فيدرك أن
بيته وأثاثه أخذوا يفقدان شيئاً من جدتهما ، وأن دوراً جديدة أخذت تشرئب هنا
وهناك على طول شارع ، وأن تغييراً طرأ على بعض معالم مدينته ، وأن أجزاء من
أطرافها قد اتسعت . ولكنه مع ذلك لا يحسب ما طرأ على هذه الموجودات إلا
تغييراً جزئياً تافهاً لا يكاد يمس غير ناحية غير ملحوظة من شكلها الخارجي . في
حين انه لو فطن الى عملية التطور ، ومدّ مرمى نظره الى آفاق بعيدة ، لفظن الى
أن التطور الذي يجري حوله يتناول طبيعة تلك الموجودات كما يتناول شكلها الخارجي ،
وأنه بسبيل تغييرها على نحو كلي شامل . وإذا اعتاد أن يمتحن الأمور على هذا النحو
أدرك طبيعة تحول كل ما في دنياه من موجودات مادية ، ومن أنظمة ومعتقدات
ومثل وعلوم ومعارف وما الى ذلك مما تدركه حواسه ، ويعيه عقله . ولن يلبث هذا
الادراك الجديد أن يحوله من إنسان مستسلم للواقع الضارب به ، الى انسان يناضل في
سبيل تطوير حاضره وتغييره على النحو الذي يلائمه . ولن يفوت القارئ المحصص
السبب الذي يدعو المثالية الى بذل الجهد في سبيل بقاء هذه الحقائق مجهولة ، فإن
المثالية هي فلسفة المنعمين المستغلين الذين يحملون بقاء الحال على ما هي عليه ، فلا
عجب إذا ضاقت ذرعاً بكل محاولة لشرح فلسفة التطور ، وحفز الشعوب المغبونة
للافادة منها .

النظرة الذاتية والنظرة الموضوعية

من المتناقضات التي تلفت النظر أنك تجدد فلاسفة الغرب المثاليين وعلماءه ونقاده ، بل وكل من يدعي فيه الفهم ، يؤكدون اهمية الدراسات الموضوعية ، وعجز من يهملها عن الوصول الى اية حقيقة . ولكنك تراهم رغم ادراكهم ذلك لا يكفون عن الميل مع الهوى ، والجنوح الى الذاتية في حكمهم على الاشياء . وقد بينا في بحوثنا السابقة مبلغ انغماس فلسفاتهم وآدابهم وفنونهم في تلك الذاتية . وسنشير هنا الى رأيهم في قضية عامة ، فقد يكشف هذا الرأي عن مدى سيطرة الاتجاه الذاتي على ما يصدر من احكام . هذه القضية هي قضية الحرية .

يدافع رجال الغرب الذي درج على استعباد الشعوب عن تلك القضية دفاعاً بصيغونه بصيغة الموضوعية . فهم يزعمون أنهم يؤيدون حق الانسان الطبيعي في ممارسة الحرية ، ويمدّون النيل منها نيلاً من كرامته وإنسانيته . وقد استطاعوا أن يخدعوا بذلك بعض الغافلين من ذوي النيات الحسنة ، لا سيما وقد أحسنوا التمثيل وهم يتحمّسون في الهتاف لها حتى لتكاد تبرز عروق رقابهم وتنفض من شدة تلك الحماسة .

على أن الخدوعين فيهم يستطيعون أن يدركوا قصدهم على حقيقته إذا امتحنوا وضع الغرب الاقتصادي الذي يرتكز بكليته على الاستعمار . إن أولئك الذين يدعون الدفاع عن الحرية إنما يدافعون عن حريتهم في سبيل الكسب ... عن حرية التجارة ، وحرية البحار .. عن حريتهم الاقتصادية الاستعمارية ... تلك الحرية التي تتوَّج الى استغلال الشعوب ، أي إلى استعباد المغلوبين على أمرهم ... الى استعمارهم واستنزاف دمائهم ... إن أبطال الحرية هؤلاء لا يدافعون الا عن

حريتهم في النهب والسلب . فنظرتهم الى الحرية إذن نظرة ذاتية بحتة ، لا نظرة موضوعية كما يزعمون . رغم العبارات الطنانة التي يحاولون بها إخفاء تلك الحقيقة .

ونظرة الى الوراء تعيننا على تفهم الحرية التي ينادي بها الغرب اليوم على حقيقتها . فقد كان امراء الاقطاع وسادته يضعون أنفسهم في مرتبة لا تدانيها مرتبة الشعوب . كانوا يعيشون متبطلين على كدّ شعوبهم وشقائهم . كانوا يسخرونها في العمل الشاق ، وينفردون بجني ثمار عملها المضي ، ولا يتركون لها الا الفتات . كانوا يستغلونها ويعاملونها معاملة الارقاء . وانتهت هذه الحال كما هو معلوم بثورة الأرقاء على سادتهم للفوز بحريتهم المساوية . كانت الفروق بين هاتين الطبقتين ثابتة ، واضحة المعالم ، والمركة بينهما ظاهرة الاهداف . ولا شك أن انتصار الشعوب في ذلك الحين على طبقة الاشراف قضى على الحرية التي تمتّع بها اولئك الحكام المستبدون المستغلون ... ونستخلص من ذلك أن فوز الشعوب بحريتها يقيّد حرية المسيطرين عليها ، وفوز أ كثرية أي شعب بحريتها يقيّد حرية الأقلية المستبدة بها . وعلى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن ندرك الحرية التي ينادي بها الغرب على حقيقتها . فقد حدث للشعوب الاوربية بعد تخلصها من سيطرة سادة الاقطاع أن مارسست حريتها المستردة دون أن تجرؤ حكومة من الحكومات على وضع أي قيد يحدّ منها . فأسفرت المعاملات الحرة عن فوز الاقوياء والقادريين بالنصيب الاوفر من الارباح ، وتكدّست الاموال في أيدي القلة فازداد فقر السكّنة ، وسيطر القادر بقوة المال على الضعيف . ولم يكتف أصحاب الأموال باستغلال شعوبهم ، ولكنهم مدّوا ابصارهم الى ما وراء حدود بلادهم حتى تمسكوا من استثمار مختلف الأصقاع ، وبسط ساطانهم عليها . ولم يقو الضعفاء فيما مضى على المساس بحرية اولئك

الأقوياء في الاستعمار والاستغلال . ولكن الشعوب بدأت تؤمن منذ أواخر القرن الماضي بحقها في الحرية ، وتدرك تعارض الحريتين ، حريتها وحرية مستغليها ، فلا بقاء لاحدهما مع الاخرى ، ان حرية الاستغلال هذه هي الحرية المثالية الذاتية التي يتجسّح بها الغرب دون حياء ويحد من أذنابه من يموء حقيقتها على الشعوب المتوثبة الى استرداد حريتها . وهيئات أن تخدع الشعوب .

النظرة من جانب واحد

تبيّن من شرحنا لمذاهب المثالية أن كل واحد من فلاسفتها يقتصر لدى امتحان المشكلات التي يحاول حلّ معيّناتها على النظر اليها من ناحية واحدة . ولذلك تعدّدت وجهات نظرهم في الموضوع الواحد رغم قيامها جميعاً على أساس مشترك بينها . وقد كان من أثر تعدّد أحكامهم ، وجهات نظرهم ، ونسخ بعضها لبعض على مرّ الزمن ، وتغيّرها على الدوام ، ان استخلص بعضهم من ذلك ان حقائق الوجود نسبية لا مطلقة ، أي انها تشتمل على جانب من الخطأ وجانب من الصواب ، او راح يسخر من إيمان الواقعيين بأن صحة مذهبهم مطلقة ... هذا الحكم المثالي خاطيء كغيره من الأحكام المثالية المبتسرة . فلو أن كل حقيقة تشتمل حسبما يقولون على قدر من الخطأ وقدر من الصواب ، فلا يتمدّد الوصول الى الحقيقة المطلقة بتخليص الحقيقة النسبية من ذلك القدر من الخطأ الذي يشوبها !! .. أما الواقعية فتقرّر أن حقائق الوجود مطلقة في ذاتها ، أي مطلقة من الناحية الموضوعية . ولكن إدراكنا لها هو النسبي ، هو المتطور ، ونحن نقرب من الألسام بها موضوعياً بمقدار تقدم علومنا ومعارفنا ... إن الحق المطلق في مذهب الواقعية هو منهجه العلمي في تفهم الأشياء ، ذلك المنهج المبني على دراسة تطوّر الأشياء بتفاعل المتناقضات المجمعة في

جوفها . وهو على كونه حقاً مطلقاً فإنه لا يقدم لك حقائق جاهزة يزعم لك أنها مطلقة، ويفرض عليك كما قلنا سابقاً اعتناقها . ولكنه ينير لك طريقك الوعر وأنت بسبيل البحث عن تلك الحقائق .

والنظر الى الأمور من جانب واحد لا يقتصر على فلاسفة المثالية بل يتعداهم الى علمائها في التاريخ والاجتماع وعلم النفس وغير ذلك من مختلف فروع العلوم والمعارف . ولا عجب بعد ذلك إذا تغلغل هذا القصور الى حكم الناس على الأشياء ما دام هدايتهم غارقين فيه الى أدقائهم . ولعل تطبيق ما ذكرناه على بعض معتقداتنا العامة لا يخلو من فائدة . فان مؤرخينا أدخلوا في روعنا مثلاً أن الفضل في القياس بمشروعاتنا العمرانية التي تمت منذ مستهل القرن الماضي يرجع الى محمد علي وذريته . لقد نظر هؤلاء المؤرخون اليها من ناحية واحدة وهي الناحية المحلية ، فحسبوا أن أولئك الحكام ووزراءهم ومستشاريهم هم الذين فكروا فيها ، وأقدموا على تنفيذها ، ولكنهم لو داروا بأعينهم ، وفحصوا حال أوروبا الاقتصادية حينذاك ، وألموا بالنشاط الصناعي الذي دب هناك وأسفر عن تكديس الانتاج ، وتفاقم رأس المال ، وحاجة كل منها الى التصريف ، أي الى التصدير للخارج ، لو ألموا بذلك ، ثم فطنوا الى تحول انظار رجال المال والأعمال في أوروبا الى مصر وغيرها من بلاد الشرق إبان القرن التاسع عشر لتكشف لهم الجانب الأهم من الحقيقة . لقد كان هجوم رجال الشركات والبنوك على مصر طمعاً في استغلالها مما لم يكن محمد علي وذريته يستطيعون التصدي له ومقاومته . ولذلك رأى هؤلاء أن يشتركوا مع المستغلين المستعمرين في اقتسام الغنائم بدل المقاومة التي لا تجدي ، فقدّرت تكاليف هذه المشروعات والديون التي قيل إنها اقترضت للقيام بها وفوائدها الفاحشه بأضعاف

قيمتها الفعلية ، واقتسم الولاة والمستغلون الأجانب الفرق بين القيمتين ، وتمادوا في النهب والسلب حتى امتصوا نخاع الشعب المصري ، وراحوا يتبجحون بعد ذلك بأنهم رواد الإصلاح في الشرق .

كلمة أخيرة

نكتفي هنا بهذا القدر من الأمثلة التي لم نرد بها إلا هداية القارىء الذي يحرص على تجنب أخطاء المثالية لدى حكمه على الأشياء . ولا شك أن مثل هذا القارىء يستطيع أن يتبين على هدى تلك الأمثلة انحراف أكثرية الآراء الشائعة والأحكام المتعارف عليها عن جادة الصواب لقيامها على أساس مثالي .

ونلخص ما شرحناه في هذا الفصل فنقول إن المثالية لا تنكر صلة الأشياء بعضها ببعض لكنها لا تدرك منها إلا مظهرها الخارجي دون التعمق إلى جذورها في سبيل فهم كل منها على حقيقته . وهي لا تنكر التطور ولكنها لا تدرك منه كذلك إلا الظاهر السطحي دون التطور الداخلي ، أي أنها تدرك تطور قالب الأشياء دون محتواها ، أي مضمونها الذي لا يتطور ذلك القالب إلا بتطوره وتغيره . وهي تحاول امتحان الأشياء من جوانبها كافة ، والحكم عليها موضوعياً ، ولكنها تفشل في ذلك لأنها تبحث عن الحقائق بحسها وخيالها متأثرة بالنزعة الفردية دون النزعة الموضوعية . وأهم ما يحول بينها وبين الفطنة إلى صحة الحكم على الأشياء أنها تنساق وراء أوهامها وانحرافات في سبيل مؤازرة النزعة الاستغلالية الاستعمارية التي تقوم (أي المثالية) على خدمتها .

وسيزداد القارىء إدراكاً لصحة حكمنا على المثالية بعد وقوفه على المنهج المفصل للفلسفة الواقعية في الفصول التالية .

الفصل الخامس

الفلسفة المادية البحتة

التفسير المادي للوجود

على أثر اليقظة الفكرية التي عمت أوروبا الغربية في مستهل القرن السابع عشر نتيجة لازدهارها الاقتصادي والعلمي ، وبعد أن ذاعت فلسفة بيكون ففتحت للفكر آفاقاً جديدة ، حاول مفكرو فرنسا ، وعلى رأسهم ديكارت ، أن يفسروا الكون على أساس التحليل العقلي ، فانتهى بهم ذلك التحليل المجرد الى حسابان المكون آلة ضخمة أجزاؤها الكائنات التي تظهر وتتوارى ، وتروح وتغدو ، وتنمو وتضمحل ، متبعة في ذلك طرقاً لا تتغير ، وخاضعة لنواميس طبيعية لا تتبدل . والانسان يخضع لهذه النظم شأنه في ذلك شأن سائر الحيوان والنبات والجماد . فهو ينمو ويشند ثم يضعف ويموت دون أن يملك من زمام أمره شيئاً . وهو لا يستطيع إلا أن يخضع للقوانين الطبيعية في شئون عيشه . فأن غلة أرضه لا تنبت إلا إذا رواها ، وهو لا يستطيع أن يرويه إلا إذا سَلَطَت الشمس شعاعها على البحر فبخرت مائه ، وتكوّنت السحب من تلك الأبخرة ، وهبّت الرياح على تلك السحب فدفعتها الى حيث تنهيا الظروف لانهارها ... كل هذا يجري دائماً على وتيرة واحدة خارجة عن سلطان الانسان . ثم يعتمد النبات في نموه على حرارة الشمس ، وحالة الجو ، وطبيعة التربة ، ونواتميس نمائه . والانسان لا يملك كذلك من أمر كل هذا شيئاً . وما

يقال عن النبات يقال عن سائر حاجيات الانسان التي تجود عليه الطبيعة بها ، فهو مقيد بالانظمة والنواميس الطبيعية ، مضطر الى تكيف نفسه على النحو الذي يلائمها ... هو يدور في الفلك الذي تدور فيه الموجودات جميعاً على نظام واحد . أن يستطيع هو أو غيره من الموجودات الخروج قيد أنملة عن طريقه المرسوم في ذلك الفلك !! ... إن الوجود في نظر أولئك الفلاسفة العقلين يدور بطريقة آلية ، خاضعاً لجزرية لا يستطيع منها انفكاكاً .

الفلسفة المادية والتطور

هذا التفسير المادي للوجود مقتبس من فلسفة أرسطو على الرغم من أن أصحاب هذا التفسير قد حسبوا أنهم تحرروا كل التحرر منها . فقد قسم ذلك الفيلسوف الكائنات بالنسبة للحركة الى جامد ومتحرك ومحرك . فهناك ما يبدو للعين المجردة ساكناً مستقراً ، وهناك ما يتحرك ، وما يحرك غيره وهو متحرك . فالنبات متحرك ، والكائن الحي متحرك ومحرك ، والمطر كذلك محرك ومتحرك . لقد غاب عن أرسطو ما أدركه العلم منذ مستهل العصر الحديث ... غاب عنه أن كل ما في الوجود من ماديّات ومعنويات لا يكف لحظة واحدة عن الحركة ، وإن بدا ظاهره ساكناً ، حتى الصخر الصلب تضطرب ذراته في غير توقف ... وإذا غاب عن أرسطو أن كل ما في الوجود متحرك ، فقد فطن الى أن شكل كل ما في الوجود متطور ، وأن التطور إما أن ينجح الى الأكمل والأعقل والأصدق وإما أن ينجح الى العكس . والذي يهمنّا هنا من فلسفة أرسطو أنه يرى الشيء الحسوس المتطور يحتفظ رغم تطوره بمادته الأصلية . وقد استمدّ الفلاسفة العقليون من هذا الرأي فلسفتهم المادية ... لقد قسم أرسطو الاشياء الحسوسة الى مادة وصورة ، فالمادة التي يتطور

شكلها حتى تبدو في صورة مفهومة صادقة تتطور الى الاكمل، فاذا تطرق الى شكلها الفساد نكست على أعقابها في تطورها الى الفساد، ثم تعود فتتطور الى الاكمل في صورة جديدة. والفلاسفة العقليون لم يخرجوا كما قلنا عن هذا الرأي، فهم يرون أن التطور يتناول صور الأشياء دون مادتها. والذي أضافوه الى فلسفة أرسطو زعمهم أن الوجود متناسق الأجزاء، يتحرك كل جزء منه تحركاً آلياً متناسقاً مع تحرك باقي الأجزاء. فالوجود في نظرهم مدفوع بحركة محدودة مقيدة، لا يستجد فيها جديد، فكل ما ينبت فيه كما قلنا مكرر، وكل ما يحدث فيه معاد. وسيأتي شرح ذلك بتفصيل أوفى لدى شرحنا لفلسفة ديكارت. وترتب على وجهة نظرهم هذه أن اتفقوا على إنكار الزمن كما أنكره بعض الفلاسفة القدماء من يونانيين وعرب. فما الزمن إلا مقياس التطور والتقدم، وهو ينعدم إذا ما انعدم. وهكذا أفقدوا التغير الذي يطرأ على الأشياء كل قيمة ما داموا يقصرونه على شكل المادة دون طبيعتها، وما داموا ينكرون كل تطور جوهري يتناول الوجود على الدوام، ولا يكف عن تغيير شكله وطبيعته على السواء.

هذه الفلسفة تعد كل كائن في الوجود، بناء على ما قدمنا، خاضعاً لبيئته وظروفه خضوعاً لا خلاص منه، وعاجزاً كل العجز عن تحويلها، لأنها تخضع بدورها لنظام النواميس الطبيعية. فهي - أي الفلسفة المادية - تنكر على العقل أية قدرة على تطوير الوجود، وتغيير الظروف والملابسات، رغم أنها تعدّه، أي العقل، مصدر المعارف الانسانية، وتعقد عليه وحده الأمل في إسعاد الجنس البشري... إنها لم تدرك صلة العقل بالوجود على حقيقتها، لم تدرك التفاعل المتبادل بينهما، ذلك التفاعل الذي يحدث تطور المجتمعات والشعوب. إنها تنكر أي تفاعل بين ممنويات

الوجود ومادياته ، بل تراه يدور ، كما قلنا ، في فلك مرسوم ، على نحو ميكانيكي ،
ولذلك عرفت باسم « الفلسفة المادية البحتة . »

أسباب نشأة الفلسفة المادية

كانت فلسفة أرسطو ، حتى أوائل القرن السابع عشر ، تبحم على ربوع فرنسا ،
وتسيطر على عقول مفكرها فتشل تفكيرهم . كان الاتجاه الفكري حينذاك
يحظر اعتناق أي رأي يخالف الدين ويخالف ما قرره ذلك الفيلسوف . فأسفر ذلك
عن اقتصار الفلاسفة على انتهاج أرسطو ، أو شرح غوامض آرائه . ولذلك أطلق
عليهم اسم « الفلاسفة التقليديين » وقد تعددت شروحيهم للأرسطائية ، واختلفت
اختلافاً شوه الأصل المشروح ، وطمس معالمه ، حتى لم يعد طالب المعرفة يجد له
مستقراً وسط تلك الشروح المتضاربة .

وقد هيا كل من نهضة أوروبا الاقتصادية والعلمية وقتذاك ، وظهور بيكون
ومدرسته التجريبية ، فرصة لثورة الفكر الفرنسي على الأرسطائية ، فعبّر ديكارت
خير تعبير عن تلك الثورة حين قال : « ان طلب المعرفة يقتضي أساساً تحرير العقل
من الآراء الملقنة السابقة ، وعدم التسليم إلا بما تثبت له صحته ثبوتاً لا يعتوره شك ،
أي بما يبلغ في عقله أقصى درجات الثبوت واليقين » .

هذه الدعوة كانت ايذاناً بتحرر العقل من قيوده . ولا غرو اذا ظن ديكارت ،
ومن نحا نحوه اذ ذاك من أهل الفكر ، أن خلاص العقل من ربة الآراء العتيقة
التي أرغم على التسليم بها ، كفيلاً بأن يمكنه من الوصول الى الحقائق المنشودة ...
لا غرو اذا اعتمدوا عليه وحده في كشف المعميات التي لم تسكتفهم إلا لعجز العقل
المستبعد عن تأدية مهمته . ولكن العقل ناء يومئذ بفداحة حملة لأن أصحابه جردوه من

وسائل وصوله الى المعرفة الحقة . لقد حالوا بينه وبين محاولة فهم الواقع عن طريق الحواس كما نادى بذلك بيبكون في الناحية الأخرى من بحر المائش . وهكذا ظلت النظرية في فرنسا يومذاك منفصلة عن التطبيق .

الفيلسوف ديكارت

عبر ديكارت في فلسفته كما قلنا عن ثورة العقل في عصره على ما رسف فيه حقبة طويلة من أغلال المعتقدات الدينية والاجتماعية ، ومن سيطرة الآراء الفلسفية العتيقة المفروضة . فكان لزاما عليه أن يحاول تفسير حقيقة الدين والدنيا على أساس منهج عقلي متحرر من كل معتقد ورأي سابق . ولذلك قسم فلسفته الى فلسفة عليا تتناول بحث حقيقة الدين ، وفلسفة دنيا تتناول بحث حقيقة الوجود .

وعلى الرغم من خطئه في اعتماده على العقل المجرد للوصول الى ادراك ما يحاول ادراكه فقد كان له فضل كبير في فتح باب الاجتهاد الفلسفي على مصراعيه ، اذ قرر « أن الانسان لا يستطيع التفرقة بين الحق والباطل بالبحث فيما قاله أرسطو بصدد ما يبعثه ، ولكن باستيقانه هو دون تدخل أي عامل فكري آخر » ، واذا رأى أيضا « خطر التسليم بأية حقيقة لا يقرها العقل ، أي وجوب الحذر من التسرع والميل مع الهوى » واذا قرر كذلك « ضرورة التغلغل عند بحث أية مشكلة الى جزئياتها ، والقيام بالمراجعات والاحصاءات الكاملة ، دون اغفال أي جانب من جوانبها . »

ولكن لا يفوتنا ان نذكر سبق بيبكون لديكارت في محاولة تخلص الفلسفة من سيطرة أرسطو . فقد قلنا في فصل سابق ان ذلك الفيلسوف الانجليزي هو اول من نادى بأن الباحث عن الحقيقة لا يجدها الا في كتاب الطبيعة دون الكتب الفلسفية العتيقة . وعلى الرغم من أن ديكارت ظهر بعد بيبكون فقد جاء منهجه

الفلسفي أشد قصوراً من منهج سلفه الذي قرر « أن المنهج السليم هو أن يفكر الباحث في الأشياء بحكمة ، وأن يوطد الصلة الطبيعية الأصلية بين الموهبتين العقلية والتجريبية . » بل ان ذلك الفيلسوف الانجليزي ذهب الى أبعد من ذلك اذ قرر ان عقل الانسان الواعي حين يتناول الموجودات بالبحث ، ينهج نهجا مرتبطا بمادتها ، ومتفقا معها . ولكن العقل اذا دار حول نفسه يصبح شبيها بالعنكبوت التي تنسج بيتها من خيوط بديعة التركيب ، دقيقة الصنع ، دون أن تكون لذلك البيت مادة ذات نفع ... »

فلسفة ديكارت العليا

بنى ديكارت فلسفته على اساسين ، الأول تلك الأحلام التي تراءت للفيلسوف أثناء نومه في ليلة من ليالي نوفمبر سنة ١٦١٩ ، فهو يقول إنه استطاع أن يستخلص منها تفسيره لحقيقة الوجود !!... والثاني يتلخص في قوله « إني كنت أقضي طوال يومي في غرفة دافئة ، منطوياً على نفسي ، ومنتهزاً فسحة الوقت لأستعرض آرائي وأفكاري ، فبدأ لي أول ما بدا أن الأعمال التي تتم أجزاء مجزأة ، وتتناولها أيدي عديدة لا تصل من الجودة والاتقان الى ما تحققة الأعمال التي يضطلع بها فرد أوحده . وقد أدركت أن الانسان يتأثر منذ طفولته بآراء القائمين على تنشئته ، وآراء ناصحيه ، فهذا يؤثر فيه ، ويتجاذبه الى اتجاهات متعددة ، فلا تقع أحكامه سديدة كما كانت تقع لو انه لم يسترشد إلا بعقله . وعلى ذلك استصوبت أن أطرح ما علق بذهني من آراء غيري ، وان اتخلص منها جميعها دفعة واحدة . ثم أسترشد بعقلي ، وأوفق بعد ذلك بين ما يمليه عليّ ، وبين ما اكتسبته من معارف ومعلومات . »

لقد أُرشدنا ديكارت نفسه عن المنبعين اللذين استقى منهما فلسفته وهما أحلام المنام ، والتأملات العقلية المجردة . فلا غرو إذا لم يمدد ذلك المنبعان إلا بخواطر ميتافيزيقية لا نفع فيها ... ولكنه لم يكتف بهما في بناء فلسفته الدنيا إذ حاول أن يتجه فوق ذلك الى مصدر ثالث هو العلم ، وسيرد شرح اتجاهه هذا في حينه . وإذا كان النهج العلمي لم يسعفه ، فما ذلك إلا لأنه لم يعرف كيف يفيد منه ، ولأن العلم لم يكن قد تقدم في ذلك الحين التقدم المسعف المفيد ...

يقول إنه لم يعتمد في طلب الحقائق إلا على عقله ، ولم يسمح له ، أي لعقله بأن يرجع الى مصدر يستقيها منه إلا أحلامه ، فطوى كتيبه التي بلبت افكاره ، وأغض عينيه ، وسدّ أذنيه ، وعطل سائر حواسه حتى لا تخدعه ، ولا يموّه عليه قصورها الحقائق ، وراح يغوص في أغوار عقله بحثاً عما ينشده ، متخذاً من حيطات غرفته الدفئة سداً يحول بينه وبين العالم الخارجي . وهكذا جاء لنا بنسج ذهني بديع الصنع ، ولكن نسيجه لم يخرج عن كونه وهماً لا مادة فيه على حد تعبير الفيلسوف بكون .

استبعد هذا الفيلسوف من ذهنه كل معتقداته المكتسبة السابقة ، وجلس يبحث عن حقيقة في الوجود يستطيع ان يتثبت من صحتها تثباً يقينياً . فلا غرابة في أن يتجه ذهنه في تلك الغرفة التي لا تضم سواه الى نفسه . وهكذا اهتدى الى حقيقة الاولى وهي أن شكه يدل على أنه يفكر ، وما دام أنه يفكر فهو موجود !! ولكن هذا الوجود لا يتعدى عقله الذي يفكر ، فهل جسمه موجود أيضاً؟! .. وهنا يدرك حقيقة جديدة كما يقول ، هي « أن العقل يتجه من الفكرة الى الشيء ، لا من الشيء الى الفكرة عنه . فمعرفة الشيء عن طريق الفكرة عنه ، سابقة على

افتراض وجوده ، أو الجزم بوجوده . فلولا الفكرة لما أدركنا وجوده إدراكاً مباشراً .
فنحن لا نطمئن إلا إلى الأفكار سواء أ كانت عقلية مجردة ، أو متعلقة بالكائنات
المادية !!! »

وهو يقول عن الفكرة التي تحدث عنها إنها القيمة الذاتية لمعرفة ، ولذلك
أراد أن يتدرج إلى القيمة الموضوعية التي يقول عنها إنها الفكرة عن الله . ومما كتبه
في هذا الصدد : « إذا كانت فكرتي عن الخالق هي جماع ما لا نهاية ، وجماع كل
كمال ، فلا يمكن أن أكون قد ابتدعتها أنا الناقص القاصر الذهن ... لا بد أن
يكون الله هو الذي ألقاها في روحي ... فهو إذن موجود ... »

وقد أفاض في شرح هذا الرأي ، وساق أدلة عقلية على غرار ليزيده تأييداً .
ومن الواضح أنه استقى أدلته هذه من معتقداته السابقة التي زعم أنه بَتَّ كل صلة
تربطه بها ... استقهاها من مذهب سقراط الفلسفي ، ومن التفسير الكاثوليكي
للعقيدة المسيحية ، فإن كلا منهما يقول إن الحقيقة كامنة في أعماق النفس ، وما على
من ينشدها إلا أن يغوص عليها هناك ... ولا نحسب القارئ الذي شرحنا له
التفكير الميتافيزيقي في الفصول السابقة في حاجة إلى دحض فلسفة ديكرت العليا
المغرقة في الميتافيزيقية .

فلسفة ديكرت الدنيا

انتهى ديكرت بمنطقه العقلي إلى التسليم بوجود الماديات في عالم الواقع مستقلة
عن عقله لأن الله الكامل الصفات لا يمكن أن يضل الإنسان فيوهمه بوجود شيء
غير موجود . وقد سلم هذا الفيلسوف - مشاركاً في ذلك هو برونو - بأن حواس
الإنسان القاصرة تحدده فلا تكشف له الوجود المادي على حقيقته . ولكن الله عوضه

عن هذا النقص بعقله القادر على كشف الحقائق المتوارية وراء الظواهر الخساعة .
فالعقل وحده هو الذي يستطيع فهم الوجود على الوجه الصحيح...!! وعلى هذا
الأساس حاول ديكارت الوصول الى حقيقة الكون .

وقد أراد ان يسترشد بالعلم للوقوف على نظام العالم . وأشاد بعض مشاييعه بهذا
الاتجاه زاعمين أن فيلسوفهم سبق سائر الفلاسفة الى الاسترشاد بالعلم لفهم الحقائق .
ولكننا لمذا دققنا في طريقة استعائته بالعلم للوصول الى هدفه لوجدناها ميتافيزيقية
كغيرها من طرق بحثه ، فهو لم يتبع السبيل الواقعي السليم . لم يحاول دراسة
الكشوف العلمية التي أثبت الاختبار الواقعي صحتها ، واستخلاص نتائجها الفلسفية
منها ، ولكنه حاول تفسير الوجود تفسيراً ذاتياً ، مسترشداً بكشوف العلوم التي كانت
مزدهرة في عصره ، وهي علوم الرياضة والفلك والهندسة الميكانيكية . لقد رأى أن
العلوم عقلية ، أي ان العقل هو الذي يستطيع الوصول الى أسرارها بالتأمل
والتفكير ، فإذا توصل الى إدراك قوانينها استطاع أن يدرك نوايس الوجود قياساً
عليها . وسار على هذا النهج فقال إن الأجسام الحية تتألف من أجزاء تعمل في تناسق
وفق قوانين الحركة ، وان الماديات المتحركة تخضع كذلك في حركتها لنوايس لا
تختلف ، وتتبع نظاماً لا يختل ، ونحن نستطيع ان ندرك ذلك بالرجوع الى علوم
الطبيعة والفلك ... ثم استخلص الفيلسوف من ذلك أن أساس هذا الوجود هو
حركة أجسامه المتكررة على نظام ميكانيكي لا يختل .

ولزيادة نظريته هذه إيضاحاً نبداً شرحها من حيث بدأه . لقد رأى كما رأى
هوبز ولوك ، أن الصور التي تنطبع في ذهن الانسان عن الموجودات بواسطة حواسه
ليست مطابقة لأصلها ، أو ليس لديه على الأقل الدليل على مطابقتها له .

ولكن إحساسه يدلّه على وجود حقائق كامنة وراء تلك الظواهر البادية له ...
هذه الحقائق تستعصي إلا على الإدراك العقلي !!!..

وقد رأى كذلك - مجازاة للفيلسوف هوبز وغيره ، ان يقسم صفات الاجسام الحسّية الى أولية وثانوية . فالأولى في زعمه هي الثابتة الواضحة في ذهننا ، غير المحتاجة الى أعمال الفكر لادراكها . هي الصفات الشكلية غير المتخلف عليها . واما الثانية فهي الخاضعة للتقدير الذاتي ، غير الثابتة على حال . هي الصفات الطبيعية للأشياء كالرائحة والمذاق والألوان وغيرها . وإذا كان تقسيمه هذا يبدو مبنيّاً على أساس جديد ، فهو لا يخرج في مضمونه عن التقسيم القديم المشار اليه .

وقد أراد أن يصل الى حقيقة الوجود بامتحان من ناحية صفاته الأولية ، أي من ناحية الشكل !!!.. فرأى ان أشكال الأجسام تتغير على وتيرة واحدة ، هي الامتداد طولاً وعرضاً وعمقاً . وضرب لذلك مثلاً بالشمعة حين تذوب !!!.. ولا داعي للأسهاب في شرح هذا المذهب ، فان لدى القارئ الآن من معلومات عن الفلسفة المثالية ما يغني عن ذلك . وعليه نوجز فنقول : انه ، اي ديكارت ، يرى ان امتداد الأجسام هو نتيجة لحركتها . ثم يبحث عن منشأ الحركة ، او القوة المحركة ، فيأبى مجازاة أرسطو في نسبتها الى الخالق على النحو الذي ارتآه ، ويزعم - اي ديكارت - ان الله المتعالي لا يمكن ان يشغل بادارة عجلة الوجود على الدوام . والحقيقة حسب زعمه ، ان الله بثّ الحركة في الوجود دفعة واحدة يوم أبدعه من العدم ، فظلت تدور على النحو الذي اراده بارئها دون أن تتوقف ، ودون أن تنقص مثقال ذرة أو تزيد !!!.. ظلت تنتقل من جسم الى جسم وهي مساوية لنفسها على الدوام . فاذن الأجسام تتشكل بقوة دفعها امتداداً في مختلف النواحي

حتى تضمحل وتموت . ويجري ذلك كله وفق النواميس الطبيعية التي شرعها الله ،
وفرض بقاءها ثابتة لا تتغير . هذه النواميس صممت على أساس رياضي هندسي لا
يغيب على المتأمل .

هكذا انتهى ديكرت الى حسابان الوجود آلة ضخمة تتحرك أجزاؤها
وفق تصميم هندسي ، وعلى نظام ميكانيكي محبوك ، لا يتناوله اي تغيير ، ولا يجد
فيه جديد . واذا كانت هذا التفسير للوجود بادي الخطأ اليوم في نظر الملم بأسس
الواقعية ، فانه مما لا يجوز انكاره ان فلسفة ديكرت كان لها فضل في سرعة تحرر
المفول من قيود المعتقدات المتينة التي كانت مفروضة عليها فرضاً ، وان تلك الفلسفة
سبقت الى خوض ميدان الاجتهاد ، فكانت في زمانها مرحلة جديدة من مراحل
التطور الفكري ، وتمهيداً أولاً لظهور الفلسفة الواقعية .

عود الى برتراند راسل

يستطيع القارئ الذي يحاول الآن المقارنة بين الفلسفتين التجريبية والعقلية من
ناحية ، وبين منهج راسل من ناحية أخرى أن يتبين كيف نسج هذا الأخير منهجه
من خيوط تينك الفلسفتين ، لقد حاول أن يمتص ما يحتويه كلاهما من شهد ، ويذر
الشمع ، فيطلع على العالم بخلاصة الفكر المختارة . وعلى ذلك نراه قد جرى التجريبيين
فيما قرروه من أن التجربة المادية هي مصدر معارف البشرية ، ولم يختلف معهم الا
فيما فرضه عليه تقدم العلم . فبينما ذهب التجريبيون الى ان الحواس هي الوسيلة الوحيدة
للتجربة ، اذا هو يضيف العلم اليها ، ويقول عنه انه هو الذي يضطلع بكشف
الحقائق .

ثم ان راسل جرى الفلاسفة العقلين كذلك في قولهم ان العقل وحده هو الذي يستطيع

التمييز بين الخطأ والصواب ، وهو الحكم الأخير الذي يرجع اليه للتحقق من صحة النتائج التي تصل اليها العلوم . ولكنه خالفهم كذلك في مسأله جزئية ، فلم يسلم للعقل بمطلق الحرية في الحكم على الاشياء ، واستخلاص الحقائق ، بل قيده بالمنطق الوضعي . فالعقل عنده يصبح أقدر من العلم على التمييز بين الحق والباطل في حالة استعانتة بمعادلات المنطق !! . هذه هي فلسفة راسل البعيدة عن كل أصالة رغم تفاخر صاحبها ، وطنطنة مشاييعه بأنها أتت بالجديد المعجز الذي غاب عن كل عقل آخر . وان دلّ هذا على شيء فهو يدلّ على ان الفلسفة المثالية بلغت غايتها على يد أئمتها القدامى ، وان كل ما يكتب فيها اليوم معاد ، وان الاشادة في هذا العصر بأمثال راسل الانجليزي ، وبرجسون الفرنسي ، بالرغم من أنها يكرّران ما قاله سلفهم من الفلاسفة المثاليين ، لا يقصد منه الا النفخ في روع تلك الفلسفة المتداعية ، والمد في أنفاسها الاخيرة المتهافنة .

أثر فلسفة ديكارت

علمنا ان رجال الحكم في أوروبا ، يؤيدهم رجال الكنيسة ، حرصوا في أواخر العصر الوسيط وأوائل العصر الحديث ، على الحيلولة بين شعوبهم وبين التحرر من أسر الجهل ، فاضطهدوا العلماء والمفكرين ، وأرسلوا بعضهم الى السجن ، وبعضهم الى المقصلة . وكان ديكارت ممن تعرضوا للاضطهاد رغم وقف الجانب الاكبر من فلسفته العليا على التنقيب عن مختلف الادلة على وجود الله . ذلك لأن فلسفته الدنيا كانت في عصره ثورية . فقد قلنا انها كانت ثورة على تحكم المعتقدات القديمة في العقل الاوربي ، وتعطيلها للملكة تفكيره . وكانت ثورة على المثالية المتطرفة ، غير المؤمنة بوجود الواقع المادي خارج عقل الانسان ، ذلك لأن ديكارت جهد في

التدليل على واقعية العالم المادي ، وحاول تفسير الوجود مادياً . وإذا كان سيكون قد سبقه كما قلنا الى المناذرة بضرورة البحث عن الحقائق في الواقع المادي لا في بطون الكتب ، ومسبقه أيضاً الى التسليم بواقعية الوجود المادية ، فإن أتباعه وخلفاءه انحرفوا بفلسفته عن طريقها المستقيم ، فأعجزوها عن ان تؤتي ثمارها . بعكس خلفاء ديكرت الذين ظلوا يستمعون في بحوثهم الفلسفية على العلم ، حتى تقدمت الفلسفة على ايديهم ، واستطاع الفيلسوف ديدروان يصل الى ابواب الواقعية ، ويطرقها بعنف ويكاد يفتحها على مصراعيها . ولذلك يقدر الواقعيون فلسفة ديكرت بحسانها قفزة من مرحلة الى مرحلة في طريق تطور الفلسفة وتحولها الى الواقعية .

على ان المثاليين يبرزون الواقعيين في احتفالهم بفلسفة ديكرت . ولكنهم لا يعدونها مرحلة من مراحل التطور ، بل يعدونها نهاية المطاف في عالم الفلسفة قاطبة . فمنهجها في نظرهم اسلم منهج للوصول الى الحقائق ، وتفسيرها للوجود اصدق تفسير . ويرجع ذلك كما قلنا الى انها تعد رجعية في العصر الحاضر ، والمثاليون هم انصار الرجعية وحماها . انهم يشيدون باتجاهاتها التي تلائم اتجاهاتهم وتأييدها . فالاعتماد على التأمل العقلي وحده في تفسير الوجود ، وقصر التطور على الشكل دون المضمون هما عماد الفلسفة المثالية ، وهما الحصن الذي يصون نظرية التأمل العقلي المجرد ، ويعوق كل بحث جدّي في سبيل الوصول الى المعارف الحقّة . ومن ثم صمّم المثاليون على الوقوف عند حدود الفلسفة الديكارتية فلا يتقدمون عنها خطوة واحدة .

ويكفي لتأييد وجهة نظرنا ان نشير هنا الى النتيجة التي وصلت اليها فلسفة ديكرت في بحوثها الاخلاقية . فقد قرر ذلك الفيلسوف ان سلوك الانسان يجب

ان يتجه الى قهر نفسه ، واخضاع رغباته لاوضاع الحياة ونظمها ، بدل محاولة قهر
القدر في سبيل تحقيق رغباته !!...

الاتجاه الفلسفي بعد ديكارت

كان من اثر اليقظة العقلية في فرنسا ايام ديكارت ، وخلص العقل من اسره
ان تطور البحث الفلسفي الى نقد للاوضاع والنظم والمعتقدات التي كانت سائدة
حينذاك . واستمر صراع عنيف بين اهل الفكر التقدمي وبين الرجعية عانوا خلاله
الوان الحن ، وتعرضوا لانواع الاذى . ثم تطور النقد الى مهاجمة عنيفة لتلك النظم
والمعتقدات . وبثت هذه الحملات الفكرية الامل في تقويض اركان الاوضاع
الجائرة السائدة يومذاك . وهكذا اخذ الجانب الجامد في فلسفة ديكارت ينهار اذ
ظهر للمفكرين فساد دعوته الى ضرورة قهر الانسان لنفسه، واذعانه للقدر الذي لا قبل
له بمقاومته !! وسائر العلم الفلسفة في تقدمها ، واستعان كل منهما بالآخر في سبيل
الازدهار ، وافاد من تقدمه . وعلى هدي تلك الاضواء المنبثقة في اوربا استطاع
الفيلسوف الفرنسي ديدرو ان يخطو خطوة جديدة في عالم المعرفة ، وان يتنبه
الى تطور الاحياء ، وانواع الاحياء ، والكائنات غير الحية بالمقارنة بين ما كان عليه
الانسان الممجى الاول، وبين ما طرأ عليه من تغير موضوعي في عصر الحضارة . ثم
تبين ذلك الفيلسوف كذلك تطور المجتمعات، والتفاعل المنطوي في كل موضوع وكل
واقعة ... وقد سبق في بحوثه هذه لامارك وداروين ، فأثار بذلك الطريق امام
الفيلسوف الالماني هيجل ، واشترك مع ذينك العالمين على معاونته في وضع
فلسفته الجدلية .

وكانت فلسفة هيجل تنطوي على جانب مثالي ، بل ان جدليتها الواقعية كانت

تقوم على اساس مثالي ، وتستهدف اهدافاً مثالية . فانبرى لها الفيلسوف فيورباخ
المادي الاتجاه ، فخلصها من شوائبها المثالية ، وابرز قيمتها الواقعية المادية ، ففتح
بذلك الطريق فسيحاً ممهداً للوصول الى الفلسفة الواقعية السليمة .

استفحال الفردية

كانت اليقظة الفكرية التي عمل ديكرت على سرعة نمائها نذيراً بقرب انهيار
النظام الاقطاعي في فرنسا ، واندثاره في سائر الاصقاع الاروبية . وقد زاد التقدم
العلمي والفلسفي شعور أهل الفكر بكرامتهم التي أهدها الاشراف ، وقدرهم
الذي انكروه عليهم . فاشتد الصراع بين الفريقين حتى شارف على نهايته حين
اندلعت الثورة الفرنسية ، وأذنت بفوز الطبقة المتوسطة بحريتها ، واستيلائها على
زمام الحكم

اشتدت ثقة قادة الفكر بأنفسهم بعد أن انتهى ذلك الصراع بانهيار
الوضاع التي فقدوها ، وانتصار المعتقدات التي بشروا بها . وبدا لبعض الناس أن
الفضل في ذلك الانتصار يرجع اول ما يرجع الى اولئك المفكرين . ثم لمعت اسماء
طراز آخر من الرجال هم ملوك الصناعة والتجارة . وبدا لبعض الناس كذلك ان
أولئك المردة من رجال المال خلقوا الغنى والجاه بمجهودهم الفردية . وحقق الجيش
الفرنسي بقيادة نابليون انتصاراته الحربية المعروفة ، فنسب بعض الناس فضل تلك
الانتصارات الى القائد وضباطه . ودفع الملق بعض حملة الاقلام الى المبالغة في تمجيد
اولئك السادة والخط من شأن سواد الناس الذين هم عماد النهضات . وبلغ من
اغراق اولئك الكتاب في المبالغة ان مسخروا التاريخ فقالوا انه لا يخرج عن كونه
وقائع بطولة حققها افاذا الرجال ، غافلين او متغافلين عن ان اساس تطور التاريخ

هو صراع بين المستغلين (بكسر اللام) والمستغلين (بفتح اللام) وانتصارات
الشعوب في سبيل الحرية ، وتطور النظم السياسية والاجتماعية تبعاً لذلك .
وهكذا انتهى الايمان بالعقل الفردي ، ونسبة كل نجاح اليه ، انتهى الى تقسيم
البشرية مرة اخرى الى سادة وطعام ، وثبت الوضع الذي استهدفته العصامية وهو
ان تخلف الاشراف في السيادة .

الفصل السادس

اسس الفلسفة الواقعية

تعريف الفلسفة الواقعية

لا بد أن القارئ قد كون من قراءة الفصول السابقة فكرة عامة عن الفلسفة الواقعية ، مستخلصة من شرحنا للفلسفة الميتافيزيقية واتجاهاتها . وسنحاول هنا أن نزيد تلك الفكرة جلاء بتعميقها وتوسيع آفاقها حتى تتحقق الفائدة .

تستهدف الفلسفة الواقعية تفسير الوجود ، أي الكون والكائنات ، على اساس علمي . ومعنى هذا أنها تستعين على فهم الوجود بالكشوف التي يتوصل اليها كل علم في ميدانه ، ثم تستشف الصلة التي تربط بعضها ببعض ، ورد فعل بعضها في بعض وتأثر البشر بها وتأثيرهم فيها ، وتطورها منفردة ومرتبطة بغيرها وبظروفها وملابساتها ، ونواميس تطورها وتطور تلك الظروف والملابسات .

ونستخلص من هذا أن الواقعية ترفض طريق التأمل العقلي لادراك الوجود ، تلك الطريقة الميتافيزيقية التي تحاول تفسير الوجود بالآراء ، والنظريات التي يخترنها العقل بالسماع دون تطبيق واقعي . فالتأمل العقلي ليس الا استرشاداً بالآراء السابقة غير المحققة ، على الرغم من أن الفلاسفة المؤمنين بقدرته على فهم الوجود يزعمون أن في مقدورهم تلميع تأملهم من كل رأي مكتسب . ذلك لان قدرة عقل الإنسان على التأمل متولدة مما اكتسبه من آراء ونظريات سابقة ، وخطوات

تأمله واستنباطه تعتمد عليها .

ونستخلص أيضاً أن الواقعية ترفض التسليم بما يقرره الميتافيزيقيون من أن الانسان لا يدرك الوجود إلا على النحو المائل في ذهنه . أي أن الوجود الذي يدركه هو المرتسم في ذهنه لا الوجود خارجيه . فهي تؤمن بالوجود المادي الواقعي على أنه موجود خارج عقل الانسان ومستقل عنه ، وتعمل على تفسيره تفسيراً واقعياً ، حسبما هو موجود خارج عقل الانسان ، اي حسبما هو موجود بالفعل ، لا حسبما يتمثله الفكر المجرد . وتستعين على ذلك بمنهجها العلمي . . . هذا هو معنى تفسير الوجود تفسيراً علمياً .

ويرى الواقعيون بناءً على ما تقدم أن أفكار الانسان ومعتقداته تتولد من الواقع المادي ، وتتكيف وفق مقتضاه ، متأثرة به ومؤثرة فيه . على عكس ما يقرره الميتافيزيقيون من ان الفكرة تخلق الواقع ، أو أنها تصوره على غرارها ، أو تكيفه وفق مقتضاها . فالواقع في نظر الاولين سابق على الفكرة وخالق لها ، او موح بها ؛ والفكرة في نظر الآخرين سابقة على الواقع وخالقة له ، او موحية به . وعلى ذلك حرص الواقعيون على ربط النظرية بالتطبيق الواقعي ، بينما عزل المشاليون النظرية عن الواقع .

ولم تكتف الفلسفة الواقعية بالعمل على تفسير الوجود المادي ، ولكنها تمكنت بمنهجها العلمي في البحث ، من الوقوف على ناموس التطور البشري ، أي تطور نظم المجتمعات ومعتقداتها وآدابها وفنونها ، وعلاقة ذلك بتطورها الاقتصادي والاجتماعي ، فاستطاعت أن تفسر التاريخ تفسيراً واقعياً سليماً . وسيتأتي شرح ذلك تفصيلاً في حينه .

المنطق الوضعي والمنطق الواقعي

يستطيع القارئ ان يرى الفرق بين الميتافيزيقية و بين الواقعية بوضوح اذا امتحن كلا من المنطق الوضعي والمنطق الواقعي امتحاناً تطبيقياً . فمثل هذا الامتحان كفيل بأن يوضح لنا زلل التأمل المجرد الذي يؤمن اصحابه بالنتائج التي يصل اليها دون اختبار صحتها بتطبيقها على الواقع ...

اذا قال قائل ان « هذه الشمعة موقدة » فهو يقرّر واقعة يمكن التثبت من صحتها بالقاء نظرة على تلك الشمعة . ويرى اهل المنطق الوضعي ان ما قرّره ذلك القائل لا يخرج عن احد امرين ، فهو اما صحيح ، وإما غير صحيح . اي ان تلك الشمعة اما ان تكون موقدة ، واما ان تكون غير موقدة . ولكن مثل هذا المنطق جامد لغفلته عن التطور . فهو لا ينظر الى ابعد من الحالة الموقوتة الماثلة امامه . لقد درج على اغفال تطور الأشياء فلم يدخلها في نطاق بحثه . فهو لا يهتم بأن هذه الشمعة لا تلبث ان تنطفئ ، و بأن الشمعة نفسها لا تلبث ان تتواري ، و بأنه قد يحدث ذلك قبل صياغة معادلاته المنطقية . ولعل ما نقصده يبدو اكثر وضوحاً اذا خطونا بذلك المثل خطوة اخرى بقولنا « كما ازداد الضوء ازدادنا قدرة على الابصار » او قولنا « كما استغرقنا في النوم ازدادنا راحة » فهل مثل هذا المنطق صحيح ؟... لا شك أن الجواب ظاهر .

فالضوء يعيش العيون اذا تجاوز حداً معيناً . والنائم المتعب يستمتع براحة النوم الى حد الاكتفاء ، ثم تنقلب راحته الى ضيق فارهاق موت . كذلك قول القائل العطشان « كلما شربت ازدادت ارتواء » فهذا القول كذلك لا يصدق على إطلاقه . ولا بد ان المناطقة سيجيبون على اعتراضنا هذا بأنهم لم يغفلوا عنه ، فالواقعة لا

تكون صحيحة عندهم الا في وقتها المحدود ... ونحن نسلم بأن هذا لم يغيب عنهم نظرياً . ولكنهم يغفلون عنه واقعياً وفق ما شرحناه سابقاً .

على ان الذي يحله المنطق الوضعي ، لأنه منطق نظري بحث ، هو ان الانسان قد يقرر واقعة تكون صحيحة وغير صحيحة في نفس الوقت . ونحن نضرب الامثلة الآتية لما نقول .

دأب الانكليز في فترة احتلالهم لمصر على مقاومة ثورة شعبها عليهم بالحديد والنار . فكانت هذه الخطة تثبت اقدام الاحتلال بדרء الخطر عنه ، ولكنها مع ذلك كانت تزلزل اقدامه ، وتزيده تعرضاً للخطر في نفس الوقت .

والدولة التي تتأدى في التسليح السماساً للقوة والامن تستثير مخاوف جيرانها فتحملهم على مجاراتها في التسليح ، وتتعرض بذلك للخطر ، فهي بعملها الواحد تدرأ الخطر وتعرض نفسها له في عين الوقت .

والأمير او الحكومة التي تستعين بدولة اجنبية على معارضة شعبها لحكمها توطد سلطانها وتزعزعه كذلك في نفس الوقت .

اشباه هذه الامثلة لا عداد لها في عالم الواقع . بل ان كل ما في الوجود ينطوي على وجهه الظاهر وتقيضه الخفي ، فهو بذلك يضم التقيضين في نفس الوقت . وبناء على ذلك يكون الفرق الاساسي بين اتجاهي كل من علماء المنطق الوضعي والواقعيين ان معضلات الأولين عقلية يعتمدون في حلها على البديهة وحدها . بينما لا يجنح الآخرون إلى الفكر المجرد . فان تصورهم مستمد من عالم الواقع ولذلك يمكنهم من ادراك التناقض وتفاعله المحتدم طي كل واقعة وكل فكرة ، كما يمكنهم من الوقوف على الدور الرئيسي الذي يلعبه ذلك التناقض في تطور ماديات الوجود ومعنوياته .

ان كل حقيقة في نظر الأولين عبارة عن نتيجة عقلية مستخلصة من معادلة منطقية سليمة التركيب ، متراسة البنيان ، ويمكن اثباتها بتطبيق قواعد التطابق والتناقض دون ما التفات الى ما تنطوي عليه من وجهات نظر متناقضة متفاعلة يظل بعضها يصدم بعضاً في عالم الواقع حتى تنتهي الى التطور . ولكن الآخرين يقتفونها كما قلنا في واقع العالم المادي ، ويتبينون صحتها من ثنايا ذلك الواقع بعد دراسته دراسة علمية ، وتفسيره تفسيراً علمياً .

معنى كلمة « ميتافيزيقا »

هذه الكلمة يونانية قديمة ، وهي في الواقع مركبة من كلمتين ، الاولى « ميتا » ومعناها في تلك اللغة القديمة « ما بعد » او « ما وراء » والثانية « فيزيقا » وهي معروفة ، مستعملة الى اليوم في اللغات الحية ومعناها الطبيعة . ومن هذا التركيب نستطيع ادراك المعنى المقصود من الفلسفة الميتافيزيقية . فهي تبحث فيما وراء الطبيعة ، اي في عالم الغيب الخارج عن نطاق الوجود الواقعي .

وتنسب هذه التسمية الى تلاميذ ارسططاليس الذين قاموا على تدوين مؤلفات استاذهم بعد موته . فقد وجدوا بعد تبويب بحوثه في علوم الطبيعة اعمالاً فلسفية خاصة بالروح فاطلقوا عليها اسم « ميتافيزيقا » .

واذا كان لهذه التسمية ما يبررها في العصر القديم الذي عجز فلاسفته عن تفسير الكثير من ظواهر الوجود لقصور العلم عن القيام بتلك المهمة حينذاك ، فان تمسك الفلاسفة المثاليين المحدثين باستعمال تلك التسمية ، واصرارهم على مواصلة البحث في القضايا الفلسفية المعنونة بها ، متبعين منهجها غير العلمي ، رغم تمكن العلوم الحديثة من القاء الاضواء الكاشفة على مجاهلها ، ثم تمكن الفلسفة على هدي

تلك العلوم من تفسيرها علمياً ، ان هذا الاصرار لا يدل الا على استطابة خفافيش العصر الحاضر العيش في الظلام ، وعلى ايثارهم تحقيق أغراض الحكومات الرجعية التي لا تجد وسيلة للاحتفاظ بسلطانها العاشم افضل من المد في اجل الجهل بدل اعلان الحقائق مجلجلة ، والعمل على نشرها لرفع غشاوة الجهل التي رانت على العميون والعقول تلك الاحقاب الطويلة .

ان في كلمة « ميتافيزيقا » تفسيراً واضحاً لاتجاه فلسفة معتنقيها الذين ما زالوا يستمسكون في تفكيرهم بأساليب عصر الظلام ، فيلجأون الى مجاهيل ما وراء الطبيعة الواقعية بحثاً هناك بوسيلة التأمل المجرد عن تفسير الواقع ، بدل الاتجاه اليه نفسه ، ومحاولة تفسيره علمياً .

معنى عبارة «التفسير العلمي»

نستطيع أن نفهم مدلول هذه العبارة بالرجوع الى ما يتبعه العلماء حين يضعون أية مادة تحت الاختبار في معاملهم . فهم يتجهون اتجاهاً مباشراً الى الجسم المادي المراد اختباره . أي أنهم لا ينصرفون عن ذلك الجسم بالاستغراق في تأمل عقلي عميق لادراك حقيقته ، والوصول الى النتائج التي ينشدها منه . ولكنهم يتبعون طريقة البحث العلمية التي تتلخص في تحليل ذلك الجسم للوقوف على العناصر التي يتألف منها ، ثم دراسة ما يحدث بين عناصره من تفاعل ، والتطور الذي يطرأ عليه وناموس ذلك التطور ، والصفات الجديدة التي يكتسبها نتيجة لذلك ، والخصائص المتولدة من تلك الصفات الجديدة ، والتحول الذي ينتهي اليه آخر الامر . ويتم ذلك بعد تمحيصه وتحليله ، بأجراء مختلف التجارب عليه ، وذلك برفع حرارته ، أو مزجه بغيره من المواد . . . وتسجيل ما يترتب على ذلك من اثر في مختلف

الحالات ، والمقارنة بينها ، ثم استخلاص النتائج المنشودة .

هذا مجمل الطريقة العلمية العملية التي درج العلماء على اتباعها فأسفرت عن رفع النقاب عن كشف العلم . ولم تعد صحة النتائج الملموسة التي توصلت اليها تحتاج الى دليل بعد ان قلبت اوضاع العالم في العصر الحديث .

والفيلسوف الذي يحرص على اتباع هذه الطريقة ، لا داخل المعمل ، ولكن بالاختبار العقلي المعتمد اعتماداً كلياً على التجربة الحاسية ، ونتائج الكشف العلمية ، مثل هذا الفيلسوف هو المنتمي الى المدرسة الواقعية ، وهو وحده القادر بهذه الوسيلة العلمية على تفسير الوجود تفسيراً صحيحاً .

الحقيقة المطلقة ، والحقيقة النسبية

حين تأخذ أصالة الفلسفة الواقعية وسلامة منهجها بتلايب المثالي الميتافيزيقي يحاول أن ينال منها بقوله إن كل حقيقة في الوجود نسبية ، غير خالصة ، أي أنها تشتمل على جانب من الصواب وجانب من الخطأ ، والفلسفة الواقعية ليست بمنجاة من هذا الحكم ، فهي كغيرها من المذاهب تتضمن ذلك الجانب من الخطأ الذي لا يسلم منه شيء في الوجود . فعلام الاصرار على وصف غيرها من المذاهب الفلسفية بالاغراق في الخطأ ، وتزييفها هي عنه !! وقد رددنا على هذا الزعم في الفصل الأول من هذا الكتاب فقلنا إن الفلسفة الواقعية لا تطالب الناس باعتراف حقائق تقدمها لهم جاهزة على أنها صائبة لا يعتورها الخطأ ، ولكنها تضع لهم منهجاً واقعياً يمكنهم من ملاحظة حقائق الوجود المتطورة ، وإدراك اتجاهاتها ، والاستعانة بالنتائج التي توصل اليها العلم لفهمها على حقيقتها . وصحة هذا المنهج هي التي نعدّها اليوم مطلقة ، لأن النتائج التي يسفر عنها تطور الواقع تنطبق دائماً على ما يستشفه

المنهج الواقعي من نتائج .

ونزيد على ما تقدم أن الواقعية تؤمن بأن الحقيقة المطلقة موجودة في عالم الواقع لا في الأذهان ، وأنها تتكشف للناس شيئاً فشيئاً بتقدم العلوم . وتبني الواقعية هذا الايمان على ما يسفر عنه التقدم العلمي المطرد من غزو ملموس لمجاهل حقائق الوجود ، ولا شك أن هذا الغزو المطرد التقدم سينتهي آخر الأمر الى كشفها على إطلاقها .

إننا نلم بالحقيقة اليوم إلماماً نسبياً ، لأن علومنا ما زالت قاصرة عن الإلمام بها كلياً . ونظرة الى الوراء تبين لنا القدر الكبير الذي كشفناه الى اليوم منها . فمعرفتنا اليوم هي النسبية ، ولكنها ، أي معرفتنا ، مطلقة في ذاتها بالنسبة إلى عصرها ، وإن كانت نسبية بالمقياس الى المعرفة الكاملة .

الفلسفة والعلوم

ظل تقدم العلوم منذ أواخر العصر الوسيط ينال من صرح الفلسفة التي كانت متحكمة في العقول آنذاك . ولما كان تقدم العلوم يقوّض الفلسفة المثالية باطراد ، تلك الفلسفة المناقضة للتطور والتقدم ، المناهضة للثورة الفكرية ، فقد رأينا رجال الحكم ، منذ أواخر القرن الوسيط ، يناصرون العلم العداء ، ويضطهدون العلماء ، ويسفّهون كل كشف علمي جديد ، متذرعين بأنه كفر وبهتان . ولكن رجال الحكم ، وذوي النفوذ والسلطان ، ولا بد أن ندخل الفلاسفة المثاليين في ركبهم ، اضطروا الى تعديل خططهم بعد ان ساهم العلم بنصيب اوفى في دفع التطور الحضاري الحديث الى التقدم ، وذلك بما أدى من خدمات في ميدان الإنتاج الذي فازوا هم من خيراته بنصيب الاسد ، فحاولوا حصر نشاط العلم في حدود ذلك الميدان ،

وراحوا يسفّهون ما أحدثه من تحوّل في الاتجاهات الفلسفية والفكرية ، ومن تبدل في المعتقدات التي ينفشها الجهل ويغذيها . ولم يلبثوا أن حمّلوه مسئولية الرذائل التي غرسها الجشع في نفوسهم ، فروّجوا بين الناس أنه السبب في التكالب الحديث على المادة وطغيانها على المعنويات الكريمة .

وقد بينا فيما سبق محاولات فلاسفة المثالية للتهوين من شأن العلم ، والجهود التي بذلوها ليفلسفوا ما روجوه من وجهات نظرهم الهدّامة . ولكن هذه المحاولات ستبوء بالفشل ، لأنها استمرار للاضطهاد الذي لاقاه العلم على أيدي الطغاة في عصور الظلام ، فلا بد أن تلقى نفس المصير وإن توسّلت بغير وسائله ، فمعالجة التطور تدور وتسحق كل من يقاومها .

الفكرة والواقع المادي

يختلف المثاليون والواقعيون في العلاقة بين الانسان وبين الفكرة . فينسب الأولون الفكرة الى موهبة في الانسان خلقة ، لا علاقة لها بجسده . بينما ينسبها الآخرون الى المخ وقد سبق لنا شرح ذلك . على أن اختلاف هؤلاء الفلاسفة الأعمّ يقوم على علاقة الفكر بالواقع المادي ، وإيهما سبق الى الوجود . فبينما يقول الاولون ان الفكرة هي التي تخلق الواقع المادي يقرر الآخرون أن الواقع المادي هو الذي يخلق الفكرة .

ولتقريب معنى عبارة « الفكرة تخلق الواقع المادي » الى ذهن القارئ نقول إن المثاليين يرون الانسان فيما يأتيه من اعمال ، وما يحققه من تشريع ومشروعات ، ينجح الى التأمل المجرد فيكون أفكاراً عن تلك الأعمال والمشروعات ، ثم ينفذ أفكاره . فتكون الأفكار في هذه الحالة هي التي خلقت الواقع المادي . أي أن نظم المجتمعات ، والنظم الاقتصادية ، والمشروعات الانتاجية والسلع والمدن

والشوارع والدور وغير ذلك من الماديات والمعنويات الواقعية التي حققها الانسان بدأت افكاراً مجردة خلقها ذهنه العبقريّ المبدع من العدم ، واذا هذه الافكار الخالقة تبعد الواقع الماديّ لدى تحقيقها . ولكن الواقعيين يعارضون هذا الزعم كما قلنا ، ويقررون أن كل ما ينبت في ذهن الانسان من أفكار ، مستمد من الواقع ، فذهنه يعجز عن تصور أي شيء لم يره في عالم الواقع . وكل ما يبدو من تصوراته غريباً عن ذلك العالم أو غير مستمد منه ، يرجع الى أن ذهنه قد يتخيل صورة يركبها من اجزاء جمع اشتاتها من صور أخرى ، او يتخيل صورة مجزأة من صور أخرى ، أو يبالغ فيما شاهده ، أو يتصور عكسه ، ولكنه لا يستطيع قط تصور شيء من لا شيء إن ذهن الانسان لا يشتمل إلا على صور تعكس الواقع ، ولا يستخلص حقائقه إلا بالطريقة العلمية التي شرحناها آنفاً .

ولا يحسبن القارىء أن قصد المثاليين من « أن الفكرة تخلق الواقع الماديّ » يقف عند هذا الحدّ على خطئه . فقد شرحنا ما تدور فلسفتهم حوله في هذا الصدد بإسهاب في الفصل الثالث ، وهو يتلخص في أنّ الذهن هو الذي يخلق الوجود الماديّ على الاطلاق . فجميع الصور التي تتمثلها عن ذلك الوجود يخلقها ذهننا أو تنطبع فيه بدافع اختلاج حواسنا . فالوجود المتمثل فيه من إبداعه هو أو من انطباع اختلاج الحواس فيه ، أما حقيقة العالم الخارج عنه فغير موجودة أو غير معروفة ... وتفصيل ذلك مدون بالفصل الثالث .

وقد يستهين القارىء بهذا الخلاف ، أو يحسبه شبيهاً بخلاف القائم حول الفرخة والبيضة وأيهما أسبق الى الوجود . ولكن الذي قرأ الفصول السابقة بإمعان يستطيع أن يدرك أنه ، أي هذا الخلاف ، هو المفترق بين طريق المثالية وطريق

الواقعية ، وهو الذي عزل الأولى عن الواقع فأضلها ، وأضاء للأخرى طريق الحقيقة فهداها إليها .

الفكرة في فلسفة هيجل

أما الفكرة عند هيجل فتختلف كل الاختلاف عما تعارف عليه الفلاسفة والمفكرون ، فهي ليست تصوّراً ذهنياً على النحو الذي قال به المثاليون ، وليست كذلك انعكاساً في الذهن للواقع الماديّ على نحو ما قرره الواقعيون . ولكنها ذات كيان مستقل عن الانسان ، موجود منذ الأزل في مكان غير معلوم . كانت كامنّة في أحشاء الطبيعة أثناء تحولات قواها الميكانيكية ، وحين كانت ، أي الطبيعة ، جماداً فحسب ، ثم حين أخذ النبات يطل من جوفها ، وحين جرى الحيوان على أديمها ، وتطور الى أن خرج الانسان من صلبه !!! ولم يقف هذا التخريف الميتافيزيقي بهيجل عند هذا الحد ، بل صور له أن تلك الفكرة كان لها هدف !.. هو الحرية !. فظلت تنشّد الانطلاق لتحقيق حريتها ، فتجسّدت في النبات مشرّبة من جوف الأرض الى العالم الطلق . ولكن جذور النبات قيّدتها بالأرض ، فاستطاعت أن تملص وتنطلق متجسدة في الحيوان ، غير أن الحيوان الذي لا يعقل لم يحقق لها الحرية فطوّرتّه حتى برزت في صورة الانسان الذي ظل يعمل ويطور نظمه ليحقق لها الحرية المطلقة التي تنشدها !!.

وهنا تتحول فلسفة هيجل المثالية الميتافيزيقية الى دعوة سياسية ، ويظهر هدفه النفعيّ جلياً إذ يزعم أن الفكرة وصلت الى غايتها ، أي الى الحرية المطلقة ، حين حقق لها الانسان نظام حكم الدولة البروسية في عهد فردريك غليوم الثالث . معنى هذا أن الفكرة هي التي طوّرت الجماد ، وهي التي خلقت النبات فالحيوان

فالإنسان خلقاً مباشراً في عالم الواقع . . . ويكون هجلاً قد وصل بالفلسفة المثالية إلى ذروتها في تفسيره « لمنطق التطور الواقعي » . لقد وصل إلى حقيقة التطور على نحو معكوس ، فكان لزاماً على الفلسفة الواقعية أن تقاب نظريته المذكورة لتقيمها على الوضع الصحيح . وهكذا استبانَت الأمور ، فالفكرة لم تسبق المادة إلى الوجود ، ولم تكن فيها وتطورها ثم تخلفها خلقاً جديداً . ولكن المادة هي التي تطورت حتى خلقت الفكر . فنظرة إلى التاريخ الطبيعي تدل على أن الطبيعة تدرجت في تطورها من عصر جمودها إلى النبات إلى عصر الحيوان فعصر الإنسان ... فاستطاعت في طريق تطورها إلى الأرقى أن تخلق الفكرة بواسطة مخ الإنسان الذي هو أرقى مراتب إنتاجها إلى الآن . وقد تطورت الفكرة بتطور الاقتصاد والنظم المتولدة منه ، والملائمة له ، متأثرة به ، ومؤثرة فيه تأثيراً متبادلاً مطرد النماء .

العامل الأساسي للتطور

قلنا إن كل شيء في الوجود ، سواء أكان جاداً أو نباتاً أو كائناً حياً ، لا يكف لحظة واحدة عن الحركة ، وأن تطوره متولد من هذه الحركة . وقد كان الفلاسفة ينسبون الحركة إلى قوة محركة خارجة عن الجسم المتحرك ، حتى أثبت العلم في العصر الحديث أن سبب الحركة يرجع إلى التناقض الكامن في الجسم المتحرك ، وكذلك التناقض الذي قد يكون محتدماً بينه وبين جسم آخر مرتبط به . وما ينطبق على الماديات ينطبق كذلك على المعنويات . فليس تذبذب النظم الاجتماعية والسياسية والمثل والمعتقدات ، وما يسفر عنه هذا التذبذب من تطور وتحول إلا نتيجة للتناقضات الكامنة فيها ، أي في تلك المعنويات .

وسنشرح في الفصل التالي نظرية « النقيضين الكامنين في مضمون الواحد »

وسنوضح أثر التناقض في تطور الماديات والمعنويات . وسنقتصر هنا على تأكيد تلك الحقيقة ذات الأهمية البالغة في المذهب الواقعي ، وهي ان الحركة والتطور والتغير والوقائع والثورات لا ترجع الى تلك الاسباب الخارجية التي ينقب عنها الباحثون المثاليون، ولكنها ترجع الى المتناقضات الكامنة طي الظاهر المتحرك والمتغير والناظر . أما الظروف والملايسات التي تبدو ذات الأثر الفعال في هذا الصدد ، فان أثرها في الواقع ثانوي ، لأنه يقتصر على زيادة التطور سرعة أو بطئاً . إنها ذات أثر في تكيف الكائنات ، لا في إيقاف تطورها . ولكن الانسان أخذ في الهيمنة عليها شيئاً فشيئاً ، وتكيفها وفق مصلحته ومشيتته ، بعد أن كان يتكيف هو وغيره من الكائنات لملاءمتها .

ولعل خير طريقة لايضاح ما ذكرناه هو ان نضرب له الأمثلة . فالأورخون المثاليون ينسبون الثورة الفرنسية الى عدة اسباب منها فساد الحكم وعلى رأسهم الملوك الاقطاعيون ، وازدياد بؤس الأهلين مع بذخ طبقة الأشراف ، والكشوفات الجغرافية ، والنهضة الاقتصادية وما أعقبها من نهضة فكرية دأب اصحابها على نشر المؤلفات ذات الطابع الثوري ، الى آخر ما تقبوا عنه من تلك الاسباب الثانوية ، والأسباب الخارجية عن مضمون الثورة الفرنسية . ولا نكران في أن الأسباب المذكورة كانت ذات أثر في الثورة ، ولكن ذلك الأثر كان مقصوراً على التعجيل باندلاع هيمها . أما السبب الأساسي في حدوثها فهو التناقض الذي كان نظام فرنسا الاقتصادي والاجتماعي والسياسي يشتمل عليه إذ ذاك ، أي انقسام الشعب الفرنسي الى طبقة اشراف استأثرت بامتلاك الارض وامتلاك الرقاب ، وطبقة الشعب المحرومة من نعم الحياة ، وكرامة الحياة . فهذا التناقض بين هاتين الطبقتين هو السبب الأساسي للثورة ، وكان لا بد أن يستفحل حتى تندلع نيرانها . وهو كامن

كما نرى في مضمونها . أما الاسباب الاخرى الخارجية التي يذكرها المؤرخون السطحيون فهي إما نتائج لذلك التناقض أو ظروف لم تؤد إلا إلى سرعة هبوب العاصفة . وعلى أثر اشتعال الثورة المصرية عام ١٩١٩ جاءت لجنة ملنر الى مصر لتحقيق في اسبابها . وراحت تدرس نظام الحكم البريطاني في مصر ، وتصرفات الموظفين البريطانيين فيها ، وحالة البلاد الاقتصادية ، وتنقّب في حدود هذه الدائرة عما كانت تسميه اسباب تدمير المصريين من الحكم البريطاني . وتركت الدافع الرئيسي للثورة . ذلك الدافع الذي كان يدركه كل مصري ، وهو التناقض بين الوطنية والاستعمار ، التناقض بين أتجاهي المستغلين - بكسر الغين - والمستغلين - بفتح الغين .

وقد اعتاد المفكرون وغير المفكرين أن يعزوا تقدّم الأمم وتأخرها في المضمار الحضاري إلى جغرافية بلادها . فالجو والموقع الجغرافي وكنوز الأرض وغير ذلك من الظروف ، يعد في نظرهم سبباً مباشراً لما تبغفه الامم من مستوى حضاري . وقد أوضحنا خطأ هذا الرأي في فصل سابق . ونحن نعود اليه هنا لنبين أن تلك الظروف لا تؤثر إلا في مقدار سرعة التطور لأنها ظروف خارجية ، اما اساس التطور فيرجع في كل بلد الى التناقض بين المنتجين وبين المستغلين (بكسر الغين) . وأما الصراع الدائر بسبب هذا التناقض فهو الذي يؤدي بطريق مباشر الى التطور والتغير . فقد أدى التناقض في عهد الثورة الفرنسية بين القوى المنتجة ومستغليها الى الصدام بينهما ، فأسفر ذلك عن وثوب البرجوازية الى الحكم ، وتقدم الانتاج بعد ذلك التحول السياسي ، ثم ازدهار الفكر بعد ذلك . أما الظروف الجغرافية فطائرة لا يلبث التقدم ان يكتسحها في سيره الى الامام . فيها نحن أولاء نسمع عن تزويد شوارع المدن الأوربية بالآلات تكييف الهواء التي تنفث في تلك المدن الحرارة شتاءً والبرودة صيفاً . والتقدم الحضاري المطرد كفيل بتعميم هذه الآلات في مختلف البلاد حتى يصبح

الجو غير ذي تأثير في صفات الشعوب . وقد أمكن الاستعاضة عن كنوز الأرض التي ساعدت بعض الأمم فيما مضى على التقدم بمواد كشف عنها حديثاً ، أو بمواد أمكن صنعها في المعامل على غرار تلك الكنوز . وهذه هي الطاقة الذرية مستغني عن ملايين الاطنان من الفحم والبترو ، وستقلب الاوضاع الاقتصادية رأساً على عقب . وهكذا تسير البشرية في سبيل تكييف الظروف كما قلنا لتلائم مصلحتها .

إن كل الموجودات ، سواء في ذلك المادي منها والمعنوي ، تنمو وتتغير باصطراع النقيضين فيها ، وهما النقيض الحيّ النامي ، ونقيضه الذي يقاوم نموه ، وهو جرثومة الفناء التي تنمو بدورها وتستفحل حتى تنهك نقيضها وتفترسه في النهاية ، فيتحول ذلك الموجود الى صورة أخرى .

ولا شك أن هناك أسباباً خارجية قد تقضي على ذلك الموجود قبل أن يدركه الموت الطبيعي فتحول دون استمرار تطوره المرسوم ، ولكن مثل هذه الأسباب لا تنقض القاعدة التي تقرّها لأنها طارئة متعلقة بحالات فردية ، ومتولدة من المصادفات . إن كل من يحاول أن يعلل أية واقعة تقع ، أو أي تطور أو تبدل يطرأ على الموجودات جميعاً ، لن يوفق الى الصواب إلا إذا بحث العلة داخل تلك الموجودات لا خارجها .

القالب والمضمون

نستطيع بعد ما ذكرنا أن نحدد معنى كلمتي « القالب والمضمون » اللتين وردتا في سياق أحد مجوئنا السالفة . فإن قالب الشيء هو شكله ، او نظامه وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وأما مضمونه فهو النقيضان الرئيسيان المتصارعان في جوفه ، والنقائض الفرعية المتولدة من دينك النقيضين الرئيسيين .

والفلسفة الواقعية تتجه في دراسة ما تعرض له بالبحث الى المضمون اولا . فتدرس تفاعل النقيضين الكامنين فيه ، ومدى تغلب النقيض الجديد الصاعد على النقيض الرجعي المنهزم . وبذلك تقف على العامل الاساسي في التطور . ثم تدرس العوامل الفرعية العارضة ، ومدى اعاققتها للتطور ، وكيفية تعطيل تلك الاعاقة . . . فتدرك بذلك كل حدث على الوجه الصحيح ، وتستطيع التحكم فيه .

والنقيض الجديد النامي يطلق عليه اسم النقيض السلبي ، والنقيض القديم المتداعي يسمى الايجابي . وعند تغلب الاول على الاخير والحلول محله ينقلب الى نقيض ايجابي أي يصبح هو النقيض القديم ولكن على صورة جديدة ، وينطوي بدوره على جرثومة نقيض سلبي جديد يشتد بدوره ، ويتغلب على القديم وهكذا... والنقيض الايجابي هو المقبول في زمنه حتى يتغلب النقيض التقدمي عليه . وكلما تغلب نقيض على آخر تغير المضمون طبعاً ، ويترتب على ذلك تغير القالب ليلائم المضمون الجديد .

واذا طبقنا هذا القول على الواقع ، وضر بنا له مثلاً بالأحزاب السياسية غير الديمقراطية فان نظام الحزب الرجعي وبرنامجه هو القالب ، والتناقض بين زعامته المستبدة ، وبين قاعدته المطالبة بحقوقها الديمقراطية هو المضمون . وحين تغلب القاعدة ، وهي النقيض السلبي النامي ، على الزعامة وهي النقيض الايجابي المتراجع ، وتجليها عن الحزب ، يتغير المضمون . ولا بد أن يتغير القالب عندئذ ، (وهو نظام الحزب) ليلائم المضمون الجديد .

وقد رأينا كيف أن تغير المضمون في فرنسا بعد الثورة الفرنسية أدى الى تغيير القالب ، وكذلك حين تغلبت الوطنية على الاستعمار البريطاني . وعلى هدي تلك الامثلة يمكن تطبيق هذه القاعدة التي نقررها على كل ما يجري في الوجود .

الفصل السابع

منهج الفلسفة الواقعية

أسس المنهج الواقعي

قلنا إن المثالية تحاول تفسير الوجود باستخلاص النتائج من مختلف ظواهره كل على حدة ، على أساس أنها لا رابطة بينها ، أو أن بينها رابطة شكلية ليست بذات أثر . وأن كل جزئية في الوجود ثابتة على حالها ، أو هي متجددة على نفس الصورة ، وعلى نحو لا يتغير . فالحياة والموت يتعاقبان على الجزئيات فنزول لتعود الى الوجود على نحو ما كانت عليه . ويظل الوجود في مجموعه على حاله ، يخلع برده ليلبسه مجدداً ... فالتاريخ يعيد نفسه كما يقولون . ومن شأن هذه الفلسفة تثبيط هم الجموع العانية . فان الفصل بين الاشياء يقيم حاجزاً لا يقتحم بين الغث والسمين ، والقوي والضعيف ، فيستولي اليأس على الضعفاء ، ويقعد بمجموعهم عن السعي والجهاد للانتقال من حال الى حال . ثم ان الوهم بأن كل شيء في الوجود يتكرر على وتيرة واحدة يبث الملل في النفوس ويجعل كفاح الجموع الذي تحدثنا عنه غير مجد مادام التساريخ يعيد نفسه ، ويرتد من حيث بدأ . إن الفلسفة المثالية تبشير بسياسة المحظوظين الذين يحاولون أن يغرسوا في الأذهان أن كل شيء قائم بذاته لا يتغير موضوعاً . فالقوة قوة ، والضعف ضعف ، وشتان بين الحساليين ، ومحال أن تتغير جموع الضعفاء فتتحول الى اقوياء أو العكس . وهم يرون أن الازدهار الاقتصادي

يرجع الى عبقرية الأفذاذ الذين انحصر التقدم الفكري في طبقتهم، خاضعاً لنظرية « الانتخاب الطبيعي وبقاء الاقوى والاصلاح » هذه النظرية التي قصورها على الكفاح بين الافراد . وبرروا بها تحكم الاقوياء في جموع الضعفاء .

أما الفلسفة الواقعية فتدرك ان جزئيات الوجود يتولد بعضها من بعض ، ويتطور مندفعاً على الدوام الى الامام . وهي تحاول تفسير الوجود على هذا الاساس حتى اذا ما تمكنت من كشف نوااميس تطوره ، استطاعت أن تهيمن عليها وتوجهها ، وتعمل على زيادة ذلك التطور سرعة .. إنها ترى ان التغير والتكرار لا يدوران في حلقة مفرغة يتميز فيها بعض الافراد فحسب وفق التفسير المثالي ، ولكنهما يدوران على شكل حلزوني ، أي أن دائرتهما تتسع وتتضخم باستمرار . وإذا رجعنا الى الأساس المادي للاتساع والتضخم نجد في التوالد . ذلك لأن التوالد مصحوب بالتكاثر . فالكائنات المتوالدة لا تكرر نفسها في حدود العدد عينه ، ولكنها تتكاثر في حالة عدم التدخل الخارجي في عملية التوالد ، وتتضاعف أضعافاً في حالة تشجيعه بالوسائل العلمية . . . والتكاثر العددي يقابل الكم الى كيف . وهو يزيد الامكانيات ، ويضاعف الفرص التي تظهر النقائص التقدمية الممتازة ، وتتوالد وتتكاثر بدورها . أما التكاثر المعنوي ، أي تكاثر الافكار والمعارف والمعتقدات والنظم وغيرها فيتولد كذلك بعضه من بعض . وينبع في الأصل من التكاثر المادي ، أي من تكاثر الانتساج والناس . وتجري عليه قوانين « الكم والكيف » وتكاثر الفرص لظهور الافضل وانتشاره ، كما تجري على الماديات . ولا شك أننا مطالبون بشرح ذلك تفصيلاً ، فإلى القارئ البيان .

التوالد والتكاثر

يناقض التوالد والتكاثر مذهب المادية الميكانيكية التي تقرر ان الكائنات

تظهر في الوجود وتختفي لتعود الى الظهور كما كانت طبيعة وصورة ، فالكائنات الحية والنباتات لا يكرر كل منها نفسه على نحو ما يقرره ذلك المذهب ، ولكنها تتوالد وتتكاثر ، كما هو واضح في عالم الواقع ، فيخرج توالدها عن عملية التكرار المادي الى عملية اتساع وتزايد في الكم والكيف . إن الشجرة تجود قبل ذبولها وموتها بيزور تكفي لنبات آلاف الاشجار المشابهة لها ، وكذلك تتكاثر سائر النباتات والكائنات الحية . وهذا التكاثر يفسح في المجال لظهور انواع مستجدة تتكاثر بدورها . وظهور الجديد المتكاثر ، يستتبع ظهور النواميس الطبيعية المستجدة . فالموجودات لا تتكرر كما نرى على وتيرة واحدة ، محتفظة بكمها وكيفها وفق المذهب الميتافيزيقي ، ولكنها تتطور تطوراً كيفياً وفق الطريقة التي ذكرناها . والالمام بالتاريخ الطبيعي يدلنا على خطورة التطور الكيفي الذي تناول الكائنات الحية التي تطورت من الاميبيا ذات الخلية الواحدة المنقسمة على نفسها الى الانسان الذي استطاع بفكره الواعي المدبر أن يكون ذا أثر فعال في تطور الوجود ، مشاركا الطبيعة بطرقه الصناعية في دفع التطور الى الامام .

وكل اختلاف في طبيعة الكائنات وشكلها يرجع الى اختلاف كمي في ذراتها وفي شحنات ذراتها ، وسيأتي شرح ذلك في حينه ، والذي نقرره الآن انه ما من شيء في الوجود له مثيل مطابق له كل المطابقة . فليس هناك ولد مثلاً هو صورة مطابقة لأي من والديه او أسلافه . وكذلك النبات والجماد لا ينجيء شيء منه مطابقاً لشبيهه مهما قرب وجه الشبه بينهما . واذا كان الناس يعرفون أن بصمات الاصابع يختلف بعضها عن بعض بحيث لا تطابق بصمة اي انسان في الوجود بصمة غيره ، فان الذي قد لا يعرفه الكافة اختلاف كل كائن في الوجود ، بل كل جزء منه عن

شبيهه من النوع الواحد مثل اختلاف البصمات . فليست هناك ورقة شجرة في الوجود تطابق ورقة أخرى حتى ورق الشجرة نفسها . وليست هناك حبة قمح أو فول تطابق غيرها وهكذا . فالطبيعة لا تكرر إنتاجها صوراً طبق الأصل ، ولكنها تنسج كل جزء منه نسجاً خاصاً به ، فإذا اختلفت خيوط النسج في كمها الى قدر معين توالد الكيف الجديد .

وهكذا نرى ان الطبيعة لا تأتي على الدوام بالجديد المتكاثر فحسب ، ولكن كل ما تنتجه يختلف عن غيره ، وإن تولد منه وتداخل فيه وشابهه كل المشابهة ، بعكس ما يقرره الميتافيزيقيون من أن عملية التوالد هي تكرار يتم على غرار واحد ،

العلاقة بين الاشياء

من عملية تولد كل شيء من سواه ، وترعرعه بالتهم سواه ، نستطيع ان ندرك العلاقة بين الكائنات الحية وغير الحية . فهي في حركة دائبة ، يدخل بعضها في بعض ، ويخرج منه ، ويحوّله ويتحول معه من حال الى حال ، ويتأثر به ويؤثر فيه تأثيراً قد يكون كبيراً ، وقد يكون ضئيلاً الى الحد الذي لا يكاد يستبين فيه . إن كل شيء في الوجود خارج من صلب غيره على الرغم من أنه لا يوجد شيء في الوجود مطابق كما قلنا لغيره .

وقد تحدثنا عن جانب من هذه العلاقة في شرحنا للمنهج الميتافيزيقي في تفسير الوجود . وإذا عدنا هنا لنفس الموضوع فما ذلك الا لأن المنهج السطحي العتيق نقيض للمنهج الواقعي ، وشرح النقيض يكشف عن جانب من النقيض الآخر .

توصل العلماء الى الوقوف على التقلبات الطبيعية منذ نشأة الكرة الارضية . فقد توفرت لديهم الأدلة على أن الكواكب ، ومنها الارض ، كانت غازات تسبح في

لانهائية الفضاء ، ثم تحولت الى جمد ملتهب . وأخذت قشرة السكر الارضية التي كانت جزءا من الشمس فانفصلت عنها ، تبرد شيئاً فشيئاً الى أن وقعت التحولات التي أدت إلى تهيوء الظروف لظهور الاحياء على ظهر البسيطة . على أن تحولات الأرض وما عليها لم تتوقف ، وليس من المتوقع أن تتوقف ، لأنها تحدث نتيجة لطبيعة تركيب الماديات ، فهي لذلك أبدية لا محالة .

وقد عرف اليوم حتى تلاميذ المدارس كيف أن الجبال كانت في زمن سحيق القدم قاعا للمحيطات ، وكيف ابتلعت المحيطات قارات قديمة أصبحت اليوم في جوف البحر . وكيف تجمدت رواسب الأنهار فأصبحت صخوراً ، وكيف عادت الأنهار والأمطار ففتت تلك الصخور ثانية . وكيف انتقل الصخر المفتت والرمل والأتربة من صقع الى صقع بواسطة الرياح والسيول والأنهار وانتقال الكائنات من مكان الى مكان . وكيف أن النباتات تمتص من الماء ورواسبه في الأرض مختلف المعادن الكامنة في الفتات المنحوت والجروف من الجبال والسهول النائية . وكيف تزدرد الكائنات الحية تلك المعادن حين تأكل النبات ، وحين يأكل بعضها بعضاً . ثم كيف تعود أجسامها فتتحلل الى اتربة يتمصها النبات ، ويبتلعها الأحياء من جديد .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول لك ايها القارىء إن اللحوم والخضر والبقول والحبوب التي تأكلها ، والماء الذي تشربه ، والهواء الذي تستنشقه ، محملة بأجزاء من الصخور والأتربة التي كانت في بلاد اخرى ، أو قارات أخرى . فليس في جسمك الذي كون لك ذهنك وشخصيتك الا جماع مواد نزلت اليك من اصقاع مختلفة . فالعظام والاسنان مركبة من كلسيوم الصخور التي كانت فوق قمم الجبال ،

والأملاح واليود والحديد والكبريت وغير ذلك من المعادن انتقلت من مكان الى مكان ، ومن جسم الى جسم ، حتى دخلت جسمك . وحين يموت الكائن الحي قد تزدرد الحيوانات أو الحشرات بعض جسمه ، فتنتقل أجزاؤه معها من مكان الى مكان حتى يزدردا غيرها ، ويتحلل ما لم يؤكل من جسمه ، ويمتزج بعد تحلله بتربة الارض ، فيمتصه النبات الذي تلتهمه كائنات اخرى فتبني به أجسامها . وهكذا يتحول جسم كل كائن حي الى كائنات أخرى سواء أ كان بدخوله في الكائنات الاخرى مباشرة ، أو بعد تحوله الى تربة فنبات . فالمادة دائمة التحول ، يدخل بعضها في بعض كما ذكرنا ، ويتولد بعضها من بعض بحيث لا يمكن تصور شيء في الوجود قائماً بذاته ، غير مرتبط بغيره كل الارتباط ، وغير متداخل في غيره ومتولد منه .

بل ان جسمك ايها القارئ يشتمل على مواد انتقلت اليك من عوالم أخرى غير عالمنا الارضي . فالأشعة والحرارة قطعت ذلك الفضاء الممتد من الشمس إليك لتمد جسمك بعناصر الحياة . ثم إنك أنت أيضاً تؤثر بدورك في الشمس ، بل إن كل بضعة من جسمك ، وكل شعرة من شعراتك تؤثر فيها بامتصاص اشعتها وحرارتها ، لان امتصاص جزء من اشعتها ، مهما بلغ من ضآلته ، يحدث فيها تحولا . ولا يقتصر الامر عليك ، فإن كل ما تحمله الارض على ظهرها ، وما تشتمل عليه ، مهما بلغ من ضآلة ، يمتص الاشعة والحرارة ، ويلفظها على التوالي ، فيتأثر بالشمس ، ويؤثر فيها بدوره .

أما المعنويات من أفكار وعلوم ومذاهب فلسفية ، ومثل أخلاقية ، ونظم سياسية وانتاج أدبي وفني وغير ذلك ، فتتولد كما قلنا من أوضاع الوجود المادية . ويستطيع

المحص أن يرى كيف انها تنتقل كالماديات من بلد الى بلد ، ومن قارة الى قارة ، ويدخل بعضها في بعض ، ويستمد بعضها حياته من بعض ، ويكبر على حسابه ، ثم يصبح غذاء لغيره ، ولا يكف الجديد عن الظهور طارداً القديم من طريقه . ولكن العالم الرأسمالي الاستعماري يحاول ان يوهم نفسه ، ويوهم غيره ، أن الحضارة الحديثة ليست الا من ابداعه هو وحده ، او من ابداع عباقرة وحدهم ، منكر ما ذكرناه عن التوالد والتكاثر . ولا يرجع انكاره الى جهله بقدر ما يرجع الى سوء قصده .

نعم ان علماء العالم الغربي لا يجهلون الحقائق التي ذكرناها، ولكن منهمجهم المثالي في تفسير الوجود ، او اتجاهاتهم المثالية لأهداف مغرضة توقعهم في الغفلة ، او تبعد بهم عن الصواب لدى تفسير الواقع ، واستخلاص ما يترتب عليه من نتائج . ويكفي للتدليل على صحة رأينا فيهم أن نعود الى ما ذكرناه في الفصل الثالث من هذا الكتاب عن فيلسوفهم برتراند راسل ورأيه في العلم . فقد أنكر صلة العلم بالقانون والآداب وسائر المعنويات ، ولم يعترف له الا بقدرته على تحقيق رغباتنا دون قدرته على تقويمها وإظهار أفضلية احداها على الاخرى!! ... أهنك جنوح أبعاد من هذا في فصل الاشياء المتداخلة بعضها عن بعض؟! ... لقد أصر على فصل العلم عن الثقافة الادبية والفنية ، في حين أن التقدم العلمي كان له الفضل الاكبر في تحويل عقلية الناس الفلسفية والثقافية من الميتافيزيقية الخرافية الى المثالية الواقعية ، فحوّر بذلك ذوقنا الفني ومعتقداتنا ومشاعرنا ووجهات نظرنا في الحكم على المبادئ والمعنويات والمفاضلة بينها .

وانت تستطيع أيها القارئ أن تدرك مدى غفلة المثاليين أو تغافلهم عن إدراك

الحقائق على وجهها الصحيح حين ترى الواقع يضطربهم في ميدان العمل إلى الربط بين مختلف الأمور فيمارسونها دون أن يهتموا صلة بعضها ببعض ، ثم يخطئون مع ذلك عمداً أو غفلة في ميدان الفكر ، حين تقدير كل منها ، أو تفسير ظواهره ، أو استخلاص النتائج منها كما فعل فيلسوفهم برتراند راسل . ويكفي لبيان صلة العلوم بالفنون أن نذكر على سبيل المثال حرص المثاليين في اليونان القديمة على دراسة علم التشريح قبل شروعهم في نحت تماثيل الأناسي . وقد ازداد الفنانون إدراكاً لصلة العلوم بالفنون على وجه أدق وأشمل على مرّ السنين . فأصبح طلبة الفنون الجميلة اليوم يدرسون طرفاً من علوم الطبيعة ، لا سيما انخااص منها بالضوء وانعكاساته ، وطرفاً من علمي الهندسة والرياضة ، الى جانب علم التشريح ، قبل ممارسة النحت والرسم . ورأى الفنانون من أيادي العلم عليهم كذلك ما يمدّهم به من أدوات أرقى ، ومواد أنقى تمكّنهم من أداء مهمتهم على وجه أدقّ وأسمى . وإذا نظرنا الى الناحية العكسية نجد العلماء المطلعين على ألوان الأدب والفن يكتسبون بذلك دقة نظر ، وعمق بحث يفوقان العاطلين من الثقافة الفنية والأدبية . ولم يعد أحد يحهل اليوم الفرق بين إنتاج الفنان ذي الثقافة العلمية ، وبين إنتاج الفنان الجرد منها . ولم يعد أحد يحهل كذلك الفرق بين تقدير الرجل المثقف للفنون ، وبين تقدير غير المثقف لها ، مع العلم بأنه لا ثقافة بالمعنى الصحيح إلا المشتعلة على طرف من مختلف العلوم الحية . ولكن برتراند راسل يصرّ مع ذلك على إنكار تأثير العلم في الفنون والعكس ، ويجاريه فلاسفة الغرب ونقادهم . بل يذهبون الى أبعد مما قدمنا فيقول بعضهم إن العلم يتقدّم في هذا العصر بخلاف الفنون التي تنكّصُ على أعقابها ، فلا يستطيع ما ينتج منها اليوم مطاولة فنون اليونان

القديمة !!!... ويتظاهر بعضهم الآخر بالانصاف فيقول إننا لا نستطيع المفاضلة بين الفنون قديمها وجديدتها . لان هذا يرجع الى الذوق الذي لا ضابط له !!!... وليست هناك قاعدة مسلم بها للتمييز بين الفنون بعضها وبعض !!!... ويمكن القول ، تطبيقاً لهذا الرأي ، انه لا يمكن المفاضلة بين دقّ الدفوف مثلاً و بين موسيقى بينتهوفن ورحمانينوف ، أو بين شعر ابن مكناس و بين شعر ابن الرومي والمقنبي !!!... ومما يقوله أولئك المثاليون للدلالة على انقطاع كل علاقة بين العلم و بين الفنون ان هناك علماء مبرزين يعجزون رغم ألمعيتهم العلمية عن تذوق الفن الجميل ، وفي هذا جنوح منهم كالعادة الى استخلاص أحكام عامة من حالات فردية استثنائية لها ظروفها الخاصة . فان انصراف بعض العلماء عن الاهتمام بالفنون استغراقاً منهم في بحثهم العلمي لا يعني تجردهم من امكانيات تذوقها وحسن تقديرها فيما اذا عنوا بدراستها والتأثر بها ...

نلخص ما تقدم فنقول ان الانسان مكون من مجموعة من أشلاء أناس آخرين ، وحيوانات وحشرات ومواد نباتية وطبيعية ، وهو يضيف الى جسمه جديداً من هذه المواد باستمرار فيحدث فيه هذا الجديد تحولات عضوية على الدوام . وهذه التحولات ذات أثر في ذهنه وفي جهازه العصبي . وعلى الرغم من أنه مزيج من هذا الشئيت العجيب مثل غيره من الناس ، فانه يستقل بشكل وشخصية لا يطابقان شكل أي كائن آخر أو شخصيته . وآراؤه ومعتقداته وذوقه وطباعه وغير ذلك من المعنويات التي يخالها وليدة ذهنه وارادته هي كذلك شئيت من بعض المعنويات التي تولدت من العالم المادي وأوضاعه ، متطورة على مر القرون نتيجة لتطور تلك الاوضاع . وذهنه لا يكف عن استيعاب الجديد منها كل يوم ، فيتأثر به على التوالي ، ويتحول في كل لحظة أياً كانت ضالة ذلك التحول . وعلى الرغم

من أن المعنويات تصل الى ذهنه من مختلف المصادر والاتجاهات، كما تصل الى ذهن غيره، فإنَّه من مختلف عما عداه، على قرب الشبه بينهما، يستخلص من هذا الشئيت علماً بالحياة، وفلسفة لها يشابهان كل الشبه ما يستخلصه غيره ممن لهم مصالح وأهداف مشتركة، ومن يعيشون في نفس الظروف والملابسات، ولكنهم لا يطابقانه كل المطابقة. وهذا مما يفسر انتظام الاتجاهات العامة على الرغم من تناقض الاتجاهات الفردية.

وما قلناه عن الانسان يقال عن كل ما عداه في الوجود، فالوجودات جميعها متحركة متطورة كما قلنا، يتداخل بعضها في بعض، ويتولد بعضها من بعض، ويتغلب كل نقيض مستجد فيها على النقيض القديم فيتغير مضموناً وقالباً. ولا يمكن ادراكها الا بإدراك هذه الصلات جميعها. على أن ذلك لا يكفي وحده للوصول الى الفهم الصحيح. فالمنهج الواقعي لا يكفي بتقصي تلك الصلات، ولكنه يدرس عملية التطور نفسها، ويلم بنواميسها التي تؤدي الى ظهور الجديد خارجاً من جوف القديم، فكل ما يجري في الوجود يخضع لنواميس هذه العملية. وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل في البحوث التالية.

فلسفة هجل الجدلية

امتدت جذور فلسفة هجل الجدلية الى فلسفة اليونان القديمة مسترشدة بكل من طريقة أرسطو الحوارية في بحث القضايا الفلسفية، ومذهب هرقليطس في التطور. فقد اظهر حوار ارسطو الفلسفي بجلاء أن كل موضوع دار حوله الجدل ينطوي على رأيين متناقضين مما يدل على أن كل واقعة في الوجود تشمل على نقيضين يعبر كل من الرأيين المتناقضين عن احدهما. فما الجدل الا صراع بين الرأيين المتناقضين

يعكس الصراع بين النقيضين الكامنين في الواقع القائم حوله الجدل . أما مذهب هرقليطس فيقرر ان كل ما في الوجود يتطور ويتغير فلا يبقى شيء على حالة واحدة لحظة واحدة .

ربط هجل ما بين جدلية أرسطو ومذهب هرقليطس ، واستطاع أن يستخلص من الربط بينهما أن التطور والتغير اللذين فطن هرقليطس اليهما لا يمان إلا نتيجة للصراع بين النقيضين اللذين كشفت عنهما جدلية أرسطو . ولذلك أطلق هجل على نظريته في فهم وقائع الوجود المتطورة وتفسيرها اسم « الجدلية » .

وقد أتاح التقدم العلمي لهجل في عصره فرصة لم تكن متاحة لذينك الفيلسوفين اليونانيين ، فاستطاع أن يؤيد بالكشوف العلمية الحديثة صحة نظريته الجدلية القائمة على صراع المتناقضات . ولكن اتجاهه العلمي في بناء نظريته الفلسفية لم يتح له الخلاص من برائن المثالية . فاذا كانت جدليته واقعية تؤيدها الكشوف العلمية ، فان اتجاهه في تعاليلها والبحث عن اهدافها ومراميها هو الذي انحرف به الى المثالية .

يقول ذلك الفيلسوف إن السبب في تذبذب الموجودات جميعها وتحركها وتطورها باصطدام كل نقيض فيها بنقيضه ، يرجع الى تحرق « فكرة الوجود » الكامنة في الاشياء الى الانطلاق والحرية . فليست عمليات التطور الجارية على كل ما في الوجود ، والتي لا حصر لها ، الا محاولات تقوم بها تلك الفكرة للوصول الى هدفها .

وقد سبق لنا ان قلنا ان تخليص فلسفة هجل الجدلية من ذلك التعليل المثالي لتطور الاشياء مكن الفلاسفة الواقعيين بعد من ادراك الوجود وتفسيره وفق الاصول العلمية ، بل توسعوا في تطبيق النظرية الجدلية ، وأجنوها ثمارها حين تمكنوا من

الوقوف على نواميس تطور المجتمعات ، وتحقيق الامل الذي طالما راود الفلاسفة والمؤرخين ، وهو الوقوف على العوامل الرئيسية لتطور الانسانية ، والتمكن بذلك من تفسير التاريخ تفسيراً واقعياً .

وهكذا نرى ان وقوف هجل على نواميس تطور الاشياء لم يمكنه من الوصول الى النتائج المترتبة على كشفه الخطير بسبب جنوحه الى المثالية في تعليل التطور الجدلي ، واصراره على أن الفكرة سابقة على الواقع المادي ، وانها هي التي تعمل على تطويره بالطريقة الجدلية . ولكن الفلاسفة الواقعيين الذين أعقبوه استطاعوا بتخليص فلسفته من شوائبها ، أن يحولوها الى أخطر منهج يكشف ما يكتنف الوجود من غموض ، ويلقي الضوء الساطع على عملية تطور الانسانية في مدارج التاريخ ، ويبرز الرابطة الوثيقة التي لا تنفصم بين الماديات والمعنويات ، وسبق الاولى على الثانية ، اي سبق المادة على الفكرة ، ونسبة تطور الثانية الى الاولى ، مع تأثر كل منهما بالآخرى وتأثيرها فيها على التوالي وفق ما قررنا شرحه سابقاً .

استطاع أولئك الفلاسفة الواقعيون الذين أعقبوا هجل أن يقدروا أهمية الواقع المادي ، ويدركوه على حقيقته وقد انتهوا الى ان الوجود المادي له كيان موضوعي قائم بذاته ، سابق على وجود الانسان والمعنويات ، ومستقل عنه وعنهما . وأن ادراك الانسان له ادراك صحيح ، أي أن الواقع المادي المنظور والمحسوس مطابق لفكرة الانسان عنه ، وأنه النبع الذي تترقق منه المعنويات جميعها ، فما فكر الانسان الا من نتاجه . واذا كانت الماديات سابقة على المعنويات ، ولها وجودها الموضوعي المستقل عنها ، فان المعنويات النابعة منها ، تابعة لها ، ولا يمكن أن يكون لها وجود مستقل عنها .

صراع التناقض

من المعروف اليوم أن الوجود قائم على التضاد ، فلا قيام لشيء في الوجود إلا بقيام ضده . والاضداد في الحياة أشبه بنغيمات الموسيقى المتباينة ، فإذا انعدم تباين النغيمات استحالت الموسيقى الى نغمة واحدة مستطيلة ، اي انعدمت . وقد شرحنا ذلك في الفصل الاول من هذا الكتاب . ولكن الاضداد لا يقف كل منها لإزاء ضده جامداً . فلو كان الامر كذلك لبقى الوجود جامداً لا يتغير ولا يتبدل . فالاضداد المتناقضة يصارع بعضها بعضاً على الدوام ، ويسفر ذلك الصراع عن تطور الماديات ، وتطور المعنويات على السواء دون انقطاع .

ومن الخطأ تصور ضد قائم بذاته . فكل ضد ينمى ويتزجان داخل موضوع واحد او شيء واحد ، ويصارع الجديد النامي ضده القديم ، وحين يتغلب عليه ، ويحل محله ، يتغير الشيء المشتمل على ذلك النقيضين ، وينطوي النقيض المتغلب على جرثومة نقيض جديد ينمو بدوره ، ويتغلب على سابقه وفق ما شرحناه آنفاً .

و ينتهي صراع الاضداد الى تحول الضد الى ضده . ومن أمثلة ذلك ، للضعف والقوة ، فالضعف في الطفل يتحول الى قوة حين يبلغ ذلك الطفل سن الرجولة ، ثم تنهزم القوة أمام الضعف حين ينحدر الرجل الى الشيخوخة ، وفي كل مرة يهزم فيها الضد ضده بتغير السكان الذي يدور فيه الصراع . فيتحول من طفل الى رجل ومن رجل الى شيخ مسن . وكذلك يقوم الصراع بين الحياة والموت ، فالموت الكامن في الكائن الحي يخلف الحياة ، ثم تتولد من الموات حيوات جديدة وفق ما يتنا فيما سبق . وكذلك ينقلب الخطأ الى صواب والعكس بالعكس ، و يسان ذلك أن تقدم العلم يلقي الضوء على ظواهر الوجود ، فيتبدل على ضوءه الحكم على الاشياء ،

ويظهر خطأ ما ظن صوابا ، وصواب ما ظن خطأ ... وقد يسألني القارىء أين الصراع القائم بين هذين الضدين ؟ وجوابي أن التناقض هنا يكمن في المعرفة ذاتها . فمعرفة الناس ليست كاملة كما هو معلوم ، ومعنى ذلك أنها تشتمل على خليط من العلم والجهل ، وهما نقيضان متضاربان كما هو ظاهر ، وكلما تغلب العلم النامي على الجهل المنهزم تحول الحكم على الأشياء ، وانقلب بعض ما ظن صوابا الى خطأ ، والعكس بالعكس .

وإذا بحثنا عن التناقض في الحياة نجد أنها بادية في صورتها العامة بين الافراد في معاملاتهم اليومية . فكل معاملة بين اثنين تنطوي على تناقض بين مصلحتيهما ، وهكذا يقوم الصراع على العيش في أبسط حالاته . وقد عبّر الشاعر العربي القديم عن هذا المعنى بقوله « مصائب قوم عند قوم فوائد » . وهناك صراع أعم مما تقدم يتناول الانسان والحيوان والنبات والجماد . ذلك هو الصراع بين الوجود والعدم ، بين الحياة والموت ، وهو أخطر صراع يؤدي الى تحول الأشياء وتغيرها .

أما الصراع بين الافراد فلا يحول دون تكتلهم في جماعات لها مصالح مشتركة ، فيدور الصراع بين بعضها وبعض في نطاق اوسع دائرة ، وأخطر أثرا . ويقوم التناقض بين أغراض الدول غالبها ومغلوبها ، وبين الطبقات مستغلبها (بكسر الغين) ومستغلبها (بفتحها) فيدور الصراع بين بعضها وبعض على نطاق أشد اتساعا مما سبق ، وابعد خطورة .

وإذا كان التناقض بين الافراد يعد تناقضا جزئيا بالنسبة الى التناقض الكامن بين الجماعات والطبقات ، فهناك تناقض أكثر جزئية ، وهو الذي يدور داخل الفرد نفسه . بل هناك تناقض أشد امعاناً في التجزؤ وهو الكامن في كل جزء من أجزاء جسم الفرد ، أو جسم أي كائن حي أو غير حي . بل ان التناقض كامن في

كل جُزَيٍّ من تلك الاجزاء ، وفي كل ذرة من تلك الجُزَيَّات . بل ان الذرة نفسها تشتمل على تناقض ، فان شحناتها الكهربية الموجبة والسالبة متناقضة لا تكف فيما بينها عن الصراع . على أن كل هذه المتناقضات مترابطة بفعل الجاذبية والكهربية .

ويستطيع القارىء أن يدرك الأمر على نحو أوضح اذا كررنا ما قلناه من أن العلم اثبت أن كل شيء في الوجود ، حتى الصخر الصلب ، لا يكف لحظة عن الحركة أي لا تكف ذراته ، وشحنات ذراته عن الحركة . ويلاحظ أن كل حركة تنطوي على تناقض ، لانها عبارة عن إيجاب وسلب يتمثلان في قوة الدفع ومقاومته . وعليه يكون التناقض كامنا في الاشياء جميعها ما دامت الحركة تشملها كافة .

وهكذا نستبين ان التناقض يبدأ في ترتيبه التصاعدي بين الشحنات الكهربية المتحدة في الذرة ، ثم نراه ناشبا كذلك بين تلك الذرات المتنافرة المتحدة في الجُزَيَّات ، ثم نرى التناقض المركب ناشبا ايضا بين الجُزَيَّات المتناقضة المتحدة في الاجزاء ، ثم بين الاجزاء المتحدة في الاشياء ، ثم بين الاشياء احدها مع الآخر ، ثم بين مجموعة منها ومجموعة اخرى وهكذا . فهي متنافرة جميعا بفعل التناقض ، ومترابطة كما قلنا بفعل الجاذبية والكهربية .

ولا بد أن نلفت النظر هنا الى ان التناقض الكامن في الاشياء مصحوب في كل الأحيان بتربط بينها بفعل الجاذبية والكهربية ، فهي متناقضة طبيعة ، ومترابطة تكوينا . وهذا يفسر تكتل الافراد في جماعات رغم التناقض بين كل منهم والآخر ، وتكتل الجماعات في أمم وشعوب رغم التناقض الناشب بينها كذلك ، ثم اشتغال كل جماعة في ذاتها ، وكل حزب وكل شعب على تناقض كامن فيه . ذلك لان كل مجموعة من هذه المجموعات البشرية تنقسم بدورها الى جبهتين متناقضتين احدهما

رجعية تحاول ابقاء الاوضاع على ما هي عليه ، والأخرى تقدمية تحاول تغيير الأوضاع والنظم الى ما هو اصلح واعدل . وحين تنتصر الثانية يتغير النظام على نحو ما فصلنا في البحث الخاص « بالقلب والمضمون » . ولا تلبث ان تتولد منها جبهة جديدة اكثر تقدمية تناهضها من جديد ، وسنزيد القارىء شرحاً لنواميس تطور البشرية في الفصل التالي .

الكم والكيف

أوضحنا فيما تقدم كيف أن التناقض بين الاشياء التي توحيها الجاذبية والكهربائية هو سر تطورها . ولكننا لا نرى التطور يسير دائماً في ببطء ، وعلى وتيرة تصاعدية رتيبة . وإنما نرى الاشياء تتحول على حين فجأة تحولاً كيفياً في بعض مراحل التطور ، وتنقلب من النقيض الى النقيض . أي ان تطورها التدريجي ينقلب فجأة الى تغير ثوري ! .. فكيف يتم ذلك ؟ ... وما هو عامله الاساسي ؟ .. لقد قلنا ان ذلك يتم بتغلب النقيض السالب النامي على النقيض الموجب المنهزم ، وطرده والحلول محله ، فكيف يتاح له ذلك ؟ ... ومتى تتم له الغلبة ؟ ...

من البديهي أن غلبته على نقيضه تتم حين يصبح أقوى منه ، أي حين تصبح كمية قوته أكبر من كمية قوة نقيضه الى الدرجة التي تمكنه منه . وبعبارة أخرى حين يبلغ كم قوته مبلغاً معيناً . ومن هذه البديهية تتضح القاعدة الاساسية لانقلاب الاشياء من النقيض الى النقيض . فلا انقلاب إلا اذا بلغ الكم مبلغاً معيناً ، وعندئذ يؤدي التغير الكمي الى تغيير كيمي .

ويحسن ان تتبع المألوف فنبداً بضرب ذلك المثل التقليدي ، وهو غليان الماء ، لنزيد الناموس الذي ذكرناه ايضاحاً . فحين تبلغ حرارة الماء درجة الغليان يتحول

الى بخار . ومن المعلوم ان هذا التحول لا يمكن ان يتم الا في درجة حرارة معينة ، وهي درجة الغليان . اي ان تحول الماء الى بخار لا يتم الا حين تبلغ حرارة الماء كما معيناً ، وحينئذ يتحتم وقوع ذلك التحول ، ويقال في هذه الحالة ان التحول الكمي انقلب الى تحول كيميائي ، أي تحول الكم الى كيف... وتبدأ عملية التحول بانفصال جزيئات الماء الهيدروجينية والاكسجينية بعضها من بعض ، بعد ان كانت مترابطة رغم تناقضها ، فان دوران الماء السريع في حالة الغليان يـمـسـكـها من الانفصال ، فيؤدي ذلك الى تطايرها على صورة بخار . وعلى ذلك يكون التحول قد وقع نتيجة لاصطراع المتناقضات التي تتمكن من فصر عرى ترابطها حين تبلغ حرارة الماء الكم المعين الذي يتيح تغيرها الكيفي .

والسبب في حرص الشراح على ضرب هذا المثل بالذات يرجع الى ان اكثرية الناس تعلم ان الماء يغلي ويتحول الى بخار حين تبلغ درجة حرارته المائة ، ولا يحصى عن غليانه وتبخره في هذه الحالة . ولكننا اذا أردنا شرح هذا الناموس الطبيعي من البداية ، فاننا نجد ان اختلاف نوع الذرات يرجع الى اختلاف عدد الشحنات الكهر بائية الالكترونية الكامنة في كل منها . فكلما بلغ عدد تلك الشحنات المتناقضة مع الشحنات البروتينية مبلغاً معيناً ، تحدد نوع الذرة طبقاً لذلك . فاذا زاد العدد الى كم اكبر معين ، فإن نوع الذرة يتغير تغيراً كيفياً تبعاً لذلك . وكذلك يختلف نوع المواد المكونة من الذرات ذات النوع الواحد باختلاف كمية الذرات المتجمعة في كل من تلك المواد المختلفة . واذا تحرينا الدقة في التعبير نقول إنها تختلف أنواعا باختلاف كثافتها الذرية . فكلما بلغ عدد الذرات في الحجم الواحد كما معيناً انقلب ذلك الحجم كيفياً .

وفي المعامل الكيميائية تتحول المادة الى مادة مختلفة عنها باضافة كمية معينة من

مادة اخرى اليها . واي تغير كفي جديد يطرأ عليها ، يتم كذلك باضافة كم معين من مادة او مواد اخرى اليها . وها نحن أولاء نرى المصانع تطبق تلك العمليات الكيميائية لتصل الى النتائج التي توصلت اليها المعامل ، فنتج مواد جديدة باستمرار ، متبعة في ذلك طرق المزج المذكورة .

ونحن نرى كل ظاهرة من ظواهر الحياة تتحول كذلك من شيء الى شيء آخر مختلف عنه بعد تبدل كمي معين . فالفرق ما بين الاكوام والتلال والجبال يرجع الى الفرق في عدد جبات رمالها . وكذلك الفرق بين البرك والبحيرات والبحار يرجع الى كمية قطرات الماء في كل منها . وكذلك الفرق بين عدد الناس في المكان يسفر عن القرى ، والمدن الصغيرة ، والمدن الكبيرة ، والامصار الصغيرة والكبيرة . وهكذا نرى كل تحول كفي في الوجود يرجع الى تغير كمي .

ولا بد ان يلاحظ القارئ ان عوامل التطور تنقسم الى عوامل داخلية ذاتية اي ديناميكية ، وهي الأساسية وعوامل خارجية ، أي ميكانيكية ، وهي الثانوية . وبتطبيق ذلك على نواميس تحول الاشياء ، نجد ان المواد الكامنة في باطن الارض من اشجار دفيئة ، ومن صخور ومعادن ، تتحول من نوع الى نوع تحولاً ديناميكياً بفعل ما يكتنزه جوف الارض من حرارة شديدة ، وضغط عال يفجران ذراتها فيتغير كم شحنتها ، ويتم بذلك تبدلها من مادة الى اخرى .

أما تغير المواد في المعامل والمصانع فيتم بالعاملين الميكانيكي والديناميكي معا . فمزج المواد ورفع درجة حرارتها يجري بطريقة ميكانيكية ، ثم يحصل تفاعلها الداخلي بعوامل ديناميكية . وعلى ضوء هذا الشرح يمكن للقارئ ان يتبين عوامل تغير الأشياء .

وترجع أهمية هذه الدراسة بالنسبة للانسان الى انها تيسر له بواسطة تطبيق

منهجها العلمي إدراك العوامل الديناميكية في تطور الانسانية . وتمكنه بتدخله الميكانيكي من السيطرة على ذلك التطور ، وتوجيهه الى الوجهة الموقفة حتى يحقق أهدافه على أتم وجه وأسرع . اي انه يمكن تهيئة الظروف لتمكين الشعوب من سرعة التطور والتقدم على النحو المتبع في تطوير الأشياء ببدل ترك المتطور يسير ببطئه الطبيعي دون تدخل خارجي .

الفلسفة والعلم

رأينا فيما سبق كيف ان الفلسفة أفادت من الكشف العلمية في محاولة ادراك الوجود ، وتفسيره على النحو الصحيح مما ينفي مزاعم المثاليين الذين يحاولون تجريد العلم من أهميته بعزله عن الحياة ، وينكرون أثر كل فرع من فروعها فيما يخرج عن نطاق بحوثه العملية المحدودة ، والنتائج المادية المترتبة عليها .

واذا كانت الفلسفة قد أفادت من العلم وكشوفه ، واهتدت على ضوئه الى وضع منهج عام لتفسير الوجود ، فان العلماء الواقعيين يؤكدون ان العلم أفاد بدوره من الفلسفة ، اي من منهجها العام المذكور ، واستطاع على ضوئه ان يسير قدماً في ميادينه .

ولعل هذه الحقيقة تحتاج الى زيادة شرح ، ولذلك نقول ان الفلسفة تحاول ان تطل على جهود مختلف العلوم كل في ميدانه ، وتنسق النتائج التي توصل اليها الكشف العلمي ، وتربط ما بين بعضها وبعض ، وتستخلص منها نواميس عامة تنظم النواميس التي توصل اليها كل علم على حدة ، وتتمكن بذلك من تفسير الوجود تفسيراً علمياً . اي ان الفلسفة تحاول ان تصل الى العام من طريق الخاص ، وتضع قواعد كلية مستخلصة من القواعد الجزئية . أما العلوم التي تمكن الفلسفة من بلوغ

ذلك الهدف ، فتفيد بدورها من قواعد الفلسفة الكلية ، اي انها تعود فتحاول الوصول الى ادراك الخاص من طريق تطبيق المنهج الفلسفي العام .

المنهج الخاص والمنهج العام

ولكن ليس معنى هذا ان كل فرع من فروع العلم ينجح في تفسير الجزئيات التي تتناولها بحوثة الى تطبيق المنهج الفلسفي العام تطبيقاً آلياً ، فلو عد الى ذلك لقلنا انه يتبع الطريقة الميتافيزيقية التي تحاول تفسير الواقع بنظريات قائمة في الذهن دون تمحيص ذلك الواقع ، واختباره اختباراً علمياً .

ان اتباع المنهج الفلسفي الواقعي في محاولة تفسير الواقع ليس معناه بحال صرف النظر عن دراسة خصائص ذلك الواقع ، اذ العكس هو الصحيح . فالمنهج الواقعي يحتم دراسة كل واقعة على حدة دراسة موضوعية واقعية . وتقتصر مهمته في هذه الحالة على امداد الدارس بالنواميس التي تغير له طريق بحثه الخاص ، اي نواميس عملية التطور في مختلف مراحلها . وعلى ذلك نقول ان العلم يكون اقدر على المضي في بحوثة الخاصة ، والوصول الى النتائج المنشودة اذا ما سار في طريقه على هدي النواميس العامة التي توصلت اليها الفلسفة الى كشفها .

ونلخص ما تقدم فنقول ان الدراسة الواقعية الفلسفية والعلمية ، تستخلص النواميس العامة من النواميس الخاصة ، وتعود فتستكشف النواميس الخاصة المستجدة على ضوء النواميس العامة . وكل خروج عن هذا السبيل المرسوم هو انحراف من الواقعية الى المثالية .

الفصل التاسع

التفسير الواقعي للتاريخ

تفسير للتاريخ قبل الواقعية

كانت مهمة المؤرخين تنحصر في التثبت على قدر الامكان من صحة الوقائع التاريخية ، واستخلاص صحيحها من زيفها ، ثم تسجيل كل واقعة منها دون ربطها بالآخرى ، وبحث أسبابها ونتائجها على حدة ، والاجتهاد في استنباط الحقائق عن طريق الملاءمة والتوفيق بين متناقضاتها ، بدل دراسة اصطراع النقااض وما يؤدي اليه من نتائج .

ولكنهم أبوا منذ القرن الماضي ان يقفوا من التاريخ عند هذا الحد . فقد فطنوا الى انه سجل لخطوات الانسانية ، وأن اقتفاء تلك الخطوات على مر العصور يتيح الوقوف على اتجاه الركب الانساني ، فيعين على فهم الحاضر ، وكشف مسا في جملة المستقبل القريب . وحينذاك يخرج التاريخ عن نطاق السرد القصصي لوقائع متفرقة ، ويأخذ مكانه الرئيسي بين العلوم التي تحاول ان تفسر الوجود . ولذلك راح المؤرخون ينتقون عما وراء الاحداث التاريخية علمهم يهتدون الى قاعدة يتبعها التاريخ في خطاه !! او هدف يستهدفه الناس في الحياة !! او محور تدور حوله جهود الانسانية !! او دافع عام يدفعها الى الامام رغم ما يبدو من اختلاف خطواتها ، وتباين اتجاهاتها !! ...

ولم يكن تحقيق هذه الغاية سهل المنال، فأننا لا نعرف عن التاريخ الا ما سجله المؤرخون من وقائعه . وهم لم يسجلوا الا النزر اليسير الذي ما زال بعضه مشكوكاً في صحته . وهذا النزر اليسير كفيـل وحده ببلبلة ذهن الباحث الذي يحاول ان يستكشف صلة تصل بعض وقائع التاريخ ببعض . فهذه الوقائع تبدو مكسدة متناثرة متدايرة متناقضة الى الحد الذي يتعذر معه كـلُّ شعئها ، او الاهتداء الى الرابطة تربط ما بين بعضها وبعض ، او الى وحدة شائعة بينها جميعاً . فهي في الظاهر لا تسلك سبيلاً واضحاً مستقيماً لا تحيد عنه . ولكن المصادفات لا تقفأ تحملها على تغيير اتجاهها . وهي في الظاهر كذلك تخضع للقادة والزعماء الذين لا يزالون يرغبونها على سلوك السبيل التي يختارونها لها وفق أهوائهم المتقلبة الجاححة التي لا تستقر على حال .

اتجه بعض المضطلعين بهذا البحث اول الامر الى الجهات الرسمية ، وراحوا ينقبون في سجلات الحوادث الفردية لعلمهم يقفون من مراجعة إحصاءاتها على اتجاه معين لها يهديهم الى اتجاه معين للاحداث العامة . وقد لفتت نظرهم هناك ظاهرة أملوا ان يهتدوا على ضوئها إلى ما يصبون اليه ، وهي ان نسبة كل نوع من انواع الحوادث التي تقع في بلادهم لا تكاد تختلف في نهاية كل عام . فمن أمثلة ذلك ان عدد الذين يصابون سنوياً بالجنون لا يكاد يختلف عاماً بعد عام . وتجري الحال على هذه الوتيرة فيما يقع من جنح وجنايات ، ومن مصادمات السيارات وما ينجم عنها من اصابات ، ومن سفر النازحين الى خارج البلاد ، ومن نظير هذه الحوادث التي تتعذر الاحاطة بها . فهذه الاحداث وأمثالها لا يكاد عددها يزيد او ينقص في بحر كل عام على الرغم من ان كلا منها لا يقع الا بناء على مصادفات طارئة ، او على

ظروف وملابس خاصة كان يمكن ان تنهياً او لا تنهياً . اي ان هذه الاحداث ،
وهي وليدة المصادفات الطائشة ، او الظروف التي لا ضابط لها ، تلتزم في دائرة
الاحصاء حدوداً لا تتعداها .

ولكن دوران الحوادث في فلك منظوم ، على حد تعبير اولئك الباحثين ،
لم يهد الخياري الى اي معلّم في طريقهم الوعر ، فلقد كان مثل السراب الذي يحسبه
الضالون ماء وهو هباء . وحين اتضح لهم عبث محاولة الوصول الى اتجاه التاريخ من
واقع احصاء الحوادث غير محصورة النوع والعدد ، تركوا دراسة الوقائع الفردية ،
وعكفوا على دراسة الاسباب او الدوافع التي تدفع الناس اليها ، وخيل اليهم ان
الاحاطة بها لن تلبث ان تكشف لهم السر المنشود !! ولكن مسعاهم في تلك
السييل لم يقدر له حظ او فر من حظ مسعاهم السابق .

عوامل التقدم الحضاري

أدار مفسرو التاريخ ظهرهم لتلك الحوادث الفردية ودوافعها بعد ان ضلوا
الطريق في سراديبها ، وراحوا يمحسون الاحداث العامة من حروب وغزوات
وثورات دينية ومذهبية علمهم يهتدون من وراء تمحيصها الى بغيتهم . ولكنهم
رأوها وليدة ظروف محلية ، كما رأوا الحوادث الفردية من قبل وليدة ظروف خاصة .
واضطروا لذلك ان ينفضوا أيديهم من أمثال تلك البحوث غير المجدية ، وينظروا
الى التطور التاريخي من الناحية العامة ، لا من ناحية تفاصيله المتباينة الظواهر .
اي ينظروا اليه من ناحية التطور الذي يطرأ على الانسانية ، او يطرأ على الامم
المتقدمة منها في مراحل سيرها الى الامام . وقد اهتموا بعد طول الضلال الى هذا
النظر السليم ، ثم عادوا الى التخبط حين راحوا ينقبون عن العوامل الرئيسية للتطور

الحضاريّ ، وتفرّقوا في هذا الاتجاه الجديد شيئاً ، فنسب بعضهم تقدم الامم الى العامل الجغرافي ، ونسبه بعضهم الآخر الى العامل الاقتصادي المادي ، وعندما كشف النقد السليم عن فساد هذين الرأيين ، قوي حزب الذين ينسبونه الى عبقرية القادة والزعماء . ولا شك ان القارئ الذي ألمّ بالفصول السابقة من هذا الكتاب يستطيع ان يدرك مبلغ الخطأ في هذه الاتجاهات الفكرية ، فان العوامل المذكورة خارجية ، اي ميكانيكية لا ديناميكية . ولكننا سنتناولها مع ذلك بشرح مفصل حتى يزداد القارئ تحقّقاً من ايغالها في الخطأ .

العامل الجغرافي

كان مفكرو اليونان القدامى يعزّون تقدم شعبهم الفكري والاجتماعي الى العامل الجغرافي . ونذكر اننا اشرنا الى شيء من ذلك في فصل سابق . وبما تجب ملاحظته ان هؤلاء المفكرين لم يدركوا الا ناحية واحدة من نواحي هذا العامل ، وهي ناحية المناخ . فاعتدال مناخهم او همهم انه هو الذي اكسبهم صفاتهم الممتازة . ويلاحظ ايضاً ان بعض قصاص النظر ، اوسئي النية ، من الجغرافيين في هذا العصر يرون « ان المناخ هو العامل الاساسي في تقسيم الشعوب الى اجناس يختص كل منها بصفات وطباع ومواهب تميّزه عن غيره . وان الامم ستظل مختلفة في الصفات والطباع والمواهب الى الأبد ما دام مناخ بلادها لا يكاد يختلف على توالي الايام ...!! »

ولكنّ للعامل الجغرافي نواحي اخرى غير ناحية المناخ نقب عنها الذين يحاولون ان يجعلوه اساساً لتطور الامم . فهناك الموقع الجغرافي الذي يقسم الدول الى بحرية وبرية ، والى دول واقعة في طريق الجيوش الغازية ، ومعرضة لغزوها ،

ودول بعيدة عن مواطن الاخطار . وهناك طبيعة الحدود التي تيسر الدفاع عن البلاد او لا تيسره . وهناك طبيعة الارض التي تفضي لانقسام الأمم الى زراعية وصناعية . وهناك خصب الارض والغنى الطبيعي الذي يترتب على تفاوته تراخيها في التوسع التجاري والاستعماري او اندفاعها اليه ...

ولا داعي لشرح ما يترتب على هذه الاختلافات الجغرافية من اختلاف في الطباع والصفات المكتسبة ، فان ادراكه ميسور بالرجوع الى المؤلفات الجغرافية الحديثة . ونحن لا ننكره ، فهو يؤيد ما قلناه من تولّد المعنويات من الماديات . ولكن الذي ننكره هو عدّ ذلك العامل الخارجي الميكانيكي عاملاً أساسياً ديناميكياً في عملية تطور الشعوب ، تلك العملية التي اخذنا نرى اليوم أثرها واضحاً في البلاد التي كانت شعوبها متخلفة عن الركب الحضاري لأسباب خارجية ، ومتصفة بصفات التأخر والانحلال ، فاذا هي تثبت استعدادها الكامل لبلوغ اسمي مراحل التطور باكتساب اسمي الصفات والمواهب التقدمية .

ولا يفوتنا ، قبل اختتام هذه النبذة ان نعرض لرأي طريف في هذا الصدد للمؤرخ الانجليزي « توماس باكل » فقد قال ما معناه « ان اساس تطور الامم هو ما تتميز به بلادها من جمال المناظر الطبيعية . فان مثل هذا الجمال هو الذي يرهف الحس ويرققه ، وهو الذي يسمو بمستوى الذوق ، ويلطف المزاج ، ويحفز الناس الى طلب الاحسن والاكمل . انه هو النبع الذي يمدّهم بجميع الصفات والمواهب الحضارية ، ويحدهم الى الامام في مدارج الرقي !! » ونحن نستصوب ان ندع هذا القول بلا تعليق على الرغم من ان اعلاماً من كتاب الغرب ما زالوا يؤمنون به !!

عامل المادية الاقتصادية

يقول المؤمنون بهذا العامل إنه يقف وراء كل ظاهرة من ظواهر الحياة ، اي انه هو سندها وحافزها الى التطور . ولا يمكن تفسيرها وتفسير تطورها الا على ضوئه . وسنكتفي بالاشارة في ايجاز الى مواطن خطأ هذا المذهب دون شرح تفاصيله اقتناعاً منا بأن قارئ هذا الكتاب سيستطيع الامام بأسسه العامة على ضوء الكشف عن انحرافاتة .

أطلق على هذا المذهب اسم « المادية الاقتصادية » لأنه لا يفتن الى الرابطة بين الاشياء بعضها وبعض ، لا سيما المعنوية منها والاقتصادية . فهو لا يدرك التفاعل القائم بين المعنويات والماديات ، اي لا يدرك ما المعنويات من أثر في الاقتصاد . ان هذا المذهب لا يرى الا سيطرة الاقتصاد على نواحي النشاط الحيوي جميعها ، فالاقتصاد هو المحور الذي يدور حوله الوجود ، وكل ما في الوجود مرتبط به وخاضع له . ولعل القارئ قد لاحظ وجه الشبه بين هذا المذهب وبين المادية الميكانيكية ، فكلاهما يعد الانسان آلة مسيرة لا مخررة ، ولا خلاف بينهما في خضوع الآلة للقوة التي تسيّرهما ، ولكن الخلاف في تحديد تلك القوة .

وبما يؤخذ كذلك على هذا المذهب ، أن اصحابه لا يعترفون بناموس التطور الاقتصادي ، اي انهم لا يؤمنون بأن النظم الاقتصادية تتطور وتتبدل على مر العصور وفق نوااميس موضوعية . إنما يؤمنون بأن الانسان ، او عبقرية الانسان هي التي تبتدع النظم الاقتصادية وتطبقها ، وعلى قدر سلامة تلك النظم وكفايتها للإنتاج يسكون رقي الامم التي تطبقها . ولا بد ان يسكون القارئ المدقق قد لاحظ تناقض هذا المذهب ، فهو اذا يعد الانسان آلة مر بوطلة بمجلة الاقتصاد تدور معه

بلا ارادة، يعود فينسب الى الانسان وضع النظم الاقتصادية التي قد تؤدي الى قلب اوضاع الاقتصاد !! ولا عجب في ذلك ، فال بشرية في نظرهم شيء ، والعباقرة شيء آخر ، ولا يجوز ان تشك في قدرة العبقرية على اية معجزة من المعجزات !! ينكر أصحاب هذا المذهب فيما ينفكرونه ناموس التطور الاقتصادي ، ويعجزون عن ادراك طبيعته . فهو ناموس موضوعي لا يستطيع الانسان تغييره بمحض ارادته ، وتغيير النظم الاقتصادية المتطورة وفق قواعده ، ولكنه يستطيع بعد دراسته او الالهام باتجاهاته ان يسيطر عليه ويوجهه . اي ان الانسان يشترك في عملية التطورين الاقتصادي والسياسي ، ويتأثر بهما ويؤثر فيهما ، ولكنه لا يستطيع ان يغير طبيعة نواميسها . وقد شرحنا فيما سبق عملية تطور النظم الاقتصادية ، كما شرحنا عملية تطور النظم السياسية تبعاً لها ، ونواميس هاتين العمليتين . وسنزيد هذا الموضوع شرحاً في النبد التالية التي سنزيد القارئ إدراكاً لما نعنيه من ان الانسان لا يستطيع بحال ان يغير تلك النظم ونواميس تطورها بمحض ارادته ، وان استطاع العمل على سرعة تطورها .

عامل العقل البشري

لا نظن القارئ قد خفي عليه اتجاه المذهب المتقدم الفردي ، او الذاتي . فأصحابه ينسبون تطور الانسانية في سبيل الرقي الى مدى ما تبلغه النظم الاقتصادية من دقة وابداع ، اي ينسبونه الى الاقتصاديين الذين تبتدع عبقريتهم تلك النظم . واذا كان اصحاب هذا المذهب يقصرون عوامل التقدم على عبقرية الاقتصاديين ، فان غالبية فلاسفة الغرب ومفكره لم يقفوا من ذلك المذهب عند الحد المذكور ، بل نسبوا حضارة الانسان الى ألمعية العباقرة من كل لون واتجاه .

وقد ظهرت هذه النزعة المثالية في ميدان الفكر منذ قامت العصامية ، او الرأسمالية الاستعمارية ، على انقاض النظام الاقطاعي في اوربا . ولا عجب اذا كان النظام العصامي الذي اطلق للفرد حرية الاستغلال قد اسبغ على الفردية المتميزة تلك الهالة من الهمية والتقدير ، فهو يقوم على تضخم الافراد وعلو قدرهم على حساب المجموع العانية .

وقد اوغلت الفلسفة المثالية في هذا الاتجاه الفردي على ايدي فلاسفة الاستنارة ، او الفلاسفة الانسيكلوبيديين كما يسميهم مواطنوهم الفرنسيون . فان هؤلاء الفلاسفة ما فتئوا يؤكدون ان الانسانية لن تستطيع تحطيم اغلال الجهل والفقر والاضطهاد الا بوساطة العقل البشري الذي يتألق نوره في رؤوس الافذاذ . فهذا العقل هو الذي سيوفر لها غايتها في الوجود ، وهي الحرية !! . وقد تحققت الحرية التي بشروا بها ... ولكن اية حرية ؟!! . حرية الافراد في استغلال المجموع التي ازدادت بفضلها ، اي بفضل تلك الحرية ، عبودية وشقاء .

وحاول الفيلسوف الالماني فيخت ان ينسج من هذا الانحراف الفكري نظرية فلسفية متكاملة البناء تقوم على ان العقل البشري الملهم الخلاق يستطيع بالاختبار الحر ، والتحقيق العملي ، ان يصل الى صميم الحقائق ، فيفسر غوامض الوجود ، ويحرر الانسانية من الاوهام والمعتقدات الضالة ، ويهدي خطاها في طريق التقدم . وتزعّم « كرلايل » طائفة اخرى من الكتاب زعمت ان البشرية تتبع في مسيرها قاداتها من انبياء وفلاسفة وكتاب وشعراء . وما التاريخ في نظرها الا مجموعة من سير هؤلاء الافذاذ ...!!

دحض نظريات العوامل

يستلزم القول بأن المناخ والموقع الجغرافي يَصُبَّان كل شعب في قالب يلائمها بقاء الشعوب دون تطور او تغير ما دامت طبيعة بلادها ومناخها لم يتغيرا. ولكن الواقع يناقض ذلك . فكم من امة حدثنا التاريخ عن سبقها على غيرها من الامم في مضمار الحضارة ، بل ان آثارها ما زالت تشهد بميزات افرد بها شعبها في عصر من العصور دون سائر الشعوب ، وما هو الا ان دار الزمن دورته حتى تبدلت تلك الميزات ، وتغير ترتيب تلك الامم في مدارج الحضارة ، في حين ان موقعها الجغرافي ، ومناخها ومناظرها الطبيعية باقية على عهدا القديم . وكمن امة قيل ان طبيعة ارضها تفرض عليها ان تبقى امة زراعية ، او ان مواردها الطبيعية تضطرها الى الاقتصاد على انتاج نوع معين من المصنوعات ... ولكنها استطاعت في العصر الحاضر الذي تطورت فيه وسائل النقل ، وتعددت المخترعات الجسارية ، ان تحطم الآراء القديمة البالية ، وتزيل كل عقبة طبيعية تحول دون ازدهار الصناعة فيها الى جانب الزراعة، وتكاد تسبق في الميدان الصناعي الامم التي برزت فيه منذ زمن طويل.

ان محاولة ربط التقدم الحضاري بالعوامل الجغرافية محاولة سياسية تملئها رغبة الدول الغربية في الاطمئنان الى ان تفوقها الحالي يرجع الى اسباب طبيعية لا تتغير، وعلى ذلك يبقى لها السبق في الميدان الحضاري ما بقيت الايام . ان اصحاب هذا المذهب يحاولون ان يقروا به معنويتهم ومعنوية شعوبهم ، وان يتخذوا منه سياجا لصيانة حضارتهم ، وممول هدم لمعنوية الشعوب الشرقية المتوثبة الى الرقي المادي . فهم يرددون دعوى الاغريق القدماء الذين قلنا انهم كانوا ينسبون تفوق امتهم في عصرها الذهبي على امم الشرق والغرب الى مناخ بلادها . فأمم الشرق

اتصفت ، في زعم اصحاب تلك الدعوى ، بالتأمل والتفكير ، لان مناخ بلادها يقعد بها عن النشاط والحركة ، ويفريها بالكسل والقعود ، فتتسع لها اوقات الفراغ ، ويتاح لها مجال اعمال الفكر ... واهل الغرب مضطرون الى العمل المتواصل دفعاً لغوائل الطبيعة التي تتر بصهم ، والتماساً للدفع المتولد من الحركة العنيفة الدائبة ، ولا يلبث العمل الشاق ان يصير ديدنهم ، ويحول دون استغراقهم في التأمل والتفكير ، فتعطل ملكاتهم الفكرية . اما الشعب الاغريقي القابع بين الشرق والغرب فستمتع بمناخ معتدل يعينه على كل من العمل والتفكير على السواء ، فيتمكن من الاحتفاظ بقصب السبق في ميدان الرقي على غيره من الشعوب !!... وهل نحن في حاجة الى دحض امثال تلك الدعاوي بعد ان قال التاريخ قوله فيها؟؟...

اما مذهب المادية الاقتصادية فأبعد عن الصواب من المذهب الجغرافي ، لان تصوّر وجود العامل الاقتصادي وراء كل ظاهرة ، وكل حدث في الوجود ، وهيمنة ذلك العامل هيمنة مطلقة على الافراد ، بل على الركب البشري اجمع ، فيه نكران للنشاط البشري وأثره المادي والمعنوي في الاقتصاد . وفيه نكران كذلك لعامل التطور الاساسي وهو التناقض بين الاشياء وبين طبقات المجتمع ، ونكران للعلاقة بين الاشياء ، والتفاعل المحتدم بينها . ثم ان ارجاع الرقي الحضاري في امة من الامم الى مبلغ ما وصل اليه نظامها الاقتصادي من صلاحية وإتقان ينتظم الأمم التي تطبق نظاماً اقتصادياً مماثلاً في مستوى حضاري واحد ، وهذا ينافي الواقع .

وأما القول بأن العقل البشري الممتاز هو الذي يرقى بالبشرية بعد تخليصها من اضاليل الاوهام والاباطيل ، وتبصيرها بالحقائق ، فمردود بأن ذلك العقل ليس قوة

قائمة بذاتها ، تدفع وحدها الشعوب الى الامام ، وتستكشف الحقائق بطريق الالهام على حد زعم اصحاب هذا القول ، ولكنه ، يستنبط الحقائق ، ويحصل العلوم والمعارف من الواقع عن طريق الخبرة العملية التي امدته بفهمه شيئاً فشيئاً على كره الدهور وفق ما كررنا شرحه .

وقد ظهر اناس حاولوا التوفيق كالعادة بين هذه النظريات المتضاربة ، فزعموا ان لكل منها نصيباً من الصحة ، فكل عامل من تلك العوامل له اثره في تطوير الامم . وحسبوا انهم قد اهتمدوا بهذا الرأي الفطير الى الحل الصحيح . ولم يكشف عن خطئ هذه النظريات جميعها غير الفيلسوف الالماني هيجل الذي فطن الى ان عامل التطور داخلي لا خارجي ، وهو لا يعدو ذلك الصراع القائم بين المتناقضات المتحدة في الاشياء ، وقد سبق لنا شرح مذهبه هذا .

العامل الاساسي لتطور المجتمعات

بقي علينا ان نشرح العامل الاساسي لتطور المجتمعات ، وهو التناقض الكامن فيها . فالوقوف على هذا العامل ، وتتبعه على مر الدهور ، وادراك نوااميس نشاطه ، ممكن الفلاسفة اخيراً من تفسير التاريخ تفسيراً علمياً واقعياً .

لقد ادرك اولئك الفلاسفة الواقعيون أن تطور المجتمعات يجري طبقاً لناموس التطور الموضوعي . اما عوامل التطور الخارجية التي تحدثنا عنها فآثرها ثانوي كما قلنا . وليس معنى هذا ان نشاط الناس الفكري لا يلعب دوراً هاماً في عملية التطور ، فان الرقي الحضاري ولید الصراع بين الفكر التقدمي والفكر الرجعي ، ذلك الصراع الذي يجري في ظل قانون التطور العام المستقل عن ارادة الناس الذين يستطيعون بعد دراسته ، والوقوف على قواعده ان يسيطروا عليه ويوجهوه كما يسيطروا على

القوانين الطبيعية الاخرى ووجهوها . ولكن هذه السيطرة وهذا التوجيه لا يعنيان
تمكن الناس من تغيير اصول تلك القوانين وقواعدها الاساسية .

ان القوى الانتاجية ، وهي الارض وادوات الصناعة والمعامل والمصانع
والفلاحون والصناع والعمال ورجال الفكر والفن ، تتطور باستمرار مدفوعة الى
الامام بالنشاط البشري المادي والفكري ، ذلك النشاط الذي يستهدف استغلال
الطبيعة لتهيئة حياة افضل وامتع وأجمل .

وحيثما تتطور قوى الانتاج تتطور علاقات الانتاج بالتبعية ، اي تتطور
العلاقات بين المسيطرين على ادوات الانتاج وبين المنتجين والمستهلكين ، ويشند
الصراع بينهما متحصناً بالقوى المادية والفكرية الى ان يتغلب الفريق الثاني على
الاول ويحل محله كما وقع في ثورة العصامية الفرنسية على الاقطاع . وحين تتم هذه
الغلبة يبلغ كم القوة العددية والمادية عند الغالب حداً معيناً ، يتغير المجتمع الذي
وقع فيه الانقلاب نظاماً وفكراً وعلاقات انتاج . ويتناول التغير جميع طبقات ذلك
المجتمع . ولكن المعتقدات والافكار القديمة تناضل مع ذلك في سبيل البقاء ، رغم
تغير الظروف التي اوجدتها ، مستندة الى نشاط القوى الرجعية ، ولكنها لا تلبث
ان تتضعع بدورها وتبدد . وهكذا يؤدي كل من الماديات والمعنويات دوره في
عملية التطور والتغير .

مراحل تطور المجتمعات

كان التناقض بين الافراد قائماً حتى في العصر البدائي حينما كان الناس منقسمين
الى اسر وعشائر ثم الى قبائل متألّفة بأواصر القرى والمصلحة المشتركة . اي كان
تناقض المصالح الفردية قائماً بين الافراد ، بينما جمع التعاون شتيّتهم في سبيل التغلب

على مصاعب الحياة . ولا يخفى على المتمعن في هذه الحال خضوعها لنظرية ترابط
النقائص . ولكن التناقض بين الافراد حينذاك لم يصل الى مرحلة الصراع العام
بينهم ، لان ظروفهم المعيشية القاسية كانت تفرض عليهم ، كما قلنا ، تعاونهم في
سبيل القوت والمأوى . اي ان التناقض بينهم وبين قوى الطبيعة المعاكسة ، او
بينهم وبين القبائل المعادية والظروف المعيشية غير الملائمة ، كان هو الاغلب .

واهتدى الانسان في نضاله المبرر لتوفير القوت الى فلاحه الارض ، فاذا
اهتدأه اليها يسفر عن تطور البشرية من العصر القبلي الى العصر الزراعي ، وانقلاب
النظام القبلي الى النظام الاقطاعي . فمذ مارس الناس الزراعة استقرت القبائل
الرحل في البقاع الخصبة ، واقتسم افرادها الارض فيما بينهم . وصار كل نصيب
من الارض ملكاً خالصاً لمن وضع اليد عليه . وهكذا عرف الفرد التملك ،
ونشبت فيه الرغبة الملحة في توسيع رقعة ملكيته . واخذت رقعة كل ارض زراعية
تتسع بتكاثر من يحتلها من الناس . ولم تعد اطرافها البعيدة عن القرية ذات نفع
لاصحابها نظراً لصعوبة الانتقال اليها ، ونقل المحاصيل منها ، فنزح الناس الى تلك
الاطراف وأنشأوا القرى الجديدة ، واستمر التكاثر واتساع المساحات المزروعة .
واختلف جهد الناس في الزراعة ، فانقسموا الى اغنياء وفقراء ، وظهرت طبقة من
المعوزين الذين لم يجدوا ارضاً يزرعونها ، فاضطروا الى تأجير سواعدهم للعمل في
حقول لا يملكونها . واستدان الفقراء من الأغنياء فاضطروا بدورهم الى العمل
بالأجر ليوفوا ديونهم . وقد اسفر تشغيل رأس المال على هذا النحو عن ازدياد غنى
الاغنياء وفقر الفقراء ، وظل الأولون في صعود ، وهؤلاء في هبوط حتى صار الجانب
الأكبر من الارض والمال في ايدي قلة من الناس تضخمتم على حساب غيرها .

وتمكنت بسلطان المال واستغلال الديون من استعباد فالحى الارض وضمهم الى زمرة العبيد من اسرى الحروب ، واسرى عصابات النخاسة . ولم يقف جشع اولئك الاغنياء عند حد ، فأخذ اقوياءهم يغيرون على الاصقاع الاخرى . ثم تحولت تلك الغارات الى حروب طاحنة انجملت عن فوز المنتصرين بالاراضي الشاسعة التي استحوذوا عليها عنوة ، او اقطعها لهم اربابها المنهزمون . واذا الجموع تنقسم مرة اخرى الى امراء إقطاع وأشراف من ناحية ، او الى عامة يعمل أفرادها المزارعون أفنانا في ضياع أولئك السادة ، ويحترف الآخرون الصناعة والتجارة من ناحية اخرى . ويستخدم التناقض بين هاتين الطبقتين ، ويشدد النقيض النامي ، اى النقيض الشعبى المسخر لخدمة الامراء و بطانتهم من الأشراف ، ويتحول الى صراع يأخذ في الاشتداد بازدهار التجارة التي تستهدف اول الامر سد حاجة الامراء و بطانتهم وجيوشهم وفق ما شرحناه فيما سبق . وتنشط الصناعة كذلك لتقوم بنفس المهمة . ثم يأخذ المال والسلطان في التحول شيئاً فشيئاً الى تجار الجملة ، ورؤساء الصناعات ، ومحتكري توريد منتجاتها . وينشأ من صلب هذه الطبقة الفتية الجديدة فلاسفة وكتاب وشعراء ينفثون في ضرام التناقض بإثارة الشعب على مستغليه حتى يثور ويدبل دولتهم كما حصل عند اشتعال الثورة الفرنسية . ويقفز أصحاب النفوذ النامي عندئذ الى مراكز الحكم والسلطان ، ويستأنفون استغلال الشعب بدورهم على نحو جديد . ويؤسسون نظاماً رأسمالياً يقوم على الاستغلال والاستعمار ، وينشب التناقض من جديد بين فريق المستغلين وبين مستغليهم حتى يتحرر الآخرون من براثن الاولين .

هذه هي المراحل التي تمر بها الامم في مضمار التقدم الحضارى ، وهي المراحل التقدمية كما هو واضح . وقد يبطئ تقدم أمة من الامم في احدى تلك المراحل او

يسرع طبقاً لظروفها المحلية، او لطارىء خارجي. وقد يعوق ذلك الطارىء الخارجى تقدمها لفترة قصيرة او طويلة من الزمن ، ولكن مثل تلك الامة لا تلبث ان تستأنف نشاطها حالما تنهياً الظروف الملائمة من جديد .

ونستخلص مما تقدم ان ناموس التطور المذكور الذي يؤدى الى تحول المجتمعات البشرية من النظام القبلي الى النظام الاقطاعي الزراعي فالنظام الرأسمالي الصناعي فالنظام الديمقراطي الشعبي، واحتدام صراع التناقض الذي يؤدي الى ذلك التحول، ناموس طبيعي مستقل عن ارادة البشر على الرغم من أن النشاط البشري وصراعه هو الذي يفضي الى ازدهار الزراعة فالتجارة فالصناعة ، مما يفضي الى الازدهار المعنوي المتولد من ذلك الازدهار المادي ، والخاضع لتوجيهه ، مع تأثير كل منها في الآخر تأثيراً متبادلاً مركباً .

تطور المثل والمعتقدات

قلنا ان الفلسفة الميكانيكية تؤمن بخضوع الفكر خضوعاً تاماً للظروف المادية المحيطة به غافلة عما للفكر من رد فعل على الماديات ، وأثر في سرعة تطویرها وتبدیلها . فالواقع المادي في نظرها هو الذي يهيمن على الانسان هيمنة مطلقة ، ويوجهه توجيهاً لا ارادة له فيه . أما الفلسفة المثالية الخيالية ، وهي تقيض للفلسفة المادية الميكانيكية ، فلا ترى الا ان الفكر يسيطر على الماديات متحرراً من أي سلطان لها عليه، ويعمل مستقلاً عنها، على تسخيرها لسد مطالب البشرية . ولكن الفلسفة الواقعية التي تستهدف تفسير الوجود علمياً ، استطاعت ان تبرز قصور هاتين الفلسفتين ، وتكشف عن تولد المعنويات من الماديات ، واحتدام التفاعل المركب بينهما . وسنعود هنا الى استعراض الماضي لنتتبع خلاله سيرة ذلك التولد والتفاعل .

لقد أصبحت لدينا فكرة عن الاخلاق والطباع والمعتقدات والتقاليد الشائعة بين الجماعات القبلية . فاعتاد رجال القبيلة على الصيد والقنص لتوفير القوت ألزمهم ان يتعاونوا للحصول عليه ، ويوزعوه فيما بينهم على أساس اشتراكي ليكفوا دوام التعاون ، ومن ثم لم يعرف اولئك الافراد المنافسة في سبيل التملك والاستئثار بالنصيب الاوفر من المغنم ، فامتنتع بينهم اسباب السلب والنهب والاحتيال والغدر والكذب وغير ذلك من المثالب ، وتحلوا بحميل المناقب التي يفتتها افراد العالم الرأسمالي المتحضر ، هذه المناقب التي عاونت على توطيد النظام القبلي مع انها تولدت في الاصل منه . ومن الواضح ان المجتمعات القبلية لم تكن في حاجة الى حكومة مركزية ذات عملاء يفرضون سلطانها وسلطانهم على الناس . وقد تولد من وضعها الاقتصادي والاجتماعي نظام الزعامة الذي كان يلائمها كل الملائمة . فلم تكن هناك مصالح متضاربة فردية او جماعية تبلغ من التعقد حداً يستدعي سلطانها اقوى من سلطان زعيم القبيلة .

وكانت ظروف المعيشة الصعبة في ذلك العهد تحول دون توفر كفاية من الفراغ للتفكير إلا فيما يعين أولئك الباحثين عن الطعام على تذليل ما يصادفهم في مهمتهم الشاقة من صعاب . فلم تنهياً الفرص والاسباب لنمو العلوم وتبديد ما ران عليهم من ظلمة الجهل . ولم يجدوا تعليلاً للويلات التي تصبها الطبيعة على رؤوسهم ، ولتقلبات الحظ في معتركهم ، ولغرابية الأحلام التي تراءى لهم في منامهم ، ومداهمة المرض والموت لأعزائهم ، إلا نسبة هذه الأحداث والشواهد الى أرواح شريرة لا تكف عن الكيد لهم . ولم يعرفوا وسيلة لدرك كيدها إلا إقامة طقوس السحر والشعوذة التي يضطلع بها كهنتهم وسحرتهم الذين لا يكفون عن شحن أذهانهم بمزيد من الخرافات والأباطيل فيوطئدون اركان الجهل ، ويضاعفون خوف الجهلاء

من المجهول .

وحين هَلَّ العصر الزراعيّ فقدت المصادفات بعض الأهمية التي كانت لها في العهد القبليّ ، فلم يعد الخطّ يلعب الدور الرئيسي في حياة الزّراع ، وإنّما انحصر أثره في درجة نجاح المواسم الزراعية . ووجد الناس في تلك الظروف الجديدة بعض الاستقرار ، إذ كانوا يطمئنون الى توفر رزقهم لمدة طويلة من الزمن كلما تمكنوا من تخزين كميات من محصولاتهم . وتبدّد الخوف الذي كان يساورهم كل صباح في حياتهم القبلية وهم في طريقهم الى صيد قوتهم اليوميّ الذي كانت حياتهم وحياسة ذويهم تتوقف على توفيقهم في الحصول عليه .

وفي ظلّ العهد الزراعي الذي تستقرّ فيه الحياة نوعاً ، تتغيّر المعتقدات القبلية ، يأخذ الناس في نسبة الخيرات المتدفقة عليهم الى آلهة وأرباب يصوّرها لهم خيالهم . ويتّسع لهم الوقت للتفكير ، فيدفعهم فضولهم الى البحث في اصل الوجود المحيط بهم وحقيقته ، يأخذ علم الفلسفة في التكوّن والتبلور . وينمو عقلهم بمداومة النظر في الوجود ومحاولة تفسيره . وتدفعهم يقظتهم الفكرية الى السعي لزيادة محصولاتهم ، ورفع مستوى معيشتهم . فيفطنون الى طريقة الري من الأنهار ، ويدركون ان للزراعة مواعيد يتوقف نجاح المحصول على الدقة في اتّباعها ، فيحاولون تحديد الدورات الزمنية بواسطة التبحّر في علم الفلك . ويفتق ذهنهم حينئذ عن فهم قواعد الحساب والهندسة ، وابتدعون المكييل والموازين ويوفّقون الى مزاولة بعض الصناعات الزراعية . وتظل أفكارهم ومثلهم وفلسفاتهم الجديدة تتطور لتلاحق وضعهم الاقتصاديّ الجديد وتلائمه .

والعامل الأساسي لذلك التطور هو الصراع الطبقي المستجد الذي وقع نتيجة لتحول النظام التعاوني القبلي الى تكالب على ملكية الأرض الزراعية . وقد سبق لنا ان

شرحنا عملية تقلص الفضائل والشمائل ، واستفحال الرذائل والمثالب في ظل النظام
الاقطاعي ، ونضيف هنا أن التقاتل على تملك الأراضي في عصر الرق الذي يعقب
العصر القبلي ، يحول المودة والعطف والنجدة والايثار بين افراد القبائل الى نزاع
وطمع واغتصاب وحقد واغتيال في سبيل فوز الفرد بالنصيب الاوفر من الغنم . ثم
إن انقسام الناس الى سادة وعبيد يقضي الى اعتناق كل فريق من هذين الفريقين
لمعتقدات ومثل أخلاقية وصفات تلائم طبقته . وحينما يبتلع الأقوياء من ملائكة
الأرض الضعفاء ، ويستشري الصراع فيبتلع بعض الأقوياء بعضاً ، وتتوطد أركان
عهد الاقطاع ، وتتميز طبقة الأشراف التي تعدّ من عداها من الناس طبقة دنيا ،
تبرز في كل من هاتين الطبقتين الجديدتين أيضاً مثل أخلاقية وصفات ومعتقدات
تلائم وضعها . ثم تعود تلك المثل والصفات والمعتقدات فتلعب دورها في توطيد
الوضع الجديد الذي تولدت منه .

ونكرر ما ذكرناه آنفاً عن الافكار والمثل الرجعية فنقول انها لا تنبدد دفعة
واحدة بعد زوال الظروف والاوضاع التي خلقتها ، وبررت وجودها ، بل تساندها
القوى الرجعية المتلفطة الى القديم ، فتظل متشبثة بالبقاء ، مصطدمة بالمعتقدات
والمثل الجديدة ، مستبسلة في مقاومة الجديد وهي تتقهقر شيئاً فشيئاً حتى تلحق بها
الهزيمة .

ولا يوافي عصر الرأسمالية بعد انتصار الشعوب على طبقة الاشراف ، ويحتل
العصاميون المسكنة التي كان الاشراف يحتلونها حتى يتغير شكل الصراع ، فينزح
السادة الجدد بدورهم الى استغلال الشعوب واستعمارها ، والتضخم على حسابها ،
متوسلين الى تحقيق تلك الغايات بوسائل أخطر شأناً ، وأشدّ مفعولاً من وسائل

السادة السابقين . ويتميز أفراد من الطبقة الجديدة بالتبريز في الفلسفة والأدب والفن فيدبججون الفصول ، وينظمون القصائد في تمجيد طبقتهم ، والاشادة بانتصارها على مستغليها ، وخلع أسمى الصفات عليها ، والتغني بالحرية التي انتزعتها من سادتها السابقين ، والتطويل للفردية الصاعدة في مراقبي الجاه والمجد ، وتبرير الاستغلال والاستعمار بمختلف المسوغات . ومن ثم تتوطد المعتقدات والمثل الملائمة لتلك الطبقة . ويحدث هذا أثره في معنويات الطبقة الشعبية المناقضة لها ، ويدفعها الى التطور بدورها لتتحصن في صراعها مع نقيضها .

ويبدو مما تقدم ان كل مرحلة من مراحل التطور التي ذكرناها تنطوي على تناقض يبدأ جزئياً بين كل فرد وآخر ، ويتركب حتى ينتهي كلياً الى التناقض الطبقي ، وان هذا التناقض هو عامل التطور الرئيسي ، فهو سبب الصراع الذي يؤدي الى تبدل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، وأن كل وضع اقتصادي واجتماعي هو التربة الخصبة التي تتولد منها المعتقدات والمثل والطباع والصفات . وأن هناك صراعاً يدور بين هذه المعنويات الى جانب الصراع القائم حول الاهداف المتضاربة . وناموس تطور تلك المعنويات مشابه لناموس تطور الماديات . فالأفكار والتقاليد والقيم والمثل تتوالد وتتكاثر ، ويخرج بعضها من صلب بعض ، وتتصارع فينقلب النقيض منها الى نقيضه بعد تغلبه عليه . وتنتقل من مكان الى مكان ، ويدخل بعضها في بعض ، وينمو بعضها ويتضخم على حساب بعض ، ثم يضعف ويصبح أكلاً لغيره .

وبالرغم من ان تلك المعنويات تنبع من الأوضاع المادية ، فان اضطرابها يلعب كذلك دوره الرئيسي في عملية التطور العامة .

تطور النظم السياسية

قلنا إن تفرد الزعيم في تصريف أمور القبيلة نظام يلائم وضعها الاقتصادي والاجتماعي . فإذا حل العصر الزراعي كان من الطبيعي أن يقوم على نظام الرق ، فالفلاحة تحتاج الى الأيدي العاملة ، وليست هناك سلطة تحول دون استعباد الملاك الأقوياء للموزين الضعفاء ، وتسخيرهم في خدمة الأرض ، وممارسة الصناعات البدائية . وحين يزدهر عصر الاقطاع ، وتحتاج الأراضي الزراعية المتسعة على التوالي الى خدمة الجموع الحاشدة ، يستدعي ذلك انقسام الناس الى أشرف وعامة ، ويتركز السلطان في يد أمير الاقطاع الذي يمارس حينذاك الحكم الفردي المطلق . ثم يقضي الصراع الحثري في سبيل التوسع الزراعي ، أن يُغيّر أولئك الأمراء بعضهم على أراضي بعض مدفوعين بالرغبة في التضيّق على حساب بعض . ويفضي ذلك الى تكثّل الامارات المتجاورة لدفع غارات المغيّرين الغرباء . وتحاول الامارة ذات النفوذ الأقوى بين الامارات المتكتلة أن تبسط سلطانها على حلفائها ، وتركّز سلطان الحكم في يدها ، وتظلّ تعمل لهذه الغاية حتى تتمّ لها الغلبة ، وتتمكن من إقامة الحكومة المركزية الملكية ...

وتشتمل الثورات المقوّضة للنظام الاقطاعي باسم الشعوب المهضومة الحقوق ، فتتخذ من الحرية والاخاء والمساواة شعاراً لها ، وتعلن أن الأمم مصدر السلطات ، فتتشكّل الحكومات على أساس نظام ديموقراطي . ولكن رؤساء تلك الحكومات ، من ملوك وزعماء لا يلبثون ان يعيّنوا بحقوق الأمة ، خاضعين لأصحاب النفوذ الفعلي من كبار الملاك وكبار رجال المال . وتشتبك الأمم في صراع مع تلك الحكومات ومن يقف وراءها من أولئك المتميّزين من ذوي المصالح الخاصة حتى تنتصر فتصبح مصدر السلطات فعلاً .

المؤسسات الاجتماعية وتطورها

تميزت المجتمعات بعد العصر القبلي بأشغالها على مؤسسات وهيئات ومعاهد سياسية واقتصادية وعلمية وفنية . وقد تتبعنا في النبد السابقة التطور الاقتصادي والسياسي للأمم على مر الأحقاب . وسنتناول هنا تلك المؤسسات والمعاهد والهيئات التي تتخذها الحكومات عماداً لها في ممارسة الحكم مكتفين بتلخيص بحث كاتبه عميد كلية العلوم بجامعة لندن في هذا الصدد . فقد جاء بحثه هذا موفياً بالغرض ، مغنياً عن كتابته على نحو جديد . قال ذلك الفيلسوف :

« ويقوم بعضها ، أي بعض الهيئات والمؤسسات المشتغلة بأمور الفكر والعاطفة بتلقين الأفكار والمعتقدات والتقاليد والعلوم والفنون الخاصة بعصر معين ، ويقوم بعضها الآخر بتطبيقها . فتغرس الكنائس ومعاهد الدين العقائد الدينية في النفوس ، وتلقن المدارس النشء معتقدات المجتمع التقليدية ، وتدرّبهم على علوم ذلك العهد وفنونه وصناعاته . ويتلقى شباب الجنسين العلم في المعاهد العالية والجامعات وهم متأثرون بمعتقدات جيلهم فيدركونها على نحو معين . وتسنّ الحكومات الشرائع ، وتحافظ على نظام الحكم ، وتستعين بمختلف الوسائل المعنوية والمادية على توطيده ، سواء في ذلك النظام الاقطاعي أو الملكي المطلق السلطان ، أو الديمقراطية الرأسمالي الاستعماري .

أما في العصر الحديث فقد نشأ نظام التمثيل النيابي ، وتولّت مجالس النواب التشريع ، والاشراف على تصرف الحكومات نيابة عن بعض أفراد الشعب الذين يملكون حق الانتخاب . « وإذا نحن ألقينا على التاريخ نظرة عامة شاملة نجد أن الإنسانية قد مرتّ خلال ثلاث أطوار رئيسية . أولها عصر الاقطاع وثانيها عصر أثرىء التجار ومحتكري الانتاج الصناعي ، وثالثها عصر اصحاب المصانع والشركات .

وقد تميز كل عصر من هذه العصور بميزاته ، ففي الزمن الحاضر اعتماد قطان أمريكا وأوروبا حياة المدن الكبيرة المزدهمة بالدور الشاهقة والمصانع الضخمة ، والبيوت التجارية الفسيحة ، والسيارات وقطارات الترام والسينما . فتنوعت المعاملات وكثرت الحوادث ، وتعددت الملاهي ، وانتشرت الصحف والمجلات والمؤلفات التي تبشر بمختلف الآراء ، ونشط التشريع ليساعد على استقرار الأوضاع . ونحن لا نكاد نشعر بما يجري حولنا ، لأنه صار طبيعياً عادياً ، في حين أنه من الخصائص التي تميز بها العصر الذي نعيش فيه .

« وإذا عدنا الى الورا خمسمائة عام نجد أن ما نشاهده اليوم ونخبره لم يكن يجري ببساطة احد . فقد كانت المدن إذ ذاك أشبه بقرى اليوم ، والمؤسسات الفكرية والفنية أقل مستوى من المؤسسات القروية ، والصناعة فردية يزاوها الصانع لحسابه ، ولم يتعرض من أنواعها غير صناعة السفن التي كانت تمخر البحار فتجلب من الشرق زيوت وعطوره وحريه ، وتحمل اليه سلع صغار الصنائع الأوربيين . وقد أخذ نجم التجار حينذاك في الالتماع ، فبنوا القصور ، وقدموا القروض لـالأثرياء ، وزاحوا الاشراف حتى حظوا من دونهم بمكان الصدارة في قصور الملوك .

وإذا عدنا الى الورا خمسمائة عام أخرى فانا لا نكاد نجد صناعة تذكر ، او تجاراً لهم عزوة وشأن . فقد كان في كل مقاطعة أمير يقطن قلعة منيعة الجدران ، ويحيط به ندمان من الأشراف ، ويقوم سكان المقاطعة على خدمته وخدمة بطانته . وكانت الكنيسة الخاضعة للأمر هي الهيئة التشريعية التي تكيف العقائد وفق هواه ، وتضع أسساً للحق والعدل تخدم مصلحته .

« وإذا عدنا الى ما بدأنا به تبينا ان المجتمع في كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي ينسج آراءه وعقائده وتقاليده من وضعه الاقتصادي ونوع انتاجه وكميته

وطرق صناعته وقواعد توزيعه . وأن الطبقة المحظوظة تهيمن على الطبقة المغبونة ،
وتشد عليها قبضتها لتحافظ على الواقع وتطمئن الى استتبابه ودوامه ، وتستعين على
ذلك بالهيئات والمؤسسات التي تنصرها في معترك الفكر والعقيدة ... »

فكرة المعتقدات والمثل

ليس المقصود من ذلك العرض الخاطف لتطور المجتمعات ، هذا العرض الذي
جرينا فيه عبر التاريخ ذهاباً وإياباً في دقائق أن نلاحق أحداث التاريخ ونشرحها ،
أو أن نمتحن مراحل تطور المجتمعات ونحللها ، فمثل هذا الطلب يحتاج الى شرح
يستغرق مجلدات . ولكننا توخينا شرح ناموس التطور تاركين للقارئ الممحص
تطبيق هذا الناموس بتوسّع .

وعلينا ونحن نختتم هذا البحث أن نطالب القارئ بمراجعة شرحنا لأصول
الفلسفة المثالية وأهدافها على ضوء ما ورد في هذا الفصل . فهو يستطيع بذلك أن
يتبين طبيعة المعركة التي تخوضها تلك الفلسفة لتأييد نظام الطبقة التي تنطق باسمها ،
وتعبّر عن وجهات نظرها ، وتستهدف أهدافها . إن القارئ الذي يلم بالصراع
الناشب بين الرأسمالية الاستعمارية وبين الشعوب التي تستغلّها يستطيع أن يلمّ على
نحو أوضح بالصراع الناشب بين الفلسفة المثالية وبين الفلسفة الواقعية ، فبينما تجاهد
الأولى في سبيل صرف الناس عن الواقع ، وشغل بالهم بالأوهام حتى لا يفتنوا
لحقوقهم المهضومة ويطالبوا بها ، وحتى يظل المحظوظون محتفظين بما اغتالوه من
حقوق الضعفاء ، تكافح الثانية في سبيل تفسير الواقع على صحته ، وثبتت إيمان
الأغلبية الشعبية بحقها ، وبشرعية الكفاح لدفع الحيف عنها . إن المعركة بين
هاتين الفلسفتين هي انعكاس للمعركة الاقتصادية والسياسية الدائرة بين الفريقين
الذين يعتنق كل منهما إحداها .

الفصل التاسع

الحرية

مدلول الحرية

أول ما عرف الإنسان الحرية عرفها يوم استعبد القوي الضعيف ، فالحرية لم تعرف إلا يوم عرف الاستعباد . ثم عرفت الشعوب قيمة الحرية أيام استبد بها حكام غاشمون . ولم يكن للحرية في الأذهان قديماً إلا مدلول واحد ، هو خلاص الأفراد والشعوب من استبداد الفرد المتحكم فيها . ولم يتغن الشعراء بها ، ولم يباركوا الجهاد في سبيلها إلا على أنها تتضمن ذلك المدلول ، ومن ثم اكتسبت جلالها وقدسيتها .

على أننا رأينا بعض الأفراد يشيدون في العصر الحديث بحرية مقلوبة الوضع ، فهم إذ يطالبون بقسط أوفى من الحرية الفردية إنما يطالبون بقسط أوفى من النفوذ والسلطان . فالحرية في نظرهم هي حريتهم ، أي حرية الأفراد في استعباد الجموع . وقد استطاعوا ، وهم يدافعون عن تلك الحرية الزائفة منفعلين متهدجين ، أن يستغلوا السحر السكامن في تلك الكلمة المرموقة « الحرية » ، وأن يخدعوا الناس في دعوتهم المضللة . وما زالوا يطبسون ويزمرون حتى أدخلوا في روع الخدوعين أنه لم يعد للحرية أنصار غيرهم .

ومن البدييات المسلم بها أن الحرية تصبح فوضى إذا هي لم تنظم ، وأن حرية

الفرد تنتهي حيث تبدأ حرية غيره ، فإذا جاوز في ممارسته لحيته ذلك الحد ، فقد جار على حرية غيره ، واستبد به . ومما صار مسلماً به كذلك ، ومؤيداً بقوة القانون أن حرية الفرد يجب ألا تضرّ بغيره ، ويجب من باب أولى ألا تضر بالمجتمع .

إن الفرد المستقل عن المجتمع كل الاستقلال لا وجود له إلا في عالم القصص والأساطير . وإذا كانت معتقدات الفرد وعقائده وخواجه مقتبسة من مجتمعه ، فإن الذي يباعد بينه وبين ذلك المجتمع ، ويخفّره بين اتجاهاتها هو استغراقه في انانيته ، وانشغاله بنفسه عن غيره ، وتوهمه أن سبيل السعادة محصور في الاهتمام بغاياته دون غايات مجتمعه .

وقد قال أحد الفلاسفة الوجوديين المعاصرين « إن الإنسان خاضع لخسة أنواع من العبودية هي عبودية الفرد للفرد وللطبيعة والمجتمع وللحضارة ولنفسه ... » ونحن إذا استثنينا النوع الأول ، وهو عبودية الفرد للفرد ، وكذلك عبودية المجتمع للفرد ، تلك العبودية التي تعد أول مسا عرف الإنسان من أنواع القهر والاستبداد ، وأسوأ ما عانت الإنسانية من ألوان العذاب ، إذا استثنينا هذين النوعين فأننا نستطيع أن ندمج الألوان الأربعة الأخرى في نوع واحد من العبودية هو النوع الأخير ، وهو عبودية الإنسان لنفسه أو لأنانيته ، ذلك أن الإنسان يزداد مشاركة لغيره في خواجه وخواطره على قدر تجرّده من انانيته . وكلما قويت تلك المشاركة خفّت حدة الخلاف بينه وبين غيره ، وإذا بلغت المشاركة اقصاها انحسم كل خلاف بينه وبين غيره . والاضطهاد الفكري لا يكون إلا عند اختلاف الآراء والمعتقدات ، فإذا انحسم الخلاف ، لم يعد هناك محل للحجر على الفكر ، ومصادرة المعتقدات بعضها لبعض . ولا يظن القارئ أننا نبشّر فيما نقول بالرياضة

الروحية ، وندعو الى ممارستها لترويض الروح على الزهد والخنوع ، او اننا ننكر على الانسان ان يحتفظ بشخصيته ، ويستمتع بهواياته ، ويتبع الاسلوب الذي يراه في حياته الخاصة ، ولكننا ندعو الى العمل على تهيئة الظروف التي تعين على ذلك .

ان الفرد المنتمي الى جماعة تعيش على الفطرة لا يشعر بوحشة الانفراد ، اي لا يشعر بذاتيته وفرديته ، ولكنه يفكر بعقلية الجماعة ، ويشعر بشعورها . والفرد لم يشعر بفرديته الا يوم ان شعر بتفوقه الفكري وتميزه الاجتماعي ، ومن ثم اخذه الزهو فانطوى على ذاته ، واهتم بغاياته الخاصة ، مستخفاً بغايات الجماعة . وفي يقيننا ان مرحلة التطور الانساني الحالية ستتيح لمثل ذلك الفرد ان يدرك تفاهة حياته الفردية ، وضرورة اتحاده مع مجتمعه لان حياة الفرد مهما عظمت ، محصورة في دائرتها الضيقة ، ولكنها اذا اتصلت بالمجتمع اتسعت دائرتها حتى شملت المجتمع بأسره قوة وقدرة وخلوداً . وتكون مهمة كل فرد ان يعمل على زيادة مجتمعه قدرة على تحسين حاله ، وان يؤكد تميزه بتأكيد تميز مجتمعه . ولن يبرز عصر الانسانية السعيد الا يوم ان يدرك الناس ان المجتمع لا يسمو بسمو افراد منه ، ولكن كل فرد فيه يسمو بسموه هو . وهذا لا يقع الا حين يتهيأ الوضع الاقتصادي الذي يعين على تقدم الجموع .

وما دام ان الانسان لا يستطيع ان يعيش في عزلة تامة ، فهو يحاول ان يخرج من فرديته اما بمحاولة اتصاله بفرد آخر او بجماعة او بهيئة او بالمجتمع او بالانسانية جمعاء . والنوع الاول من ذلك الاتصال يتجه الى العاطفة الذاتية او الحب الجنسي ، وينقلب ، على الاغلب الى سادية او ماسوشية ، فيتعذب الحب او يطنى على حبيبته ويعذبه . والنوع الثاني من اتصال الفرد بغيره هو اندماجه في

الجماعة ، ولا شك ان مثل هذا الاتصال هو اول خطوة صحيحة في سبيل الخروج من فرديته ، والتخلص من انانيته . اما اتصال الفرد بمجتمعه في ظل نظام اشتراكي تعاوني ، فخطوة مثلى في سبيل تحقيق مصلحته الفردية عن طريق تحقيق المصلحة العامة ، وفي سبيل البرء من اثره ، والتمكن من ادراك الحياة ادراكاً موضوعياً ، والاستمتاع بما تشتمل عليه المشاركة الجماعية في العيش من مشاعر التألف والمحبة والايثار . اما النوع الرابع فهو الخطوة النهائية الى خير البشر وسعادتهم . وقد يقول القائلون ان هذه المشاركة حلم من الاحلام مستحيل التحقيق . وهي كذلك بالفعل في ظل النظام الرأسمالي الاستعماري الذي يعيش العالم تحت نيره . ولكنها ستتحقق من تلقاء نفسها على اثر انتصار الشعوب في المعركة القائمة بينها وبين مستغليها .

حرية الفرد

احترم الجدل بين مفكري أوروبا في القرن التاسع عشر حول حرية الفرد ، فقال بعضهم ان الدولة مسؤولة عن سلامة المجتمع ، وتوفير أسباب أمنه ورفاهيته ، فاذا هي مسّت حرية الفرد بما تصدره من شرائع للقيام بذلك الواجب ، فانها لا تكون مفتتة معتدية ، بل تكون قد مارست حقها ، واضطلعت بواجبها . وقال آخرون ان حرية الفرد مقدسة لا يجوز التعرض لها بحال ، لأن تقدم المجتمع لا يقوم الا على أكتاف أفراد المعتمدين بالمتاعين بكامل حريتهم .

وبلغ هذا الجدل اشدّه في إنجلترا بعد أن أصاب رجال التجارة والصناعة فيها ثروة ونفوذاً فاقا كل مأمول ، ولم يتحقق ذلك الا ببذل نشاطهم الاستغلالي الاستعماري الذي لم يكبح جماحه كابح من ذمة او امانة او قانون ، فوجدوا بين

اهل القلم نصراء نسبوا الى المعيتهم رخاء بلادهم في ذلك الوقت . ولكن أغلبية الشعب الانجليزي ظلت أمينة على مبادئ الانسانية ، فلم ترتح للعصامية الانتهازية ، ووجد أيضاً بين المفكرين من يعبر عن وجهة نظرها . ومن ثم وقع النزاع بين المطالبين بالحرية الفردية المطلقة ، وبين الحريصين على صون مصلحة الامم من استغلال المستغلين . وسنعرض لتلك المعركة باختصار .

من المسلم به ان الفرد لا يمكن أن يتمتع في المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه بحرية مطلقة ، فان حريته تنتهي كما قلنا حيث تبدأ حرية غيره ، وتنتهي من باب أولى حيث تبدأ حرية مجتمعه . فالنزع لا يمكن أن يقوم على فكرة منح الفرد حرية مطلقة ، بل على مقدار القسط الذي يتمتع به منها . وقد كان جهاد الشعوب في سبيل الحرية أيام استبداد امراء الاقطاع وصنائعهم من رجال الدين في القرون الوسطى يرمي الى الخلاص من ربة الحكام المستبدين . ونشأ من بين أبناء الطبقة المتوسطة التي أخذت في التكوّن حينذاك رجال من حملة الاقلام نادوا بحرية الفكر ، مستهدفين التمكن من نشر معتقداتهم الجديدة ، وإحقاق حقهم المهضوم . فلما فازت تلك الطبقة بالسلطان مارس تجارها وأثريائها تلك الحرية على أوسع نطاق ليفوزوا بأكبر قسط من المغنم ، غير مباليين بمصالح الناس وحررياتهم المتناقضة مع مصلحتهم وحريتهم . ولم يخل الأمر من وجود أفراد عاطفيين من رجال الحكم حاولوا الحد من مظالم أولئك المستغلين ، وشرعوا لذلك بعض القوانين التي مسّت الحرية الفردية مساً خفيفاً ، فثار المستغلون وأنصارهم ، مستمسكين بما اكتسبوا من (حق !) استنزاف دماء الأغلبية المسلوقة الحقوق . ولكن بعض الكتاب الشرفاء تصدّوا لهم ، وحاولوا أن يردّوا لأصحاب الحقوق بعض حقوقهم . وكان

المصلح الاجتماعي الانجليزي بنثام على رأس أولئك الذين أهابوا بحكومتهم ان تبادر الى حماية الشعب من استغلال الافراد ذوي النفوذ . وقال في ذلك « إن الحكومة تمثل أغلبية الشعب ، فيجب ان تقف الى جانبها ، وتحافظ على حقوقها ، وتصورها مع عبث العابثين ، وان السلطة التشريعية هي حامية حي المجتمع ، فعليها ان تنصب نفسها رقيباً على كل أقلية تحاول ان تطغى على الأغلبية ، وأن تبادر الى سن القوانين التي تحول بين المستغلين وتحقيق مآربهم » وكان من نتائج دعوته هذه ان أقر البرلمان البريطاني « عقد الاصلاح البرلماني » الصادر عام ١٨٣٢ .

أما المدرسة التي ناهضت بنثام وأشياعه فكان دعائها يعرفون باسم النفعيين . وقد بنوا لهم مذهباً يقوم على ان المجتمع مكوّن من مجموع أفراد ، فكل فرعيهيه بعض أفراد لا بد أن يعمه هو بأسره . ولكن حملات بنثام زعزعت أركان ذلك المذهب ، وما كادت تقوّمه حتى هبّ « جون ستيوارت ميل » الى الذود عنه .

الفردية في اوجها

كان هذا المفكر الانجليزي في صباه تلميذاً لبنثام ، ولكنه ما شبّ عن العلوق حتى افترقت به وبأستاذه الطرق . ووقف قلمه على الدفاع عن حرية الفرد مولياً ظهره لحرية المجتمع ، وبنى « مذهب للنفعية » على أسس جديدة بعد أن تصدّعت أسسه القديمة . واستند اول ما استند الى نظرية تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي وانتهى منها الى ان المنافسة الحرة هي حجر الزاوية في التقدّم الحضاري ، فتناقض بذلك رأي مناهضيه الذين رأوا في التعاون مصلحة للمجتمع لا تحققها المنافسة ، ورأوا في حماية الضعفاء ، وهم أكثرية الشعب ، وشدّ أزهم ، وتمكينهم من النهوض ، حماية للشعب بأسره ، وشدّ لأزره ، ودفعاً له الى الامام ، فالمجتمع لا

يرقى برقي قلة من أفرادہ ، ولكنه يرقى برقي المجموع .

ومن أشهر ما دبّجه « جون ستيوارت ميل » ذلك الفصل الذي كتبه تحت عنوان « الحرية » ، ودافع فيه عن حرية الفرد في أوسع حدودها . وبالغ في إظهار مخاوفه من خلود شعلة الفردية الممتازة فيما اذا هبّت عليها عاصفة رأي الاغلبية العامة الفهم والادراك . لقد أصرّ على ضرورة ترك الفرد حراً في تصرفه لا يحاسبه الا وازع من ضميره وادراكه ، ووضع حريته فوق العدالة والمساواة اللتين نادى بهما أستاذه بنثام !! وندّد بقول من قالوا إن من حق المجموع أن يتقاسم متع الحياة ، ذلك لأن متع الحياة في زعمه ليست كماً « بل كيفاً » فهي مختلفة القيم ، متفاوتة الدرجات !! فاذا وزعت بين الناس على قدم المساواة فقدت تميز بعضها على بعض ، وصارت جميعها على درجة متساوية من التفاهة !! ... وهو لا يرى التصدي لحرية الفرد الا في حالة واحدة ، وهي تحديده لسلامة المجتمع .

وقد تحمّس في دفاعه عن حرية الرأي ، فقال « إن اختلاف وجهات النظر ، وتمتع أصحابها بإبدائها ، يفسح في مجال الجدل ، فينير الذهن ، ويمهد طريق الرقي الفكري الذي هو غاية الانسانية الكبرى . وقد قال كذلك ان اختلاف الاشياء هو الاساس الذي قام عليه هذا الكون ، وأن الحرية الفردية هي وحدها التي تؤدي الى اختلاف الشخصيات والامزجة ، وخلق مجتمع متعدد الجوانب ، متنوع التجارب ، ميال الى المنافسة . أما اذا صب افراد المجتمع في قالب واحد فلم يختلفوا ، أصابه الجمود ، وتهدهد الفناء !! وهو يعود الى نظرية السكم والكيف فيقول ان القلة المستنيرة يجب ان تمسك بزمام الكثرة الجاهلة ، وتتحكم في مصيرها ، والا عجز المجتمع عن التقدم خطوة واحدة في سبيل الرقي .

ولكن « جون ستيوارت ميل » سلم بأنه « لا يجوز للفرد وهو يمارس حريته ان يصيب غيره بضر او اذى ، فحرية الفرد يجب الا تضر سواه او تؤذيه . وقد اصطدم ذلك المفكر هنا بعقبة لم يستطع تذليلها ، فهو لم يدرك طبيعة التناقض بين الفرد وبين سواه من الافراد والجماعات . ولم يفهم حتمية ذلك التناقض الذي يحوله الاستغلال الى صراع مستعر الأوار ، ولم يوفق الى تحديد المدى الذي لا يجوز للفرد ان يتجاوزه حين تلحق حريته الضرر والاذى بغيره . والعجيب انه يعترف في صراحة بأن الحرية يجب ان تقصر على القلة الممتازة ، لانها هي المنفردة بالآراء الصائبة ، وهي المتحكممة في وسائل الدعاية والنشر ، فهي التي ترسم خطط السير ، وتتقدم بالاجتماع ، فيسير خلفها منقاداً لها !! »

ومن اشهر من دافعوا في القرن التاسع عشر عن حرية الفرد الكاتب الانجليزي « سبنسر » وكانت نظرية داروين عن « التطور الطبيعي » هي الاساس الذي بنى عليه بحوثه . فقد رأى ان الانسان يحاول وهو يستهدف توفير اكبر قسط من السعادة لنفسه ، ان يلائم بين مطالبه وبين البيئة المحيطة به ، وهو يحتاج في توفيق هذه الملائمة لتحقيق مآربه الى التمتع بأكبر قسط من حرية الفكر وحرية العمل . ومعنى هذا ان سبنسر يرى الغاء القوانين الوضعية ، وتعطيل التشريع ، والاستغناء عن الحكومات ، وترك حياة البشر تجري في مجراها المقدر لها ، غير خاضعة الا للقانون الطبيعي ، قانون الغاب ، حيث يؤدي تنازع البقاء الى بقاء الاصلح !!.

ولكن ذلك الفيلسوف لم يناد بتعطيل القوانين والغاء الحكومات دفعة واحدة ، بل رأى ان يتم ذلك بالتدرج ، على ان تكون البداية اقتصاد المشرع فيما يصدر من

قوانين ، فلا يمس تشريعه حرية الفرد في جهاده للوصول الى تحقيق اغراضه ، ولكننا يعينه على ممارسة تلك الحرية في اوسع نطاق . والانسانية بطباعها وغرائزها الموروثة ، وحسن تقديرها للخير والشر تستطيع ان تكون مع مرور الزمن مجتمعاً مثالياً ، وهي اذا ما حققت هذه الغاية السامية امكنها ان تستغني عن الحكومات... ولكن سبنسر رجع عن هذا الرأي في اواخر ايامه ، وزعم ان وجود الحكومات ضرورة لا غنى عنها لا للحد من حرية الافراد ، ولكن لحماية الافراد من عصف المجتمع بهم !!...

وبينما كان هذا الجدل النظري يحدث بين حملة الاقلام ، اخذ الاتجاه الواقعي يميل بالحكومات الى الاهتمام بمصلحة شعوبها رغم ما لذوي المال والسلطان من سيطرة عليها ، ذلك لان يقظة الشعوب ، وادراكها لحقوقها المهددة ، واصرارها على الظفر بها ، اضطر تلك الحكومات الاستعمارية الى سن بعض القوانين الاصلاحية المستجيبة لبعض المطالب الشعبية ، فادى ذلك الى تأجيل نهايتها المحتومة الى حين .

دحض مذهب الحرية الفردية المطلقة

يسهل على من استوعب فصول هذا الكتاب ان يتبين انحراف المذهب المذكور ، فان مؤيديه يقيمون رأيهم ، ويستمدون حججهم من واقع الوضع الاجتماعي الاستعماري الذي ادى الى ارتفاع مستوى الفكر والذوق بين افراد الطبقة المتميزة ، فحسبوا متحلية بمواهب طبيعية لا يتحلى بمثلها العامة ... وهذا غير صحيح . فما انخفاض مستوى العامة الفكري والفني الا نتيجة محتومة لفقرهم وحرمانهم من التربية السليمة ، والتنقيف المجدي ، والتمتع بمقومات الحياة التي

تسمو بمدارك الانسان وذوقه ، او هو نتيجة محتومة لتضخم الطبقة المتميزة على حساب الطبقة الفقيرة . والمغالطة الكبرى أن قال إن الفرص متاحة للمتميزين من أبناء الشعب الرازح تحت هذه الاثقال حتى يظهروا تميزهم ...

ويكفي لتبيين جسامة هذه المغالطة ان نرجع الى الورا بضعه قرون ، الى عهد الاقطاع الذي حلت الرأسمالية الاستعمارية محل امرائه واشرافه في الاستبداد بالشعوب ، فقد كانت الطبقة المسوَّدة حينذاك ، اي طبقة اولئك الاشراف هي المتحطية بصفات الشجاعة والنخوة والشرف ، وهي التي كانت تتذوق الادب والفن وترعاها ، وهي التي اكسبت النعمة افرادها رقة ودماثة وحسن اشارات وعذوبة عبارات تجلت في معاملة بعضهم لبعض . وكان يبدو للناظر الى تلك الحال حينذاك ان طبقة الاشراف هي حامية حتى الفنون والآداب والعلوم والسمو الفكري والحسي ، وانها جديرة بأن تحتفظ بكامل حريتها في السيطرة على العامة ، والاحتفاظ بمستواها الاجتماعي حتى تظل الحافظة الامينة لتلك الذخائر العقلية والحسية والخلقية .

ولكن عامة الناس ، او الطبقة التي تميزت دون سائر الناس بالمال والجاه بعد القضاء على سيطرة السادة الاشراف ، برهنت على انها تتمتع بمواهب لا تختلف عن مواهب هؤلاء . وهي لم تكد تسترد حريتها المسلوقة وتفوز بالسلطان حتى ازداد التقدم الحضاري سرعة . فقد ازداد غناها على اثر التقدم الصناعي والتجاري ، وتضاعف تعدادها اضمافاً على اثر الازدهار الاقتصادي ، فاتسع المجال لظهور الافذاذ من رجالاتها ، وظهور عباقرة الادب والفن الذين امدوا البشرية بألوان جديدة من الثقافة ... وعلى هذا القياس نستطيع ان ندرك مدى ما مستكسبه الانسانية من غنى اقتصادي وثقافي فيما اذا تمكنت جموع الشعوب من خلع نير العبودية ،

والعمل على رفع مستواها المادي والمعنوي . سقنم الانسانية حينذاك ، فوق المغام
المادية الواسعاً جديدة من الثقافة لا تقتصر على التعبير عن افكار طبقة معينة
وخوالجها ، ولكنها ستكون مرآة تعكس الذخائر الفكرية والحسية للبشرية عامة .

ومما تجب الاشارة اليه أن ما قاله « ميل » عن حرية إبداء الرأي وأثرها في
تقدم الفكر وتقدم الحضارة ، لا ينكره عليه إلا كل رجعي التفكير . فهذه الحرية
هي ولا شك أساس كل تقدم ، لأن تعطيلها يعطل الفكر ، ويطمس ملكة الادراك
الصحيح ، ويحيل الناس الى قطع من البهم يتبع رعاته ، فتنتطمس بذلك مقومات
الحضارة . ولكن أحداً من العقلاء لا يؤيد إطلاق تلك الحرية دون أي قيد . وقد
اضطر ميل نفسه الى الجهر بأن حرية الفرد لا يجوز ان تمارس الى الحد الذي تضر
فيه بالناس ، فنقل القضية بذلك من دائرة البحث في حرية الفرد الى دائرة البحث
في الضرر الناشئ عن إطلاق تلك الحرية ، ورأى أن مقدار ما تصيبه الحضارة من
تقدم يتوقف على مقدار ما يتمتع به الافراد من حرية . أما نحن فقد بينا فيما سبق
أن إطلاق حرية الفرد لا بد وأن ينتهي الى شحذ أثرته وجشعه ، وهذا يؤدي الى
تحكمه في الجموع ، وتسخيرها لتحقيق مآربه الذاتية ، والوقوف حجرة عثرة دون
ممارستها لحريتها في سبيل تحقيق غاياتها المشتركة وتحسين حالها . وعلى ذلك يكون
التقدم الحضاري الشامل مرهوناً بتحرير المجموع من استبداد الافراد ، اي بالحد من
حرية الافراد التي تقيد حرية الجموع .

ونحن نرى اليوم قيوداً تفرض على حرية النشر التي كانت مكفولة في الزمن
القديم . فبينما يحتفظ الكتاب والفنانون ومحررو الصحف بالحرية النسبية التي
أصبحت حقاً مكتسباً ، فإن الرقابة فرضت على جميع وسائل النشر الحديثة في بقاع

العالم قاطبة ، او في اكثرها على الاقل ، وكذلك قيدت الحرية من بعض النواحي بموجب قوانين العقوبات ، فالرقابة المفروضة على السينما والراديو ، والنصوص القانونية التي تبيح مصادرة الكتب والصور والاغاني المحلة بالآداب ، والتي تقضي بمعاينة المحرّضين على ارتكاب الموبقات ، والمتجرين بالأعراض ... هذه القيود وغيرها تحدّ ولا شك من الحرية ، ولكن أحداً لا يعترض على ذلك نظراً لأنها تستهدف في هذه الحالات المحافظة على خير المجموع وسلامته .

وعليّنا أن نلفت نظر المدافعين عن الحرية الفردية الطاغية الى مدى هبمنة الافرد ذوي المال والسلطان ممن يتحكمون في اقتصاديات بلادهم على حكوماتهم ، ثم هيمنتهم عن هذا الطريق على الشعوب . فالحكومات لا توفّق في مهمتها الا بمقدار ما تحقّقه لشعبها من ازدهار اقتصادي ، وما دام صمام الاقتصاد يكاد يكون محصوراً في الدول الرأسمالية الاستعمارية بين أيدي اولئك الافراد ، فان تلك الحكومات تضطر الى مراعاة مصالحهم ، والخضوع لرغباتهم حتى لا يخرجوها باحداث أزمات اقتصادية تهدد كيانها ، وقد علمنا مما ورد في الفصل السابق أن معاهد الدين والمدارس والجامعات والمؤسسات الثقافية والفنية وغيرها من دور الثقيف والتعليم تعمل بتوجيه الحكومات الخاضعة كما قلنا لأصحاب المال والاعمال على بث معتقدات الطبقة المتميزة ، فتنبّت الاوضاع القائمة ، وتوطّد حق المتميزين في الاحتفاظ بتميزهم ، وعلى ذلك يكون اولئك الافراد هم المتحكمين في الجهاز المتسلط على كل من فكر الناس وأرزاقهم وحقوقهم . وإذا أضفنا الى ما تقدم أن رجال الادب والفن والصحافة اضطروا الى القيام بمهمة ذلك الدور ، وإلا أجلّستهم الدعاية المضلّة عن ميدان الشهرة ، وطوّحت بهم في غمرة النسيان ، وإذا لم نسقط ذلك من الحساب أدر كنا

ان الحرية التي يقال ان الرجل العادي يتمتع بها في ظل نظام الحرية الفردية المطلقة
صورية ، فان مثل هذا الرجل اذا صرخ ملء شذقيه ليسمع الناس رأيه المعارض ،
غرق صوته في ضجيج الكاذب التي تطلقها أبواق الرأسمالية الاستعمارية كما تطلق
قنابلها في ميادين القتال لتظل متحركة في رقاب الأغلبية الشعبية ، ومتصرفة في
حيواتها وحرياتها .

ان أصحاب نظرية الحرية الفردية هم اعداء الحرية لأنهم ينكرون على أغلبية
الشعوب الواقعة تحت سيطرة اصحاب المال والاعمال ، هذه السيطرة التي حالت دون
تحرر المغبونين من رقة الجهل والعوز ، وفوزهم بحريتهم . ان اصحاب تلك النظرية
الغاشمة لا يدافعون عن الحرية ، ولكنهم يدافعون عن استغلال الافراد للجموع ،
ويفتشون على الحرية لتبرير الاستغلال والاستعباد . انهم ينكرون ذلك المبدأ المسلم
به ، وهو « ضرورة انتهاء حرية الفرد حيث تبدأ حرية المجتمع . »

ان هناك نوعاً واحداً من الحرية يجب ان يصادر ، هو حرية استغلال الافراد
للجماعات والشعوب ، فاذا تم ذلك تمتعت الجموع بالحرية الحقيقية ، وتهيأت لها فرص
تتلاقى فيها الصفات والمواهب الشعبية التي لا تخطر لأنصار الاستغلالية على بال .

آراء في حرية الارادة

اختلف الفلاسفة كما اختلف فقهاء الدين في شأن تصرف الانسان . فرأت
اكثرية هؤلاء وهؤلاء أن تصرفه إرادي بمقدار ، فهو يتصرف بمشيئته مقيداً
بالظروف المحيطة به ، وأنكرت أقليتها حرية إرادته . وسند كثرة رجال الدين فيما
ذهبوا اليه ان الجزاء المكتوب للانسان او عليه في الآخرة يستتبع تركه في دنياه
حراً في اختيار سبيل الخير او الشر . وسند الجبريين ان الله يفعل ما يشاء ولا يسأل

عن فعله ، وأن له في كل ما يفعله حكمة تغيب عن عقول البشر .
وقد اهتم المؤرخون الغربيون منذ القرن الماضي بدراسة هذه القضية والتماس
حل موفق لها ينير لهم طريق بحوثهم التاريخية ، ولكن الحل استعصى عليهم ،
ولم يقسموا كرجال الدين الى فريق يعتنق الخيارية ، وآخر يعتنق الجبرية . وبني
كل من الفريقين بحوثه التاريخية على اساس النظرية التي اعتنقها .

يرى القائلون بمذهب الجبرية ان الانسان مسوق في حياته الى غايات لا يدرك
كنهها ، ومدفوع بدوافع لا قبل لارادته بها . فهو خاضع للنواميس الطبيعية ،
والقوانين الوضعية ، وظروف عصره الاقتصادية ، وتقاليده قومه الاجتماعية ، ومثله
الاخلاقية . وهو مقيد كذلك بقصور ادراكه ، وحوائح جسمه ، وما يعتوره من
وهن ومرض وخوف وعوز ، فكيف تكون له ارادة حرة وهو رازح تحت ثقل
هذه الاعباء ؟ ..!

وقد ايد فولتير هذا الرأي ، فقال محاوراً كعادته « يكون الانسان حراً فيما اذا
استطاع اختيار ما يريد ، وكيف يستطيع ذلك وهو لا يريد شيئاً الا بسبب او دافع
خارج عن ارادته ؟ ..! »

وانكر كل من بوسويه وفيكو كذلك تمتع الانسان بأي نصيب من حرية
التصرف ، وعزوا ذلك الى هيمنة العناية الالهية على البشر جميعاً ، وتوجيهها
لمساعدتهم كافة .

واخذ فريق آخر من المفكرين ، وعلى رأسهم فيخت الالماني ، بنقيض هذا
الرأي ، فزعم ان النصر معقود للفكر البشري ، وستكون له الغلبة في النهاية على
العقائد الخاطئة التي ملكت زمام البشرية فأضلتها .

وقد انكر المؤرخ الانجليزي « باكل » مذهبي الخيارية والجبرية معاً ، وادلى
برأي جديد نلخصه فيما يلي :

« كان اجدادنا الاقدمون وهم يعيشون على الفطرة عيشتهم القبلية البدائية
يعلمون كل ما يقع لهم من امر بأنه وليد المصادفة المحضة ، لأن رزقهم ، وهو أهم
ما كان يعنينهم ، لم يكن يواتيهم على وتيرة واحدة . فكم أصابوا منه فوق ما احتاجوا
اليه ، وكم أخطأوه حتى برح بهم الجوع أو قضى عليهم . فلما خطوا في سبيل الرقي
قدماً ، فطنوا الى أسرار الزراعة واحترفوها ، ورأوا أنهم كلما زرعوا جنسوا ثمار ما
يزرعون ، فاطمأنوا الى أنهم يستطيعون ضبط موارد رزقهم ، وتوقع ما يضمره لهم
المستقبل القريب . ومن ثم أخذت الأذهان تدرك شيئاً فشيئاً أن أمور الحياة لا
تجري على الدوام بغير ضابط ، ونبقت فكرة غامضة عما عرف فيما بعد عن النواميس
الطبيعية . ثم تدربت الأذهان مع توالي الزمن وتقدم الحضارة على الملاحظة والتدبر ،
وقامت الأدلة على خضوع كثرة أمور الحياة لنظام ثابت ، وأن بين بعضها وبعض
رابطة وثيقة . ثم فطن بعض المفكرين الى ان كل حادثة مرتبطة بحادثة سابقة
عليها ارتباطاً وثيقاً ، وان لكل منها باعثاً حتى ولو كان غير ظاهر ، فتداعت بذلك
الفكرة الاولى القائلة بأن وقائع الحياة وليدة المصادفة ، وقامت مقامها فكرة اخرى
تقول ان الحياة تجري على قاعدة « العلاقة المتصلة » واغلب الظن ان مذهب
الخيارية وليد الفكرة الاولى ، ومذهب الجبرية وليد الثانية . ذلك لان كل مذهب
جديد يقوم على انقاض مبدأ سابق متقوض ، ويستمد منه عناصر تكوينه .

« وبما لا شك فيه ان كلا هذين المذهبين اللذين عادا على بني الانسان بشتى
انواع العذاب بعيدان عن الصواب . فالقائلون بالمذهب الخياري يزعمون ان

الانسان يحتكم الى ضميره في كل ما يعرض له ، وان ضميره هذا موهبة قادرة قائمة بذاتها ، تتصرف تصرفاً استقلالياً عن مقتضيات الحياة ، وهذا غير صحيح ، لان تلك القدرة المستقلة غير موجودة ، وما الضمير الا حالة من حالات النفس ، مواعده مستمدة من مذاهب الجيل ومعتقداته . والقائلون بالجزئية يفترضون انقسام البشر الى فريقين ، فريق كتب له النعم ، والآخر كتب عليه الشقاء . وهذا الافتراض لا يمكن النظر اليه بعين الجد لانه لا يمكن اثباته علمياً .

« وحقيقة الواقع ان كل انسان يتصرف وفق اخلاقه وطباعه ومستوى ثقافته . فاذا استطعت ان تلم بطباع انسان ما وصفاته التي ليس له يد في وجودها ، فانك تستطيع ان تتنبأ في غير تعرض للخطأ ، بتصرفه فيما يعرض له من امر ، فهو يختط خطته وفق علمه ومزاجه ، وما دام الأمر كذلك فلا يصح ان يقال انه مخير في تصرفه ، او يقال انه مسير » .

الحل الواقعي للمشكل

لا شك أن هذا الرأي الأخير ألقى بعض الاضواء على المشكل ، وسنعرض على القارئ الحل الصحيح الذي صاغه أحد الكتاب الانجليز المعاصرين فيما يلي ، ولسنا نشك في أن الحقيقة ستتكشف على نحو لا تقبل بعده اعتراضاً الا من معترض غير جاد :

« اذا قلنا ان الانسان لا يتمتع في تصرفه بحرية الارادة ، فان معنى ذلك أننا نعبه آله سماء تتحرك في حيز محدود وعلى نحو مقدور من غير ان يكون لها دافع او ضابط من عقل وذوق ، فهذا القول بعيد عن الصواب ما في ذلك شك ، ولكن خطأه لا يعني أن لارادة الانسان مدلولاً مستقلاً قائماً بذاته . فالانسان منبع حركة

ونشاط ، وهو يفكر ويشعر ويعمل . ولكن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المحيطة به تؤثر فيه كذلك وتطبعه بطابعها ، وتفسر له ما غمض من الآراء التي تخطر له عن العالم الذي يعيش فيه ، والرغبات المتولدة عن هذه الآراء .

« وبعض تلك الظروف الاقتصادية يبدو له ثابتاً لا حيلة له في تغييره ، فيضطر الى ان يلائم بين رغباته ومطالبه وبين ضغط تلك الظروف . وهناك ضرورات لا إرادة له فيها كاضطراره الى ان يتنفس ويأكل ويشرب وينام ، فلا حرية حيث تقوم ضرورة لا بد منها لصيانة الحياة ، والقول بغير ذلك لا معنى له . والحرية والحاجة تسيران في الحياة جنباً الى جنب ، فهما نقيضان يكمل أحدهما الآخر ، ويكونان معاً كلا واحداً . ولكن القيود التي تكبل الانسان غير مقصورة على تلك الحوائج الجمانية البادية لنا ، ولكنها تشمل كذلك الفروض الاجتماعية والواجبات الشخصية من احترام الناس ، وتجنب المحرمات ، والتمسك بالتقاليد الأخلاقية ، والمثل السامية ... تلك السجاياء التي تغلغلت جذورها في عقولنا وقلوبنا الى الحد الذي يصعب معه تصور أننا نستطيع تجاهلها . فإذا تحدثنا عن حرية الإرادة ، فلا يغيب عنا انها تجري بين ضفتي ما ذكرناه .

« ثم ان من صفات الفرد أنه لا يكف عن تدبر مستقبله . وهو يستطيع أن يتنبأ بأكثر ما تخبئه له الايام من واقع دراسة ماضيه والافادة من تجاربه . هذا هو علم الانسان التجريبي ، وهو اهم العوامل التي تفسح له في مجال العمل على تغيير الظروف المحيطة به الى ما هو أنسب له ، ووضع خطط مستقبلية . ذلك لأن فهمه للماضي على وجهه الصحيح ، ومدراكه أن ذلك الماضي يشتمل على نواة المستقبل ، وتقديره لقيود حاضره ، وحدود طاقته ، كما يمكنه من تسخير قوته الانشائية الخالقة

في سبيل تغيير الأوضاع المستتبة حوله . وإن من خصائص الانسان أن يتبين ما يستطاع ، وأن يشتهي ويختار ما في متناوله ، وفي تلك الحدود يمكن أن يقال أنه يعبر عن ارادته ، ويعمل وفق ما يريد .

• « وإذا كانت حرية الإرادة طرفاً لتلك الحال ، فإن الحاجة هي طرفها الآخر . وعند تقابل هذين الطرفين يتهيأ المجال الذي يبذل الانسان نشاطه في حدوده . ولزيادة هذه الفكرة تحديداً نقول انه اذا استقر الانسان على رأي فمعنى ذلك ان ارادته وحاجته قد اتحدتا ، وانقصح له بذلك مجال بذل نشاطه .

« على أن الانسان الذي يدرس أية حالة تعرض له ، ويجمع عنها مختلف المعلومات يكون أقدر على معرفة ما يجب عمله بصدها . فهو كلما ازداد علماً بها ، قل عدد العوامل الخفية التي تحمله على التردد . ومعنى ذلك أنه كلما ازداد علماً بها ، ازداد تشبهاً بما يتخذ من قرار . ويرجع ذلك الى أن مجال الخيار يضيق أمامه ، فتضيق دائرة حريته . بل يمكن أن نقول إن الشقة بين الإرادة والحاجة أخذت تنقلص ، فإذا بلغ علمه أمته ، واتضحت له وجهة النظر المثلى كان لا محيص له عن اختيارها . ويمكن القول عندئذ أن الإرادة والحاجة اندمجت بعضهما في بعض ، وأصبحتا شيئاً واحداً غير منفصل ، وكوننا مرحلة الانتقال الى العمل . »

هذا مجمل الرأي الذي نستصوبه ، وهو يشبه رأي « باكل » السالف الذكر في البناء دون النتيجة . ولا يظن أحد أن ذلك الفيلسوف المعاصر الذي استطاع أن يوفق الى الحل السليم للمشكل ، يرمي الى أن العلم الذي يقضي على مجال الخيار يقضي بذلك على الحرية ، اذ عكس ذلك هو الصحيح . فالانسان لم يذق من انواع الاستعباد والاستبداد مثل ما ذاق على يد الجهل . وهو اذ يطلب العلم ، ويستضيء

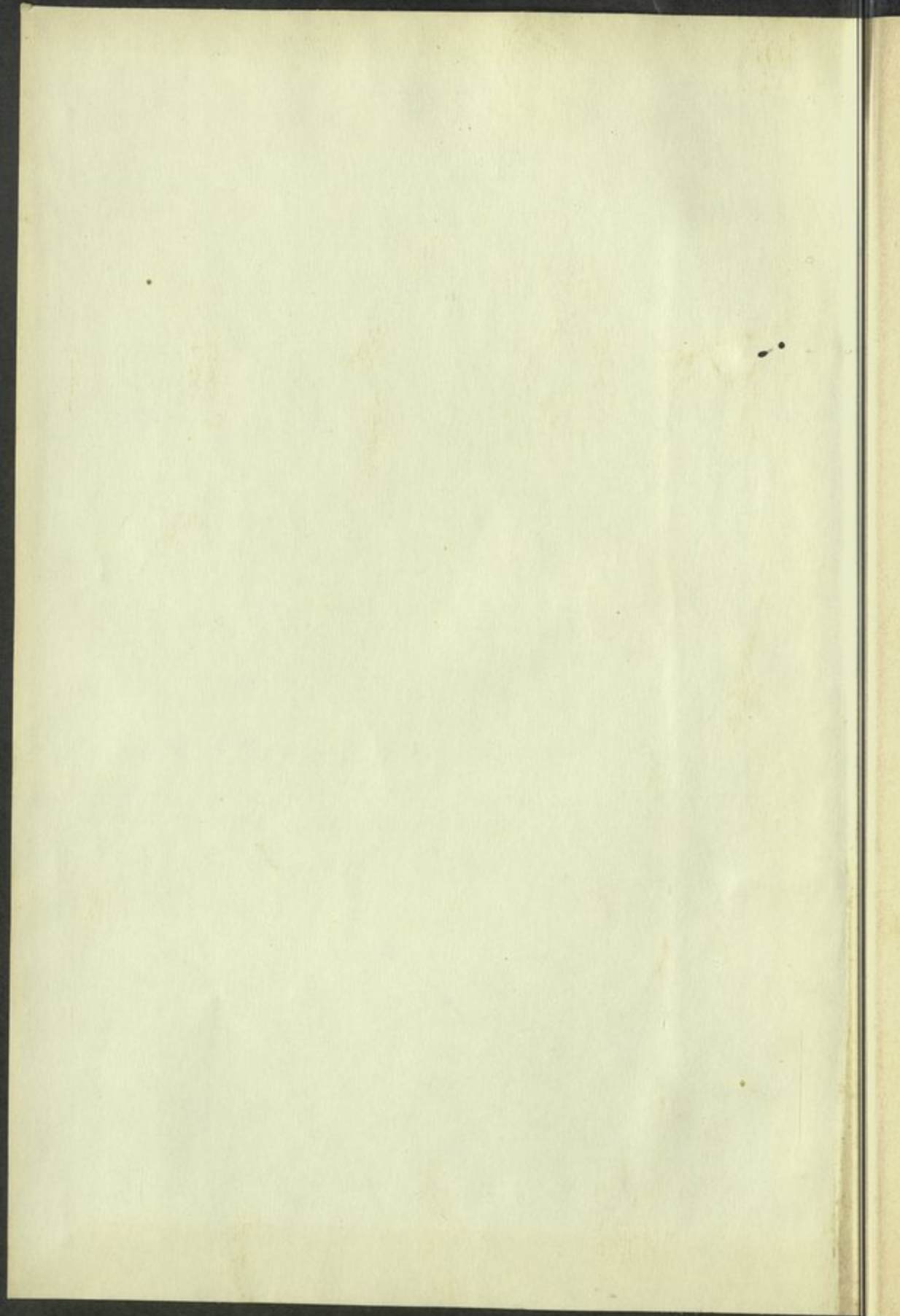
بنوره ، ويتبين الطريق السوية على هداه يمارس حريته في أعلى مراتبها . في حين أنه وهو يتخبط في غياصة الجهل على غير هدى لا ينعم بحرية الاختيار ، ولكنه يتعثر في حبال الظلام . والعلم يكشف غموض المجهول ، فيحرر الانسان من خوف ما يجهل ، ويتيح له بذلك أتمن ما يصبو اليه من انواع الحرية .

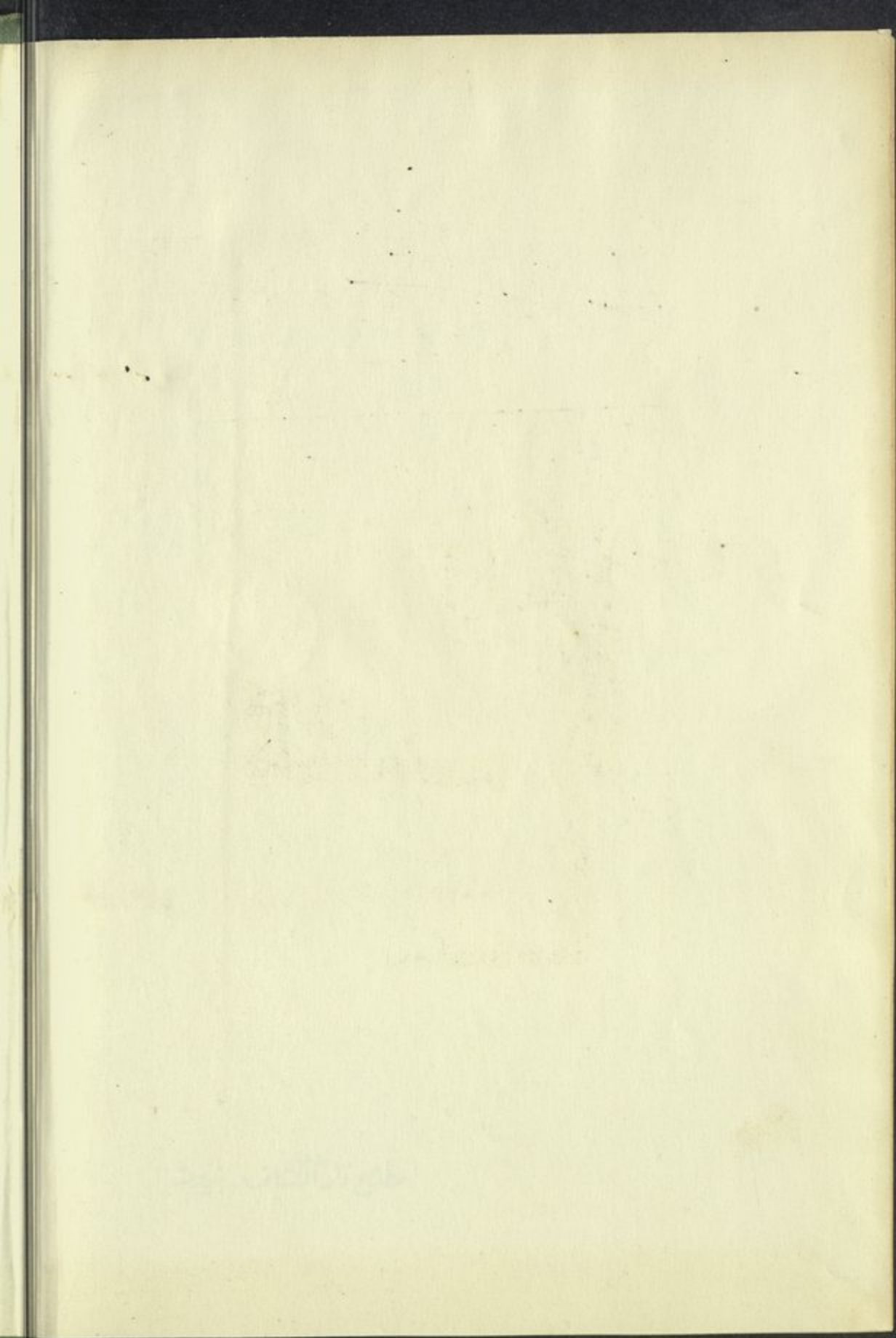
لقد استطاع الانسان بواسطة تقدم المعرفة ان يتغلب على استبداد الاقدار به ، وسيطرة الخرافات على ذهنه ، وتهديد الطبيعة لمقومات حياته . وهو بسبيل التمكن من غلبته على الاستعباد الطبيعي والبشري بألوانه كافة دون ان تكون لمصادقات القدر ، ونزوات البشر أية هيمنة عليه .

الفهرس

ص	الفصل الاول
٥	المبادئ العامة للفلسفة
	الفصل الثاني
٢٤	النظرية والتطبيق
	الفصل الثالث
٤٥	مبادئ الفلسفة المثالية
	الفصل الرابع
٧١	منهج الفلسفة المثالية
	الفصل الخامس
١٠١	الفلسفة المادية البحتة
	الفصل السادس
١١٧	امس الفلسفة الواقعية
	الفصل السابع
١٣٣	منهج الفلسفة الواقعية
	الفصل الثامن
١٥٣	التفسير الواقعي للتاريخ
	الفصل التاسع
١٧٦	الحرية

طابع دار الكشاف - بيروت





320.1:Sh561A:c.1

الشوياشي، محمد مفيد

الفنسة السياسية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01013563



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

113
C.1